ماضي المستقبل

صراع الهوية والوطنية في عالم يتعولم



أ.د. رجب بودبوس

مجلس الثقافة العام

عبد الله علي عمران

الــفــهــرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الثامن

الفصل التاسع

مقدمــــة

النزاعات تشتعل هنا وهناك، تقريباً في كل مكان: العالم متوتر، البعض يعدد أكثــر مــن مــئة بؤرة صراع مهم، باستثناء الحروب بين دول ومقاومة الاحتلال والعدوان الخارجي .

قــد لا يــبدو هذا أمراً جديداً، إذ لم يمر على العالم حين بدون توترات، ولم تــشتعل بــؤر صــراعات، ولكــن الدولة كانت قوية بما يكفي للسيطرة في غالب الأحــيان، فهــي تواجه عدوًّا واحداً، والمطالب كانت إما اجتماعية يحركها الحنين لــوحدة هــوية ممزقة، أو مقموعة، أو غير معترف بها، أو مطالب اقتصادية ضد ظلم علاقات السوق، أو مشاعر دينية منتهكة تطلب الاحترام .

الدولــة، وإن كانــت تــواجه صراعات خارجية، على حدودها، إلا أنها في الداخل تبدو متمتعة ببعض الاستقرار، ولقد كانت مدعومة، إذ ليس في صالح قوى الرأسمال تفكيك الدولة، السوق الوطني بالنسبة لها، كان ضرورة تتغلب أحياناً على عوامل الطرد .

هكــذا استمرت الدولة قائمة، رغم تغير نظمها، وأشكالها: ملكية جمهورية، برلمانية، دكتاتورية .

الــيوم، وإن كانــت الدولة لم تعد في مواجهة خطر الحروب على حدودها، بسبب عولمة الاقتصاد، وبفضل الشركات المتجاوزة للوطنيات، إلا أنها صارت في مــواجهة خطر أشد: التوترات الداخلية يلهبها بروز العامل الاجتماعي والبحث عن هــويّات نمط الدولة الوطنية، فيدرالية كانت أم اندماجية، قام على استبعاد العوامل العرقية، والدينية والثقافية، مؤسساً على عوامل لا مكان فيها لهوية اجتماعية ثقافية عرقية: الأرض، السكان، النظام السياسي .

هــذا الــنمط اعتبــر تقدماً، يحقق تجاوزاً نهائياً للانتماءات العرقية والدينية، عوامل صراع، لصالح الانتماء لوحدة وطنية، وهوية تتمحور حول الرباط السياسي.

لكـن ما اعتبر تقدماً حضارياً، لم يكن في حقيقته إلا استجابة لمطلب وحدة الـسوق، الذي حدوده رسمتها الرأسماليات – الوطنية في تنافسها وصراعها، غير عابئة بهويات الناس الوطنية هكذا لم تكن إلا ستاراً اديولوجياً للسوق .

الدولـة الوطنـية، نشأت هكذا، مستندة على قوى الرأسمال والتي انتماؤها للـسوق، يعطِّـل الانتماء العرقي والديني تجاوز عامل العرق والثقافة كان لصالح الـسوق الوطنـي، ولـيس من أجل سلام اجتماعي مزعوم، هذا السلام كفلته القوة والقمع في أغلب الأحيان لكن الرأسمالية اليوم، في مرحلتها المالية، تتجاوز السوق الوطنـي، وتتحلى غير آسفة عن صنيعتها الدولة الوطنية السوق الواحد، عالمياً – العولمة – يجعل الدولة الوطنية، وقد أضعفتها العولمة الجارية، في مواجهة عوامل الـتفكك الداخلـي وحيدة وما أعتقد أنه انتهى، عاد ليشتعل وليبرهن على أن السلام الاجتماعي كان هدفاً وهمياً، أجّل الصراع، لكنه لم يحله .

الدولـة الوطنـية، الـيوم يـتحالف ضـدها عدوان، رغم أنهما متناقضان: خصمهما الجديد الذي كان لها حليفاً ولم يعد في حاجة إليها .

العولمة الجارية، تتجاوزها الدولة الوطنية، وتخليها عنها، ساعية نحو وحدة العالم في شكل سوق، تلقي بالدولة في متحف التاريخ، مع السوق الوطني بينما في القاعـدة، الجماهيـر متـروكة لنفسها، وقد شعرت بضعف الدولة، وبوادر غيابها، المتمـثل فـي تقلـص الخدمات الاجتماعية والحماية القانونية، تستجيب لنداء في أعماقها، باحثة عن وحدة تستبعد السياسي والاقتصادي نحو الاجتماعي، خاصة أن هذه الجماهير لا تنتظر خيراً من عولمة لا تقدم لها – كهوية – إلا هوية السوق أو الاستبعاد .

عـندما تـذهب العـولمة بالـرباط السياسي الوطني، الذي يربط مكونات اجتماعية مختلفة، وعندما تفتح السوق الوطني ليصير جزءاً من سوق عالمي، فإنها لا تتـرك للـناس مـن خيار آخر غير الرباط الاجتماعي العرقو ثقافي، ملجأ في مواجهـتها، المـسألة صـارت تتعلق بالبقاء في مواجهة هوية لا إنسانية يفرضها السوق المعولم .

العـولمة تلعـب دوراً لا تعيه، عندما تدمر الوحدة الوطنية ورمزها الدولة، وتـضعف السياسي حتى الموت، وتفتح الأسواق على بعضها لتصير سوقاً واحداً، فـتفقد الدولـة قاعدتها الاقتصادية وسبب وجودها، وتجعل كل الاحتمالات ممكنة: المستقبل مفتوح على كل الاحتمالات .

التكوينات الاجتماعية المتنوعة والمتعددة، تفقد هكذا روابطها الاصطناعية ـ الدولـة الوطنية، والتي تجعل منها هوية وطنية الرباط السياسي يتبخر، والاقتصاد يـتعولم، والدولـة تحـال على المعاش، فلا تجد ما يربطها ببعضها: هكذا البحث، وبعث هوية سابقة على الدولة الوطنية يصير أمراً محتماً.

هكـذا يتوتر العالم، وتشتعل بؤر الصراع، ليس على الحدود الوطنية، هـذه المـرة، وإنما في قلب الدولة وإن كان هذا ليس جديداً، إلا أن الجديد هذه المـرة أن هذه التوترات تشتعل بينما الدولة الوطنية تختنق تحت وطأة العولمة، التـي تفتح الحدود الوطنية، وتشل السياسي، وتضعف السلطان الوطني الدولة الوطنـية، حينـئذ، ليست فقط في مواجهة توتر اجتماعي، عرقو ثقافي، وإنما أيـضاً في مواجهة عاصفة العولمة وبدون سند، العولمة تعني أن الرأسمالية لم تعد في حاجة لدولة وطنية .

إلى أين تقود هذه التوترات ؟

وماذا ينجم عن هذه الصراعات ؟

لا أحـد يـستطيع التنبؤ على وجه الدقة، ولا يمكن تحديد المسارات مقدماً، وكل ما يمكن قوله أن هذه التوترات، على خلفية عولمة متسارعة، تجعل المستقبل مفتوحاً على كل الاحتمالات لكن من المؤكد أن هذه التوترات ستكون الماضي الذي يحـدد المستقبل، إنّها ماضي المستقبل الذي لا نعرف بعد كيف سيكون، هدفنا إذن أن نعرف هذا " الماضي " الذي تجري أحداثه أمام أعيننا .

بالطبع ليس هدفنا حصر توترات العالم، وما أكثرها اليوم وكم ستكون غداً. لكن أن نقدم أهم النماذج التي ـ ربما ـ تشير إلى المستقبل الذي ينتظر الإنسانية.

بعض المؤشرات، عندئذ يمكن أن تجعلنا نجزم بأن الكيانات العملاقة اليوم، الصين، الهند، الولايات المتحدة، الاتحاد الأوربي روسيا .... الخ هي أكبر من أن تبقــى متماسكة على نمط دولة وطنية، حتى في شكل فيدرالي، كما إنها ليست أبداً بمــنأى عــن عواصــف العــولمة، والتي تعيقها، مثل هذه الديناصورات السياسية الكبــرى، ربمــا أكثر من تلك الصغرى، الدول الكبرى ربما ما زالت تؤدي خدمة للرأســمال في زحفه على العالم، إنها ذراعه في تأسيس سوقه المعولم، لكن دورها ســوف يأتي، ولو بعد حين أن هذا ـ ربما ـ ما جعل الجموع في الدول الكبرى، تنازل العولمة في الشارع .

عندئذ هل يمكن إهمال المكونات الاجتماعية للدول الوطنية ؟

إنّ انهــيار الدول الوطنية، لا يعني استسلام الجماهير، وقبولها بهوية السوق العالمــي: منتجون، مستهلكون، مستبعدون ردة فعلها يمكن من الآن توقعها: نشوء كــيانات جديدة أقوى من الدولة الوطنية، لأن رباطها ليس اقتصادياً ولا سياسياً ـ فهذا بالضبط ما تطيح به العولمة ـ وإنما اجتماعي .

منذ اليوم ثمة من يتحدث عن أوروبا الأقاليم، أو أوروبا الشعوب، بديلاً عن أوروبا الدول الوطنية .. ولم لا يكون الوطن العربي بديلاً عن الدول الإقليمية ؟ .

إن توقعــنا المستقبل يعيننا على تحقيقه، تفكك الدول الوطنية لن يجعل العالم تحــت هيمــنة الــسوق، صــيغة جديدة يمكن أن تظهر في مواجهة العالم – سوق التكوينات الاجتماعية وقد استعادت هويتها ما قبل الدولة الوطنية، يمكن أن تتحالف لــتكون فــضاءً، مجالا حيوياً، أكبر وأقوى من أي دولة وطنية وبالتالي أقدر على الوجــود في ساحة العولمة، دون أن يكون هذا على حساب الهويات العرقوثقافية، وأكثر مرونة من أن يعيق ازدهار الهويات .

– كل هذا احتمالات :

مــسيرة الــتاريخ لا تعــرف الحتمــية، لأن محركها إرادة الإنسان، إرادة الإنسان، اليوم التي توتر العالم، وتهز الدول الوطنية التي صدعتها العولمة، ستكون الماضي الذي يصنع المستقبل ستكون ماضي المستقبل .

ماضـــي المـــستقبل هو حاضرنا اليوم، وما يعتمل فيه من أحداث هي التي سوف تصنع المستقبل .

ومـــع قناعتي بأن كل توقع يمكن أن يغير من مسار التاريخ، وبالتالي يمكن أن يعدل من المستقبل، فلا يحدث جزئياً أو كلياً، لكن يمكن أن نتصور – افتراضياً – المـــستقبل الذي نعيش ماضيه، من خلال رسم مسارات، تحدد أمام عيوننا، على خلفـــية عولمة توحد السوق، وتضعف الدولة الوطنية، وعامل اجتماعي يملأ فراغ الدولة المنسحبة، ويوحّد المستبعدين من السوق المعولم .

إننـــي أعتبـــر هذا العمل مكملاً لكتابي ثأر الاجتماعي، إنه الجزء الثاني مـــنه* وإذا كانـــت الدولـــة الوطنية قد سادت عدة قرون، فإن القرن الذي بدأ سيكون قرناً اجتماعياً .

الهوامـش

* الوطنـــية ليـــست القومية: الأولى هوية سياسية، بينما الثانية هوية اجتماعية، اخــتفاء الأولى سيكون لصالح بعث الثانية، انظر: د.رجب بودبوس مواقف، الدار الجماهيرية، موقف 12 القومية والوطنية .

* العـــرقو ثقافـــي: من الصعب الجزم بوجود عرقي خالص لا يرتبط بالثقافة، متميز عن الثقافة، الثقافة مكون أساس ومهم في كل عرق، فهي أي حد كبير وعـــي العـــرق بخصوصيته كما أن الانتماء الثقافي يمكن أن يقود إلى انتماء عرقي، بغض النظر عن الحقيقة البيولوجية لهذا الانتماء، إنه تعبير عن إرادة أن تكون لهذا اربط بين العرق والثقافة في مصطلح واحد هو: العرقو ثقافي.

عن العولمة: انظر :

د. رجب بودبوس: 1- مواقف 8 - الدار الجماهيرية

موقف 8 - العولمة .

موقف 9 - فخ العولمة .

10 - عولمة الاجتماعي .

11 - العولمة والوطنية .

2 - مواقف 10 - الدار الجماهيرية .

موقف 11 - العولمة باختصار .

* ثأر الاجتماعي نشر: دار الرواد طرابلس، دار الأفاق الجديدة، بيروت: 2000 .

الفصل الأول

1- وإذا الروس سألوا ... ؟

انهيار الاتحاد السوفيتي ترك روسيا تواجه أزمات حادة، اقتصادية وسياسية واجتماعية بنيوية، لكن أخطر الأزمات على الإطلاق هي أزمة الهوية .

غداة الانهيار صار السؤال المطروح من قبل الروس هو: من نحن ؟

الاتحـــاد الـــسوفيتي مـــثل محاولة دمج روسيا في هوية عامة، تجمعها مع شـــعوب الاتحـــاد الأخـــرى، وهـــذا اقتضى بالطبع استبعاد تقاليد وأعراف وديانة المجـــتمع الروســـي، وكذلك أعراف وتقاليد وديانات الشعوب الأخرى، بهدف خلق هـــوية تتجاوز كل التراث الماضي للشعوب السوفيتية، وأكثر هذا، كان التوجه نحو هوية عالمية تتجاوز كل الهويات القومية، المعتبرة آنذاك بورجوازية .

هذه المحاولة أملتها ضرورتان، ضرورة سياسية وضرورة أديولوجية :

سياســـياً لم يكن ممكناً إقامة دولة في مثل حجم الاتحاد السوفيتي على أساس هيمـــنة هـــوية إحدى مكوناته لم يكن ممكناً تجاهل ما قدمته الشعوب الأخرى في انتـصار البلاشـــقة واستيلائهم على السلطان. أن أي توجه نحو استمرارية الهيمنة الروســـية يذكّر الشعوب الأخرى بروسيا الاستعمارية، أضف إلى هذا أن الشعوب غيـــر الروسية تمثل عددياً ثقلاً لا يستهان به وإذا أخذنا في اعتبار طموحات النفوذ خارج الاتحاد، فإن الأمر يستلزم خلق نموذج مجتمع ذي هوية تتجاوز كل الهويات المكونة له، لكي يكون جذاباً .

أديولوجـــياً: حـــسب النظـــرية الماركسية، تعتبر الوطنيات Nationalismes مفهـــوماً بـــرجوازياً يـــرتبط بنـــشوء الرأسمالية تجاوز الرأسمالية يقتضي تجاوز الانقـــسامات الوطنـــية، أمـــا الدين فلم يكن حسبما ذهب فويرباخ، وتابعه في هذا ماركس، إلا أفيون الشعوب .

في مسألة الدين العامل السياسي أكثر أهمية من الأسباب الإيدلوجية، روسيا الارتودوكسية صارت في الاتحاد السوفيتي ضمن مجتمع تتعدد فيه الأديان، الأخذ بالأسلوب العلماني أي أبعاد الدولة عن الدين، والذي يسمح بممارسة الأديان دون التأثير سلبياً على الانتماء السياسي، لم يكن ممكناً نظراً لطبيعة علاقة الدولة الروسية بالدين الارتودوكسي، ليس فقط لأن روسيا تبنت المسيحية متأخرة بالنسبة لغيرها، وإنما أيضاً أن العوامل السياسية لعبت دوراً مهماً في هذا لقد دخلت كييف، منذ ظهورها، في علاقات قوية مع بيزنطة - الكنيسة الشرقية، منذ ظهورها - أميرها، فلاديمير، 980 - 1015، فرض على رعاياه اعتناق المسيحية حوالي عام 988 المسيحية الارتودوكسية صارت هكذا دين الدولة قبل أن تكون دين الشعب، أما أيفان الثالث 1462 - 1505 والذي قضي على هيمنة المغول عام 1480، واتخذ لقب أوتوقراط، ونظم دولة قوية مركزية، فقد تبنى أرث بيزنطة، رافضاً وحدة الكنيسة الارتودوكسية مع كنيسة روما، كما تنص اتفاقية فلورنسا التي عقدها البزانطيون عام 1439، وعمل على أن تكون موسكو روما الثالثة عندما سقطت القسطنطينية - روما الثانية - في أيدي المسلمين الأتراك .*

موسكو، منذ سقوط روما الثانية، القسطنطينية، تريد نفسها روما الثالث، ومن هنا التداخل الكبير بين الدولة والكنيسة ويجعل من الصعب تحرير الدولة من سيطرة الكنيسة دون تدمير الكنيسة .

روما الثانية، التي تريد موسكو نفسها وريثاً لها، قد دمرت على أيدي المسلمين الأتراك، وهذا يعني أن كنيسة موسكو قد ورثت الحقد والثأر من المسلمين، هذا العداء سيكون عامل عدم استقرار في الدولة المزمع إقامتها بعد عام 1917، خاصة وأن الإسلام يمثل ثاني دين في الاتحاد السوفيتي لهذا السبب اتجهت الدولة السوفيتية إلى منع الأديان .

الفترة من 1917 - الثورة البلشفية - إلى 1990، انهيار دولة الاتحاد السوفيتي، مثلت قطيعة تامة مع هوية روسيا الاجتماعية والتاريخية المتكونة خلال عدة قرون، كما أن تسفيه الكنيسة ومحاربة عقيدتها - الدين أفيون الشعوب - أفقد

الـروس مكوناً أساسياً من مكونات هويتهم القومية روسيا التقليدية تقوم على أقانيم ثلاثة: الدولة المركزية، القومية، الكنيسة الارتودوكسية، ولم يكن ممكناً إقامة الدولة والمجتمع السوفيتي دون تدمير هذه الأقانيم .

لكن القضاء على هذه الأقانيم الثلاث لم يكن ممكناً إلا من خلال إحلال ثلاثة أقانيم جديدة:

محل الدولة الروسية المركزية، حلت الدولة السوفيتية المركزية محلّ القومية حلّـت الهـوية الـسوفيتية محل الكنيسة وعقيدتها حل الحزب وعقيدته الماركسية، عـندما انهـارت دولة الاتحاد السوفيتي، وتبددت الهوية السوفيتية المصطنعة التي كانـت تجمـع شـعوبه وسقط الحزب جاراً معه عقديته الماركسية، وجدت روسيا نفـسها فـي حالة فراغ هوية، حالها في ذلك حال الشعوب الأخرى المكونة سابقاً للاتحاد السوفيتي .

وإذا كانت الشعوب الأخرى تحاول استعادة هويتها ما قبل الاتحاد السوفيتي، وأحـياناً ما قبل الهيمنة الروسية في عهود القياصرة، فتبدو هكذا في غير زمانها، ودخلت، وربما ستدخل في مواجهات دامية مع روسيا، فإنها لا تطلب إلا ما يطلبه الروس اليوم .

إن الروس حالياً يشغلهم، أكثر أي شيء آخر، إعادة الارتباط بهويتهم ما قبل الاتحاد السوفيتي، وهم لهذا ينفضون الغبار عن أمجاد الماضي أحداثاً وشخصيات، مـن فلاديمير مؤسس دولة كييف إلى أيفان الثالث محرر الروس من هيمنة المغول إلى ايفان الرابع الرهيب الذي أخضع التتار والكانات في كازان وواصل التوسع في سـيبيريا، إلـى بطـرس وكاثرين، ويحيون شعر "روسيا المقدسة " ولأن الكنيسة خاصـة الارتودوكـسية، تعتبر مكون أساسي في هوية الروس، وحيث أن شعار " روسيا المقدسة " يشير إلى القومية الروسية وإلى الكنيسة والدولة معاً، فأن الروس يعـيدون الاعتبار للكنيسة الارتودوكسية موقف روسيا من مشكلة البوسنا والهرسك وكوسوفو ليس بعيداً عن هذا .

الإحـساس العمـيق عند جميع الروس، هو أن روسيا في خطر، ليس

هـذه الهوية، لسوء حظ الشعوب غير الروسية، في الاتحاد الروسي، ترتبط جـداً بـإرث اسـتعماري، روسـيا اليوم تفصلها سبعون عاماً عن مرحلة تصفية الاستعمار.

- **انهيار الاتحاد السوفيتي جعل الروس بين خيارين :**

- إمـا العودة للهوية الروسية التقليدية، ما قبل الاتحاد السوفيتي، مع ما يرتبط بها أعراف وتقاليد ومعتقدات دينية واجتماعية وسياسية واستعمارية.

- وإما الضياع وفقدان أي مرجعية في زمن العولمة .

يـبدو لـي مـن خـلال مَنْ حاورتهم * أن كل الأحزاب، يمينية، كالحزب الوطني، ويساريه، كالحزب الشيوعي، قد اختارت استعادة الهوية الروسية التقليدية، والتـي تـتمحور حـول أقانيم ثلاث: الدولة المركزية، القومية الروسية، والكنيسة الارثوذوكسية، شعارها جميعاً: روسيا المقدسة .

هامش :

* رومـــا الأولـــى سقطت أمام غزو قبائل الجرمان روما الثانية - القسطنطينية - بيزنطة - سقطت على يد الأتراك المسلمين .

روما الثالثة - موسكو - طمستها حينا الدولة البلشفية .

* موسكو من 6/29 إلى 2000/7/5 .

انظــر :

1- موسوعة لاروس ص 436، 437 .

2- غينادي زوغانوف دروس الحياة .

3- مجد الأمم هيلين كاديردانكوس فايارد 1990 .

4- الخـــروج من الاجتماعية (الاشتراكية) في سورمان فايارد 1990. ص 15 - 97 .

2- الغجر: منبوذو أوروبا !

أصـــل الغجر، وتاريخ وصولهم إلى أوروبا، لازال موضع جدل ونقاش في أوساط الباحثين المهتمين بالموضوع، لكل الدراسات، التي جرت في بلدان مختلفة، وضـــعت موضــــع شك، فرضية انحدارهم من أصل واحد، في مكان ما من الهند القــديم، وإنـــه تــبع ذلك حركة هجرة نحو أوروبا، من خلال معبر البوسفور، في حوالـــي العام ألف. اللغويون يجعلون لغة الغجر، الرومانية ومنها المصطلح روم، الـــذي يطلـــق علـــى الغجر، مشتقة أو متفرعة عن اللغة السانسكريتية، مثلها مثل الهــندية والبنجابية، لكن اللهجة الأكثر استعمالاً، بين الغجر، هي الفلاش، المشتقة من فلاش إحدى مقاطعات رومانيا، اللغة الغجرية منطوقة خالصة ولا تكتب .

لقــد تكبد الغجر الظلم والاضطهاد النازي المستهدف إبادتهم البعض يتحدث عــن اخـــتفاء 800 ألف غجري، لكن الغجر لا يملكون القوة المالية – الإعلامية، التـــي مكـــنت الـــصهيونية من تضخيم ما تعرض له اليهود على يد النازية، بهدف استغلاله سياسياً للاستيلاء على فلسطين وطرد شعبها .

- الغجر في رومانيا :

يــوجد فـــي رومانيا، إلى جانب الأقلية ميقيار، أقلية أخرى ذات أهمية، هي الغجـــر أو الروم غياب التقديرات الممكن الوثوق فها لعدد هذه الأقلية، في رومانيا، يـــشير تماماً إلى درجة تهميشها، حسب المصادر الرسمية تبلغ أقلية الغجر حوالي 500 ألف نسمة، بينما تقديرات المنظمات الإنسانية والمنظمات الغجرية تذهب إلى أن عددها يتراوح ما بين 2 إلى 2.5 مليون نسمة .

أكثر من جماعة ميقيار، الغجر هم الجماعة الأكثر تعرضاً للتمييز العنصري فـــي رومانيا، لكن صوتهم بدأ يرتفع منذ سقوط نظام تشاوسيكو، غير أن الاهتمام بقضيتهم، في أوروبا لا يقارون بأهميتهم العددية .

رومانـــيا، فـــي 8 / 12 / 91، تبنت دستوراً، والذي إحدى مواده، تعترف

وتــضمن للأشخاص المنتمين لأقليات وطنية، حق الحفاظ، وتطوير، والتعبير عن هويــتهم العــرقية واللغوية والثقافية والدينية – مادة 6 – لكن هذا يخص الأقليات المعتــرف بها قانوناً إنها كذلك، أما الغجر، أو الروم، فلا يجري التطرق إليهم في أي مكان من النص المختص بالأقليات وإذا كان النص يمنح الأقليات المعترف بها تمثيلاً آلياً في البرلمان فأنه هكذا لا يكفل أي تمثيل لأقلية الغجر .

وإذا كــان الأخذ في الاعتبار وجود وحقوق الأقليات يمثل بعض التقدم، إلا أن ســلوك السلطات والناس، سواء كانوا من أصل روماني أو مجري، يمنع الغجر مــن أي مــشاركة في الشئون العامة، رغم تحضر الغجر ووجودهم على الأرض الرومانية منذ عدة قرون .

فــي الواقــع، الغجــر، هم ضحايا عداء للأجانب، والذي يترجم في التمييز الإداري في كل المستويات (وطنية ومحلية) وسياسي وحتى قضائي، وفي العنف الــذي صــار شــائعاً ضــدهم، الغجر هم أول من تمسهم البطالة، أما المساعدات الاجتماعــية التي تقلصت كثيراً فلا يحصلون عليها إلا نادراً، إنهم إذن أول ضحايا تقليص دور ا لدولة حسيب مطالب العولمة .

وفق تقرير أصدره أطباء بدون حدود، نشر في بداية 1998: يلاحظ إنه منذ 1990 " تفــاقم التوتر بين الروم – الغجر – وبقية السكان " وأن العديد من الروم صــاروا يتحــسرون علــى الــنظام الشيوعي، رغم أن رادو فازيل، عندما اعتلى منــصب وزيــر أول في ربيع عام 1998، فاخر بأنه للمرة الأولى توضع مسألة الدمج الاجتماعي للغجر في أولويات برنامج حكومته .

– غجر أوروبا الوسطى :

وضــعية غجــر رومانيا لا يجب عز لها عن مصير مجموع البدون حدود، الرحل، في شرق أوروبا خاصة .

– ظاهرتان عامتان برزتا منذ نهاية الحرب الباردة :

مــن ناحــية هؤلاء الرحل دخلوا شيئاً فشيئاً الوعي الديمقراطي في أوروبا

الشرقية، والتي في معظمها تبث تشريعات، إلى حد ما تحمي الأقليات، وهذا يفيد، لا مباشرة، الغجر .

مـن ناحية أخرى، وبشكل متناقض، الاعتداءات العنصرية التي يتكبدونها، تزداد وتنظم، حتى صاروا اليوم كبش فداء المصاعب التي تواجه الأنظمة الجديدة.

هكـذا في بلغاريا، العمليات العنصرية، الجرائم، وأشكال أخرى من العنف، تمارس ضد الغجر الذين يبغ تعدادهم من 300 ألف إلى 800 ألف من 8.5 مليون سـكان بلغاريـا، منذ وقت طويل ضحايا حرائق إجرامية تستهدف العمارات التي يـسكنونها، ضـحايا ميـز عنصري ..... الخ، لقد تشكلت حركة مضادة للغجر، اعتداءات حالقي الرؤوس – سكين هيد – في نفس الوقت يعانون إهمال، إن لم تكن عدوانية البوليس والسلطات بشكل عام .

فـي عام 1997 ظهرت أول حالات العقاب خارج القانون ضد الغجر والتي أحـياناً بمـشاركة نـشطة من السلطات، وإذا كان هناك نائب غجري في البرلمان البلغاري، إلا أنه لا يوجد أي نص يعترف للغجر بوضعية أقلية عرقية .

رمانيا بلغاريا، روسيا، جمهورية التشيك، جمهورية السلوفاك المجر، يتكرر إلى مالا نهاية، في أوروبا الوسطى والشرقية، أيا كان البلد: رفض السكان للغجر، عـدم اهـتمام وحتى عدوانية السلطات نحو الغجر، تقلص المساعدات الاجتماعية والصحية مع أن جماعة الغجر هي الأشد تأثراً بالصعوبات الاقتصادية .

خلال صيف 1997، أكثر من ألف غجري هربوا، بسبب العنصرية، التمييز والظلـم، مـن جمهـورية التشيك والسلوفاك طالبين اللجوء السياسي في كندا وفي بريطانيا .

فـي جمهـورية التـشيك، الديمقـراطيون الاجتماعـيون، الذين فازوا في الانـتخابات التشريعية في يونيه 98، وعدوا بتعديل القانون حول المواطنة، بهدف تسهيل إجراءات الحصول على الجنسية التشيكية .

فـي الواقـع، بعـد طلاق عام 1993، 100 ألف غجري منحوا الجنسية –

الوطنية ـ السلوفاكية مع إنهم ولدوا في جمهورية التشيك أما البرلمان الجديد في جمهورية التشيك فإنه يضم نائباً غجرياً لكن الإجراءات القانونية والدستورية ظلت محض شكلية، ولم تحدث أي تغير يذكر في الوضع الاجتماعي للأقلية الغجرية .

– المنسيون في الصراع اليوغسلافي :

الوضع في يوغسلافيا، السابقة، والتي بها حوالي 1.2 مليون غجري، كما يمكن تخيله، أشد مأسوية، إذا اتفاقية دايتوي، بدت إنها تحمل أمل الحل بالنسبة لمسلمي بيوغوسلافيا إلا أن الغجر استبعدوا من قبل كل الأطراف، منذ التوقيع على الاتفاقية، سواء في هذا الصرب والكروات والبوسنيين .

البلدات الأوروبية، التي استقبلت بعض جماعات الغجر، الفارين من المعارك، تريد منذئذ إعادتهم إلى بلادهم، رغم توسلات دجويشن بمناسبة انعقاد مؤتمر اتحاد الغجر الدولي في برلين، إبريل 1996 * .

عدة منظمات إنسانية تحاول رصد أوضاع الغجر وشروط حياتهم، في مختلف البلدان الأوربية، لكنها تواجه صعوبات جمة، بعض جماعات الغجر تفضل الصمت خشية الانتقام أو إنها لا تملك وسائل وتكاليف العدالة .

– في أوروبا الغربية :

أوضاع الغجر في أوروبا الشرقية والوسطى، لا يجب أن ينسينا الصعوبات الكبرى التي تواجه أمثالهم في أوروبا الغربية إضافة إلى الجماعات الغجرية الموجودة أصلاً في أوروبا الغربية فإن سقوط الستار الحديدي من ناحية، والنزاع في يوغسلافيا من ناحية أخرى، أدى إلى تدفق مجموعات جديدة من الغجر خاصة نحو ألمانيا، إيطاليا، النمسا، بسبب جوارها الجغرافي .

العنف ضد الغجر بدأ منذ سقوط جدار برلين، اعتداء عنصري، في فبراير 95، ذهب ضحيته أربعة غجر في النمسا، بينما طرد مفخخ أودى بحياة طفلين غجر في إيطاليا ..... إلخ .

بشكل عام الاعتداءات ضد الغجر، خاصة من قبل جماعات حالقي الرؤوس وجماعـــات اليمين المتطرف، تفاقمت في كل بلدان أوروبا الغربية منذ عام 1989، في نفس الوقت التشريعات القانونية المتعلقة بالغجر، سواء كانوا مقيمين أو أجانب، تشتد: رفض منتظم لطلبات اللجوء، طرد في بريطانيا قانون الجنائي والأمن العام، مـــنع الغجر من حرية الحركة، والذي ندد البعض به على إنه برنامج حقيق لتدمير هذا الشعب، والذي حياته تعني حرية الحركة .

بـــشكل عـــام، دول أوروبـــا الغربية، إذا كانت تعترف بمساواة الجميع أمام القانـــون، وعدم التمييز بسبب عرقي أو ديني، إلا أن عيبها الأساسي إنها تأخذ في الاعتـــبار الفرد وليس الجماعة، فهي لا تعترف بأي حقوق للجماعة تتعلق بأحوال تنتقل وإقامة (جماعة رحالة) .

معـــركة الغجـــر إذن فـــي أوروبا، سواء الشرقية كما الغربية هي من أجل الاعتراف بحقوقهم كجماعة وليس كأفراد فقط .

هـــامــــش

الغجر :

رومانيا: 9 % من 22.7 مليون حوالي 2.5 مليون .

بلغاريا: 2.6 % من 8.8 مليون حوالي 800 ألف

سلوفاكيا: 1.5 % من 5.4 مليون حوالي 100 مليون

يوغسلافيا السابقة: 60 ألف

* الاتحـــاد الدولي للغجر يمثل ويدافع عن حقوق الجماعة الغجرية في العالم تأسس عام 1971 في لندن .

* المرجع: موسوعة الصراعات: ص 1381، 1383 .

الفصل الثاني

المكسيك: انتفاضة الكرامة والحياة

في يناير عام 1994، استيقظ العالم على خبر عجيب، آتياً من وراء الأطلس، من جبال المكسيك: الشاباس حملوا السلاح! هذا الخبر أثار الدهشة لسببين:

- المكسيك أعوام 90، يبدو عليه الاستقرار، والتطور حتى إنه صار عضواً في اتفاقية التبادل الحر الأمريكي الشمالي .
- ما يقلق في الخبر أن المعطيات الدولية تشير إلى إنهاك الكفاح المسلح في أمريكا اللاتينية .

هل الانتفاضة الشباسية المسلحة تفتح مرحلة نضال جديد فيما بعد الحرب الباردة؟

بعيداً عن الصورة الفولوكلورية الشائعة، عن حركات أمريكا للاتينية، فإن الانتفاضة الشاباسية أحدثت موجة صدمة، تجاوزت جبال الشاباس، انتفاضة الشاباس تطلب " مكاناً في التاريخ " من أجل الجميع أيقظت كل المكسيك .

الاحترام الذي كان يحظى به النظام، وشرعيته، على المستوى الدولي صار محل طعن .

- بلد الثورة المؤسسية :

الثورة الكبرى، عام 1910، قامت في بلد يبحث عن إلهام سياسي، بعد ثلاث حقب من الدكتاتورية، ومن إصلاح اجتماعي، خاصة إصلاح زراعي، وعن انسجام ثقافي بين نخبة المدن العلمانية وجماهير الفلاحين المطبوعين بقيم مسيحية وهندية، الانفجار السكاني، 15 مليون عام 1910، مقابل 6 مليون عند الاستقلال عام 1821، لم يصنع إلا تعميق مشاعر القهر والظلم في بلد لازلت أغلبيته ريفية .

التشريع، عندما سمح بشراء الأراضي البكر، أو الأراضي العامة، بسعر زهيد، شجع نشوء إقطاعيات كبيرة، والتي شروط العمل فيها من بين الأشد قسوة، النمو الاقتصادي، السريع، خاصة في الشمال، انعكس في تدعيم اللامساواة الاجتماعية .

الثورة تحولت سريعاً إلى عدة صراعات داخلية متواكبة في حرب أهلية، حقيقية، يغذيها الصراع على السلطان: في مواجهة الخاسرين، وهم الزراعيون، نجد الزعماء السياسيين، والذين هدفهم الأول الاستيلاء على السلطان .

بعد حقبة من الانتفاضات الدامية، كانت الحصيلة مليون موتى، و300 ألف هاجروا، فإن الصورة ترشدت أو صارت مؤسسة كما يعبر عن ذلك اسم الحزب – الحزب الثوري المؤسسي PRI – الذي صار يتحكم في مصير البلاد، منذ ذلك الحين تبنى الحزب خطاباً اجتماعياً، والذي يخفي بصعوبة عيوب الحزب – دولة، الموجودة في كل مكان والفاسدة .

لقد بدأت المكسيك انطلاقة اقتصادية، في جزء كبير منها بفضل الثروة النفطية، لكن إنجازات الثورة بدت متناقضة: الحياة السياسية لا تبدو براقة من خلال الانفتاح، بينما الثنائية الاجتماعية ظلت قائمة الإصلاح الزراعي، الذي تقرر في دستور *1917*، والذي عرف تقلبات عدة لم يغير شيئاً من هذه المعطيات، الإقطاعيات الكبرى التي أعيد بناؤها –، بفضل اللجوء إلى استعارة الأسماء لتجاوز الحدود المسموح بها قانوناً .

– **مناضلو سنوات** 60 - 70 :

المكسيك، بدت في العشرينيات الأخيرة، أرض سلام وهدوء واستقرار، مقارنة بجيرانها في أمريكا الوسطى – قواتيمالا، السلفادور، نيكاراغوا – لكن، إذا كان صحيحاً أن المكسيك المعاصرة لم تشهد صراعات مهمة، إلا إنها أيضاً لم تستطع توقع أو تفادي ظهور بؤر احتجاجية، في هذا السياق حركة الزابات

الجديـدة تـندرج فـي حركة أكثر شمولاً واستمرارية، رافضة نظام سياسي تجمد واقتصادي مختل .

لقـد عـرفت المكسيك حركات ماركسية في أعوام 60 – 70، لكن، رغم الأرضـية الاجتماعـية الملائمة، لم تكن هذه الحركات بالحجم الذي عرفته بلدان أخـرى فـي أمريكا الوسطى، هذا يرجع إلى حد كبير، إلى العلاقات الطيبة التي كانـت تربط المكسيك دائماً بكوبا، وبشكل عام بأوساط اليسار اللاتيني أمريكي، فـي المقابـل حصلت المكسيك من كوبا، وأوساط اليسار اللاتيني أمريكي، على عـدم تـشجيع الحـركات التي تحاول العمل على أرضها، هذه الحركات وجدت نفـسها مضطرة لقبول الدعم الصيني أو السوفيتي، أما مناطق نشاطها فقد كانت محصورة في المناطق، حيث الاضطراب نصف سياسي نصف إجرامي حاد، كما في منطقة القيريرو .

الجماعات الأولى ظهرت في سنوات 63. 64، منها العمل الوطني الثوري المدنـي، وهـي حـركة ذات قاعدة فلاحية، متعاطفة ومدعومة من الصين، ومنها أيضاً، الجامعة الشيوعية، وحركة 23 سبتمبر، وحركة العمل الثوري ذات التوجيه الـسوفيتي، وحـزب الفقراء، والجبهة العمرانية الزاباتية، وقوى الشعب السوفيتي المـسلح الـثورية، نـشاط هـذه الحركات تمثل في عمليات ضد رموز الحكومة، مهاجمـة البـنوك، عمليات خطف .... الخ لكنها لم تنجح في تأسيس بنية سياسية عـسكرية مهمـة، ممـا سـهل بعد ذلك تحييدها، بدون صعوبة تذكر، من طرف الـسلطات، موت أكبر قيادي هذه الحركات في ديسمبر 1974، أعلن نهايتها، منذ منتصف أعوام 70 كانت هذه الحركات قد تفككت .

– الحركة الزاباتية :

من بين قادة الثورة المكسيكية، يتميز زاباتا، من حيث أصوله الاجتماعية، إذ بيـنما معظم القادة ينحدرون من شمال أو وسط شمال البلاد، فإن زاباتا ينحدر من ولاية صغيرة من الجنوب – موريلوس .

ولـــد زاباتـــا في عائلة فلاحية عام 1873، وبدأ الكفاح في مسقط رأسه – مـــرويلوس – أهمـــية عدد أنصاره – والقرب من العاصمة أتاح له تأثيراً كبيراً علـــى المستوى الوطني، لكن قطيعة حدثت بينه وبين ماديرو، والذي يتهمه زاباتا بالتخلـــي عـــن وعـــوده، خاصة في مسألة الإصلاح الزراعية، جعلت الزاباتيين يتكبدون قمعاً عنيفاً من طرف الحكومة الجديدة، في 1911/11/25، أطلق زاباتا خطة – برنامج – أيالا، ودعا إلى الكفاح المسلح ضد حكومة ماديرو. هذه الخطة ظلـــت، الأكثر كمالاً، من وجهة النظر الاجتماعية للثورة المكسيكية. البند السابع مـــنها، يطرح مبدأ إعادة توزيع الأراضي العمومية على الفلاحين الذين انتزعت مـــنهم، وثلث الإقطاعيات الكبرى يجري انتزاعها مقابل تعويض في عام 1914، زاباتـــا، قويا بنجاحه العسكري الذي حققه جيشه " جيش تحرير الجنوب " توصل إلـــى فـــرض مقتـــرحاته المتـــضمنة في خطة أيالا، خلال الاتفاق الوطني الذي تمخضت عنه المفاوضات .

في عام 1915، فضل العودة إلى موريلوس، لينجز فيها الإصلاح الزراعي، على لعب دور سياسي على المستوى الوطني .

التخلي عن لعب دور سياسي على المستوى الوطني، والعودة إلى موديلوس، لـــم يكـــونا في صالح الدستوريين المكسيك، ومع أن زاباتا، وأنصاره، قاوموا هذا الهجـــوم عـــدة سنوات، لكن القمع كان وحشياً، وانتهى بإنهاك قوات زاباتا. زاباتا أملـــبانو، نفـــسه – قتل في كمين في أبريل 1919، جرى إعداده بأمر من الرئيس المكسيكي آنذاك، لكنه تحول إلى أسطورة، إلى رمز ثورة غير منجزة، انطلاقاً من هـــذا، صارت حركات سياسية أو مسلحة تعلن الانتماء " للزاباتية " مستهدفة تغيير السياسة الاجتماعية للسلطان، معلنة صرخته الشهيرة: الأرض والحرية .

– بين الليبرالية الاقتصادية والانسداد السياسي :

– دولة الحزب الثوري المؤسس :

خـــلال مـــا يقـــرب من ستين عاماً، ظهرت المكسيك على إنها البلد الأكثر اســـتقرار فـــي أمريكا اللاتينية، لكن الثمن كان غالياً: سيطرة الحزب على جهاز

الدولة: منذ إنشائه عام 1929 سيطر الحزب على النقابات فصارت أدوات في يده، أمـــا الفساد فعلى كل مستويات الإدارة، إضافة إلى الوساطة والمحسوبية وانتهاكات منتظمة لحقوق الإنسان .

فـــي هذا النظام، شبه الحزب الواحد، كانت الأطر مجرد موظفين في خدمة الـــرئيس، أمـــا المـــسؤولون مـــن ذوي الـــنوايا الطيبة فإنهم لا يستطيعون تفادي الاصـــطدام بالبنى الطائفية أو الفئوية للحزب، وبآلاف الكوادر والأنصار الذين لهم مـــا يـــربحونه فـــي دوام الوضع القائم، ورغم محاولات بعض الرؤساء لم يتغير الوضع .

في أكتوبر 1995، ما نول كاماشو سوليس، وسيط سابق في الشاباس، أعلن انـــسحابه من الحياة السياسية، شخصية من الدرجة الأولى، فسر أسباب موقفه في عدم وجود رغبة حقيقية في تغيير النظام ولا في إصلاح الحزب، وفي يناير 1995 وقّعـــت الأحـــزاب السياسية الرئيسية على: اتفاقاً سياسياً وطنياً " من أجل دمقرطة اللعـــبة الـــسياسية والانتخابـــية، هـــذا الاتفاق عبر أكثر عن محاولة تقاسم النفوذ الـــسياسي، حيث إن الأسباب العميقة لم تمس، فإنه من الصعب تخيل أن التوترات الاجتماعية لا تقود عاجلاً أو آجلاً، إلى تفجر العنف .

- **اختلالات النمو :**

مـــنذ عـــام 1982، غيرت السياسة الاقتصادية وجهتها نحو ليبرالية جديدة وصريحة: خوصصة المشروعات العامة الكبرى، هذا التوجه تأكد عام 1988 .

فـــي الـــبداية أمال كبيرة داعبت خيال المكسيك، النجاحات التي تحققت في مجـــالات التـــصدير، النمو، وخفض التضخم جعلت من المكسيك نموذجاً في نظر صـــندوق النقد الدولي حتى أن المكسيك صار القوة الثالثة عشر على مستوى العالم لكـــن مؤشرات الاقتصاد الكلي هذه، والتي في طريقها إلى التدني تخفي في الحقيقة سياسة هروب إلى الأمام، وتفاقم عدة اختلالات، خاصة بين المراكز الاقتصادية – الـــصناعية الكبرى ومناطق الريف الفقيرة، كما أسرعت بإفلاس المشروعات التي لا تقـــوى على التكييف السريع والذي تمثل في مشاركة مشروعات أجنبية خاصة

أمـريكية، الانقسام الاجتماعـي تفاقم بشكل مأساوي، حتى أن نصف السكان لا يملكـون ما شبع حاجاتهم الغذائية، عدد المكسيك الذين يعيشون في حالة فقر مدقع تـضاعفت منذ سنوات 80، مع الخوصصة، ليصل 25 مليون نسمة الصحوة كانت قاسية عندما تفجرت أزمة البيزو - العملة المكسيكية - والتي تعويمها في 12/20/ 1994 آثـار عاصـفة نقدية - من نقود هائلة في أسواق المال، لقد فقدت حوالي 40 % من قيمتها، حجم الأزمة تطلب سرعة وضع خطة انقاذ مالية دولية، لحصر آثارها المدمـرة دولـياً، تكلفت 50 مليار دولار، عشرون منها قدمتها الولايات المتحدة، والتـي فـي مقابـل ذلـك وضعت البنك المركزي المكسيكي تحت رقابة مشددة وتحصلت على أن العوائد النفطية تستخدم ضماناً .

الآمـال العريـضة التي علقت على الخوصصة تمخضت عن بنك مركزي تحت الوصاية، وعلى ادتهان عائدات النفط .

لمـواجهة المـشاكل الاقتصادية - الاجتماعية، قدم الرئيس المكسيكي، في يونـيه 1995، " خطة تنمية وطنية " منذ ذلك الحين ثمة علامات تشير إلى استعادة الاقتـصاد صـحته، لكـن مـع ذلك استعادة النمو ليست عامة ولا متوازنة، بينما الاستهلاك المحلي والاستثمارات تركه، والأزمة البنكية لم تحل، والشعب لازال في انتظار عوائد الإصلاح ... الجزئي .

ضـعف الـسلطان الفيدرالـي على مناطق واسعة من التراب الوطني دوائـر مكـسيكو - العاصـمة - تهتم بالحديث عن تنمية وتطوير المكسيك، ولكـن لـيس كل المكسيك. إما لعدم اهتمام أو بسبب الجهل، مساحات واسعة من التراب الوطني، تركت مهملة لم يطلها التحديث ولا التطوير إلا قليلاً أما بـرامج المـساعدات فلم تصلها إلا نادراً، ومع إنها ذات إمكانيات كبيرة، إلا أن الفـساد فـي الغالب، يحّرف وجهتها وفوق كل ذلك تبدو المساعدات على إنهـا محاولـة تعويض رمزي أكثر من كونها نتاج وعي بخطورة الاختلال الاجتماعي - الاقتصادي .

على المستوى المحلي، عدد محدود، من العائلات، كبار الملاك، تهيمن على

السلطان السياسي والاقتصادي، مدعومة من نظام الحزب الثوري المؤسس P.R.I تواصل ضمان امتيازاتها وكبح محاولات الإصلاح، السيطرة على الجهاز الإداري والقضائي هي ضمان أو حصانة ضد الملاحقة، هكذا أسماء حكام الولايات تمتزج مع أسماء الملاك الكبار في الأقاليم، وحتى وطنياً على مستوى المكسيك .

- **النفوذ المتعاظم لمهربي المخدرات :**

ظهر هذا في أحداث عام 1994، عندما ما قتل الكاردينال بوساداس، في المطار، والذي أصيب خطأ أثناء عملية تصفية حسابات بين عصابات المهربين، حتى لو أن هذا التفسير لم يقنع كل الناس، فإنه يشير إلى أن المكسيك مركز رئيسي لتهريب المخدرات نحو الولايات المتحدة، الكوكايين من بينها، كما تعتبر المكسيك أول منتج للكانابين في العالم .

- **الشاباس :**

ولاية ذات كثافة هندية كبيرة، يمثل الهنود ما بين ربع إلى ثلث السكان – ما بين 800 ألف إلى مليون من 3.2 مليون سكان الولاية – وفي بعض ا لمناطق يمثلون أغلبية مهمة الجماعات الهندية عرفت صراع الأجيال، صراع السلطات التقليدية، والتيارات التحذيثية .

الكنيسة الكاثوليكية لعبت دوراً في نشر تيارات تحريرية وفي توعية الجماعة الهندية الهندية – لاهوت التحرير .

إن مسار الوعي بالانتماء لجماعة ثقافية واحدة، وتنامي التعبير عن مطالب اجتماعية وسياسية مشتركو، كان أحياناً بمساهمة المنظمات غير الحكومية O.N.G بالنسبة لجماعات أخرى كان ذلك بفضل مناضلي اليسار المتطرف .

تقع الشاباس جنوب المكسيك، ولهذا فإنها ذات سمات قوية وسط أمريكية فهي لم تلحق بالمكسيك إلا بعد الاستقلال في عام 1824 قبل ذلك كانت تابعة لقواتيمالا بالمقارنة مع أقاليم أخرى من البلاد، لم تتأثر الشاباس، إلا قليلة بثورة 1910 خلال فترة الاضطراب، كانت الشاباس مسرح صراه داخلي، والذي انتهى

لصالح الملاك الكبار أما خلال الحقب الأخرى فقد شكلت منطقة عزل عن مناطق الاضطرابات الأخرى، حوالي 45 ألف قواتيمالي، فروا من الصراع المسلح في بلادهم، لجئوا إلى الشاباس، كما أن هامشيتها الجغرافية جعلت منها قاعدة الجماعات المكسيكية في أعوام 70، المهزومة أو المتراجعة، وكذلك بالنسبة للجماعات القواتيمالية، في سنوات 60، والتي نظمت نفسها في الشاباس قبل تعيد إطلاق عملياتها في بداية أعوام 70 .

- فقر موقع في بلاد غنية :

إن الفقر والبؤس يثيران السخط، ولو كان هذا في بلد فقير، لكنها في بلد غني يدفعان إلى الثورة .

الشاباس ليست بدون موارد فيها تتركز أكثر من 50% من القوة الهيدروكهربائية للبلاد، كما تحوز إمكانيات نفطية وغابات وفي ولاية لازالت ريفية، توجد إمكانيات زراعية كبيرة – إنها الأولى في إنتاج القهوة، والثانية بالنسبة لتربية الحيوانات وإنتاج الذرة – هذا ربما يفسر اهتمام الدولة المركزية بالشابس، خاصة فيما يتعلق بالبنية التحتية لكن الاستثمارات لم يستفد منها السكان الريفيون إلا قليلاً، وأدت إلى تعميق مشاعر القهر، إذ من المؤكد أن الشاباس تضرب رقم قياسي للفقر بين ولايات الاتحاد المكسيكي :

سوء التغذية يطال 50% من السكان .

الأمية تبلغ 30% بينما المتوسط الوطني 12% .

إضافة إلى هذا الفروق الكبيرة بين المناطق المختلفة: عالم يفصل ساحل المحيط الهادي عن شرق وجنوب شرق البلاد في هذه المناطق، مناطق التوس والغابات الاستوائية يقع قلب الانتفاضة الزاباتية الجديدة .

- الأرقام تتحدث عن أحوال الشاباس :

- 59% من السكان لا يحصلون على الحد الأدنى للأجور – 150 دولاراً

الحد الأدنى – من أجل العيش، في مقابل 26 % على المستوى الوطني هذه النسيبة المتدنية تتجاوز 80% في مناطق التوس والغابات .

– معدلات الأمية تتجاوز 30% إلى أكثر من 50% .

في محاولة نزع فتيل قنبلة الشاباس، أطلقت الحكومة أعوام 70 – 80، خطة تنمية، لكنها اصطدمت بالطبقة الغنية المسيطرة .

هكذا يبدو أن مخصصات برنامج التضامن استخدمت بطرق وفي وجهات غير نزيهة، من أجل أهداف انتخابية أو من أجل رفاهية أقلية، هذه الأموال كانت لها نتائج عكسية، لقد دعمت النخبة المحلية المفترض إنها تتكفل بتوزيعها .

– **مسألة الأرض :**

الأرض دائماً أساسية بالنسبة لسكان الريف، إضافة إلى أنها في قلب العالم الهندي، بالنسبة للهندي الأرض تعني الحياة وفق أسطورة مايا، الإنسان خلق من الذرة، وبالطبع الذرة من الأرض .

لكن رغم قدراتها الزراعية وغير الزراعية، فإن الشاباس ظلت، قبل كل شيء بلد زراعي، إنها أيضاً الولاية المكسيكية، حيث الإصلاح الزراعية الأقل تقدماً، نصف الأراضي موزع بين الجماعات الزراعية ورثة الثورة المكسيكية، وبين الجماعات المحلية والنصف الآخر، وهو مزارع ومراعٍ تخصّ كبار الملاك، هؤلاء يسحوذون، في غالب الأحيان، على مساحات أكبر مما هو مسموح به – 150 هكتاراً – عن طريق استعارة الأسماء من ناحية أخرى أراضي النصف الأول ليست الأفضل، كما أن أصحابها يعانون المصاعب في الحصول على قروض مالية، والنزاعات بين الفلاحين، بدون أراضٍ، وبين الملاك الراغبين في توسيع أراضيهم، على حساب الأراضي العامة، هي مسألة شائعة العائلات الكبيرة تستند إلى دعم الساسة المنحدرين أصلاً منها، وإلى قوات الأمن أما مربو الحيوانات فإنهم منظمون بشكل خاص لحماية مصالحهم، في اتحاد المربين الإقليمي، ولا يترددون في الاستعانة برجالهم، وهم يكونون مليشيا يتولى تدريبها أعضاء الأمن العام .

فـي يناير 1992، جرى تعديل المادة (27) من الدستور، والتي كانت تحدد مبادئ الإصلاح الزراعي تفكيك الملكيات الكبيرة وتوزيع الأراضي، المصدق عليه بقرارات رئاسية، كان آنذاك قد انتهى .

فـي الـشاباس، حـيث كان التأخير الأكبر على المستوى الوطني في تنفيذ الإصـلاح الزراعـي، أثـار القرار السخط، أما خطط الطوارئ الاجتماعية، التي وضعتها الدولة، فلم تكن فعالة المادة 27 فرضت نفسها كأحد أهم مطالب الزاباتية.

- تفاقم احتجاجات الفلاحين :

الفلاحـون المكـسيك، قناة مطالبهم الوحيدة، هي نقابة وطنية، تابعة للحزب الثوري المؤسس P.R.I وبالتالي للدولة .

هـذه الـسيطرة تجـري أيـضاً من خلال تخصيص القروض، الموظفون يسيطرون هكذا على قيادة النقابة .

ابـتداء من عام 70، إلى جانب النقابة الرسمية، ظهرت نقابات مستقلة، في الـشاباس خاصـة، ظهـرت هـذه الـنقابات المستقلة في علاقة بمنظمات اليسار المتطرف أو بأوساط لاهوت التحرير .

هـذه التأثيـرات ساهمت في تغيير سلم المطالب عند بعض المنظمات، من المحلي، إلى الإقليمي، وحتى إلى الوطني .

مـن ناحية أخرى، بعض المنظمات اختارت التفاوض، فإن منظمات أخرى اخـتارت اسـتراتيجية أكثـر نضالية: من عمليات احتلال الأراضي، إلى تشكيل جماعـات مـسلحة، الانزلاق نحو العنف المسلح. جرى تحت تأثير ناشطي اليسار المتطرف .

- استعمار غابة لاكاندون :

هـذا الاندفاع نحو الأراضي المنخفضة، في منتصف أعوام 50، كان بهدف تجاوز مشكلة الأرض. الهنود، عندما لم يكونوا قد بادروا، فإنهم دفعوا للهجرة نحو

الـــشرق لاستيطان الأراضي الاستوائية في غابة لاكاندون، هذا الإقليم صار عندئذ يستخدم ملجأ. هذه الهجرة كانت تعويضاً، بالنسبة للذين طردوا من قبل الموالين، أو الذين تكبدوا قمع أعوام 70، الوسط الطبيعي، عندئذ، لم تكن الصعوبة الوحيدة التي تـــواجههم: النـــزاعات علـــى الأرض تكاثـــرت، والمـــستعمرون الجدد اصطدموا بمـــشكلات مشروعية ما استولوا عليه – إضافة إلى هذا إنه جرى تحديد مناطق حماية طبيعية .

نـــزاعات أخـــرى ظهرت مع الموالين، أو بين كبار مستغلي الغابات وبين الجماعات المحلية، لقد اضطرت العائلات أحياناً إلى تغيير أماكن إقامتها، أما وعود البنية التحتية فقد خابت .

الامتـــزاج بـــين المهاجـــرين غير معالم الجماعات، والتي فقدت مرجعيتها التقليدية، هذا أتاح الطعن في السلطات التقليدية، سواء من طرف أرساليات التبشير المسيحي، كما من طرف مناضلي اليسار المتطرف، كما أتاح العمل الاجتماعي.

فـــي عـــام 1986، شـــكلت الحكومة لجنة وطنية من أجل حماية وتطوير لاكادون، هذه اللجنة لاحظت ما هو واقع: استمرار عملية السيطرة على الأراضي من قبل الأوليقارشي – الأغنياء – وغياب سياسة تنمية شاملة، وفساد أو عدم كفاءة الموظفين المفترض إنهم ينفذونها .

– الدور المركزي للكنيسة :

الكنـــسية مـــتهمة بأنها لعبت دوراً مهماً في الانتفاضة الزاباتية عام 1995، طـــردت مكـــسيكو ثـــلاث قساوسة أجانب من الشاباس، بتهمة الحث على أعمال العـــنف، مع تأكيدها أن الأيفك – منصب ديني – رويز لا علاقة له بهذه الأعمال غيـــر المشروعة، هذا الأخير هو وجه أساسي في الشاباس، وهذا ما جعله يفرض نفـــسه وســـيطاً بين الحكومة والزاباتيين، لكن مواقفه الصريحة لصالح الزاباتيين، ودروه فـــي تمـــويل حـــركتهم، جعل الحكومة تنتقده، وكذلك فعل مؤتمر الرهبان المكسيك .

كثيـــر مـــن القـــساوسة لا يخفون – على الأقل تعاطفهم مع الزاباتيين وعن الاتهامـــات التي توجه للكنيسة بأنها وراء حركات الهنود أو الزاباتيين، يجيب عدة قـــساومة بأنهم أمام وليسوا وراء، ذلك لأنهم بدأوا النضال في صالح الهنود منذ أمد طويل .

هـــذا التعاطف ربما ليس بريئاً من أهداف دينية مبعثها التنافس بين الكنيسة الكاثوليكـــية والكنيـــسة البروتـــستانتية، على الهنود هذا التنافس الحاد يغذيه تزايد الكنائس البروتستانتية، حوالي 100، وهي تنمو في الشاباس، كما في بقية المكسيك صـــحيح بـــين الكـــنائس البروتستانتية نفسها يوجد تنافس، والذي يترجم أحياناً في نـــزاعات بـــين أو داخـــل الجماعات، لكنها تعرف كيف تتحد في مواجهة الكنيسة الكاثوليكـــية، هـــذا يشير إذن إلى أن الاهتمام بالهنود هو محاولة كل كنيسة، جذبهم إلـــيها مـــن خلال مطالبهم الاجتماعية، لكن اعتناق الهنود للمسيحية الكاثوليكية أو البروتستانتية ليس إلا طعناً في السلطات التقليدية .

– انتفاضة الزاباتيين الجدد :

– انهيارات بداية أعوام 90 :

فـــي إطار إنهاك وطني، الطعن في الإصلاح الزراعي، الوضع في الشاباس يتدهور، ونهاية الأيام السعيدة التي تمثلت في الاستحواذ على الغابة، فإن التوتريات تشتد تغذيها عدة عوامل :

- انخفاض أسعار القهوة وعوائد الذرة .
- منع قطع الأشجار من أجل حماية الغابة .
- إنهاك الأرض.
- منافسة الأيدي العاملة القادمة من قواتيمالا .
- ضـــغط كـــثافة ســـكانية – هجرة + معدلات ولادة عالية، إذن ضغط على الأراضي .

في فبراير تعديل المادة 27 من الدستور، والذي وضع نهاية عملية للإصلاح الزراعـــي، بلـــور القلق والسخط، هذا الإجراء هو الذي أسرع بتجول الجماعة إلى النضال المسلح .

عـــام 1992 – 1993، ســـرت شـــائعات عن تكوين جماعات مسلحة في الشاباس، وتشكيل جماعة فلاحين مسلحة، بعد مواجهتين مع الجيش، أدتا إلى موت بعض الجنود، دفع الجيش بأكثر من ألف جندي ضد الجماعات المفترضة، كما أن أحد الرهبان حذر من وجود جماعات مسلحة تطوف بالشاباس .

هذه المؤشرات، مع ذلك، لم تؤخذ بجدية، واعتبرت من ضمن أعمال العنف التـــي تهـــز المنطقة، لكن في الشهور الأخيرة، المواجهات بين الجماعات الفلاحية والملاك الكبار تعددت .

– المسيرة نحو العنف المسلح صارت أمراً محتماً :

مرحلة المواجهة المسلحة، بمعنى الكلمة، بدأت 1 يناير 1994، وهو تاريخ يـــبدو قد اختير بعناية، ففي هذا اليوم تدخل حيز التطبيق HLO اتفاقية حرية التبادل الـــشمال أمريكـــي ALENA اســـتولى الـــزاباتيون على بعض الضواحي، وأدت المـــواجهات إلى سقوط 159 قتلى بمثل هذه العمليات، التي تبدو إعلامية أكثر منها عسكرية، تمكنت الحركة الزاباتية من إبلاغ مطالبها .

أولاً : مطالـــب ذات مـــصلحة وطنية: استقالة الرئيس ساليناس، تكوين حكومة انتقالية، تنظيم انتخابات نزيهة .

ثانياً: مطالب عامة، تخص كل المجتمع المكسيكي : إلغاء تعديل المادة 27 من الدســـتور، تعديل المادة رقم 4 بهدف ضمان احترام الحكم الذاتي، الطعن في الينا – اتفاقية حرية التبادل الشمالي أمريكي .

ثالثاً: مطالب إقليمية : محاكمة بعض حكام الأقاليم، انتخابات محلية، تحسين معيـــشة الـــسكان، ثـــم أخيراً مطالب تخص نساء الهنود، والاعتراف بالجيش الزاباتي .

- **الحكومة قدمت تنازلات :**

- **انتفاضة مسلحة جيل جديد :**

من المؤكد إنه لا توجد يد لموسكو ولا كوبا، في هذه الانتفاضة إذ لهاتين مشاغل أخرى غير الشاباس، وهذا يمنح حركة الزابات خصوصية تشير إلى جيل جديد من الانتفاضات، جيل ما بعد الحرب الباردة .

هذه الانتفاضة ليست تلقائية، عفوية، لقد جرى الإعداد لها منذ وقت طويل، على يد مناضلي اليسار، وتمتد جذورها في حركة نقابية تطورت خلال العشرين سنة الأخيرة، ثمة سمة أخرى جديدة، الحركة الزاباتية لا تستهدف الاستيلاء على السلطان، وإنما تغيير علاقات القوة في المجتمع المكسيكي، مما يجعلها أقرب إلى إصلاح مسلح، وهي تتمتع بدعم شعبي بين الهنود .

انتفاضة الشاباس ثورة ضد النسيان، كفاح من أجل الاعتراف بهم، معركة من أجل فرض الاحترام، إنها نهاية الاحتقار ومن أجل حياة كريمة وليس من أجل السلطان .

في بداية أعوام 90، بعد سقوط جدار برلين، وانهيار المعسكر الشيوعي، وخمود حركات التحرر في أمريكا اللاتينية، وخاصة في أمريكا الوسطى، كثير من المقربين حاولوا إقناع الزابات بعدم اتخاذ طريق الانتفاضة المسلحة: " أنتم مجانين، أنتم الآن وحدكم، لاحظ لكم في الاستيلاء على السلطان، سوف تسحقون ". هؤلاء الناصحين، من وجهة نظر الزابات لا يفهمون أن الإنسان يمكن أن يكافح من أجل شيء آخر غير السلطان، أن يكافح من أجل الكرامة والحياة ! .

فكرة التضحية والاستشهاد وليس غائبة عن هذه الانتفاضة، بالنسبة للزابات، يجب المخاطرة بالموت من أجل الحياة، من أجل أن يستطيع آخرون الحياة في كرامة. المقاتلون الزابات يطلبون الموت من أجل أن تضحيتهم تجذب اهتمام الرأي العام الوطني والعالمي. بمصير الجماعة الهندية، وبعد الصمت الذي عاشته الجماعة الهندية، فإنها تندفع لتجعل قضيتها في قلب النقاش .

الحـــركة الـــزاباتية دفعـــت إلى أقصى حد، توقعات المستقبل لتي صنعتها الحـــركات الهـــندية، والتـــي تطورت في أعوام 60، في مجموع أمريكا اللاتينية، ليـــزاند، أموزوينا، أمريكا الوسطى، العبور من الخضوع إلى التحرر، من المقاومة الـــسلبية إلـــى تأكـــيد الذات، من قبول التبعية إلى العمل المستقل، من إعادة إنتاج التـــراث إلـــى إنـــتاج الهـــوية، مـــن العنصرية المستبطنة إلى المطالبة بالمساواة وبالاختلاف معاً .

عام 1992 جدّ هذا التحول، بينما الحكومة، والقطاعات المهيمنة تحتفل بخمسة قرون من السيطرة الاستعمارية والاستعمارية الجديدة، فإن حركات الهنود تخلت عن خمسة قرون من سلوك الدفاع ورد الفعل، وبدأت تتأكد على مستوى القارة .

الـــبداية كانت بإعادة الاعتبار للهوية الهندية، في 92/10/12 الزابات، دون الظهـــور بهـــذا الاســـم، بذوا الأول مرة على مسرح السياسة بطريقة رمزية، عدة آلاف، يمـــثلون الجماعة الهندية تظاهروا في سان كريستابول، أطاحوا في طريقهم بتمثال مؤسسة المدينة الاستعمارية، رمز الاضطهاد، المسيرة كانت سليمة صامتة، لكنها تعلن بوادر الانتفاضة عام 1994 .

هكذا بدأ الخطاب الهندي جديداً، يدعو إلى ذكرة متخلصة من صورة الهندي السلبي، ومن الخجل من الذات، وعلى عفو الحكومة أجاب قادتهم، ماركوس:

ماذا فعلنا ليعفى علينا ..

- **المكسيك**

المساحة : 1976183 كم2

السكان : 91 مليون

التكوين السكاني : ميتيس – هجين – 82.5 % .

بيض 10 % .

هنود 7.5 % .

- **ولاية شاباس :**

المساحة 75634 كم2

منها : 15 ألف كم2 غابات استوائية

السكان: 3.5 مليون

هنود : 26 %

المراجـع

1- موسوعة الصراعات ص 43 – 60 .

2- سكان العالم ص 485 - 487 .

3- حالة العالم 2000 ص 380 - 388 .

4- اللوموند

- ثورة هنود أمريكا الجديدة 9 / يوليو 98 .

- تحية إلى الشاباس 98/12/27 .

- الشاباس ضحايا 98/1/22 .

الفصل الثالث

الفيليبين: صحوة المهمشين

تختلف الفيليبين، عن بلدان جنوب شرق آسيا الأخرى، في أنها عاشت ثلاثة قــرون تحت الاستعمار الأسباني، اسمها " الفيليبين أطلق عليها تشريفاً لملك أسبانيا فيليب الثاني، ثم استعمرتها الولايات المتحدة من عام 1898 إلى عام 1946 .

ثقافــياً، هذه المرحلة من الاستعمار تركت آثاراً عميقة، من الهيمنة الأسبانية يحــتفظ الفيليبينــيون بشيوع الدين الكاثوليكي، إذ يبلغ الكاثوليك 80% من السكان، ومن الاستعمار الأمريكي سيادة استخدام اللغة الإنجليزية .

لكــن هذا الإرث الاستعماري أثّر كثيراً في البنى الاجتماعية وفي الأخلاق والــسياسة عــند الفيليبينــيين من عدة وجوه، حتى أن البلد يبدو أقرب إلى أميركا اللاتينية منه إلى جيرانه الآسيويين .

- مجتمع شبه إقطاعي :

الــسلطان الــسياسي والاقتصادي، ظل بشكل واسع، بين أيدي أوليفارشية، والتي استطاعت التطور بفضل نظام الحكم الذي أقامه الأسبان والذين استندوا على البناء الطائفي ما قبل الاستعمار، ثم بفضل القدرات المالية التي أسسها الأمريكان.

هــذه السلطات تتركز بين أيدي عائلات كبيرة، خاصة ذات الأصول الهجينة – صــينية فيليبينية – وتستند إلى أتباع، يجري تأطيرهم بإتقان في المناطق الريفية، تنتقل بالوراثة .

الــرئيس ماركــوس عمل على الإطاحة بسلطان هذه العائلات مستخدماً في ذلــك الجــيش، والــذي أدى إلــى ائــتلاف ضده من هذه الاوليقارشية مع القوى الديمقــراطية، حتــى تم لها إسقاطه منذ ذلك الحين، العائلات الكبيرة، في الفيليبين،

والجيش، الذي يحظى بمكانة مهمة " هكذا فساد معظم الطبقة السياسية كان الأرضية الخصبة لظهور حركات المعارضة .

- **المسألة الزراعية :**

بقاء هذا الإقطاع له انعكاسات خطيرة، في عالم الفلاحين الذي يتسم بحضور كبار ملاك الأراضي .

محاولات الإصلاح الزراعي تتلكأ، غير كافية لمعالجة الوضع فالفلاحون في أغلب الأحيان، لا يستطيعون سداد ثمن الأراضي التي ملكت لهم، أما الفلاحون، البدون أرض، فإن عددهم ظل مرتفعاً .

عام 1972، تعلل ماركوس بضرورة فرض الإصلاح الزراعي، في قرار قانون الطوارئ، لكن قانون تحرير الفلاحين ترجم عملياً بتوزيع أراضي غير كافية.

في عام 1988، الرئيسة أكينو أعلنت إصلاح زراعي جديد وطموح، لكن كل هذه المشروعات الإصلاحية تصطدم، من ناحية بمقاومة كبار الملاك، ومن ناحية بالتكاليف المرتفعة التي يتطلبها تنفيذها .

المسألة الزراعية، بدورها، شكلت أرضية صالحة لظهور الحركات الشيوعية .

- **إطار نزاع مشتت :**

إن تشتت النزاعات يرجع من ناحية إلى الإطار الجغرافي – الفيليبين مجموعة كبيرة من الجزر – ومن ناحية أخرى إلى وجود خصوصيات لازالت حية، أضف إلى هذا تنوع وتشتت الفعلة .

الفيليبين تتكون من مجموعة كبيرة من الجزر الجبلية والبركانية، فهي تشكل أكثر من 7100 جزيرة، تتحدث 11 لغة إضافة إلى الإنجليزية، وتستخدم 87 لهجة.

هذه الأرقام نسبية، إذا ما أخذ في الاعتبار أن أقل من 900 جزيرة مسكونة، وبشكل غير دائم بالنسبة لبعض منها، معظم السكان يتركزون في

الجــزر الرئيــسية، وهـــي حوالي 10 جزر تمثل 90% من أراضي الفيليبين، ويسكنها حوالي 95% من السكان جزيرة لامون يسكنها نصف سكان الفيليبين، بينما ماندانا يسكنها خمس السكان .

الــبلاد فـــي عمومها، تعاني نقصاً في المواصلات والاتصالات - باستثناء البحرية - هذا التشتت يمثّل عامل قوة في صالح الحركات المعارضة، لأنه يصعّب مهـــام قـــوات الأمـــن، لكنه أيضاً يمكن أن يكون نقطة ضعف؛ لأنه يشجّع القوى الانفصالية أو الانشقاقية داخلها .

- **خصوصة العنف :**

المــسرح الفيليبينـــي يقـــدّم ظاهـــرة نادرة في البلدان الأخرى، إنها ظاهرة خوصصة العنف .

مـــبدأ احتكار الدولة للعنف، وهو مبدأ مؤسس لكل دولة جرت الإطاحة به، ســـواء مـــن قبل أصحاب النفوذ المحلي، الذين شكلوا قوات خاصة مسلحة، تأتمر بأمـــرهم، كمـــا من طرف الجيش الذي يتبنى استراتيجية إلحاق المتعاونين معه في إطار الكفاح ضد حركات التمرد، والذي يعني أن الجيش يعمل، ولو جزئياً، خارج نطاق الشرعية .

- **المليشيات الخاصة :**

تقديرات بداية أعوام 90، تشير إلى ما لا يقل عن 200 ألف حرس خاص، فـــي خدمة حكام المناطق، الملاك الكبار، أصحاب الشركات والمشروعات، رؤساء الــبلديات، وكل سياسي، مهما كان طموحه، محلي أو وطني، توجب عليه امتلاك حـــرس خـــالص ســـواء مـــن أجـــل أمنه الشخصي، أو من أجل تخويف الناخبين وإجبارهم على منحة أصواتهم، ويصل الأمر، أحياناً، حتى إلى تصفية المعارضين.

الـــسلطات الرسمية تقدر عدد الجيوش الخاصة بـــ 562، تجوس في أرياف الفيليبيـــين، في هذه الفترة، الرئيس راموس أطلق حملة قوية من أجل تفكيكها، هذه الحملة، وإن أدت إلى حل 400 من ها، لكن دون ضمان عدم إعادة تشكيلها.

مـن ناحـية أخرى، بحجة الكفاح ضد الحركات المسلحة الشيوعية، استعان العـسكريون بخـدمات بعض الفعلة، من ذوي الأوضاع القانونية وغير القانونية، وأحياناً حتى من أصحاب الأنشطة المشبوهة .

- **الرديف الرسمي :**

فـي عام 1990 تأسس كيان شبه عسكري – قوات مسلحة مدنية – مدربة ومـسلحة جيداً، خاصة من بين الاحتياطيين، أسندت له مهمة دعم القوات النظامية، خاصة المحافظة على الأراضي المستعاد السيطرة عليها .

هـذه المليشيات تمثل الهدف المفضل بالنسبة للحركات المسلحة، لكنها أيضاً كانـت مـسئولة عـن عدة أعمال وحشية، لهذا السبب أمر الرئيس راموس بحلها، جزئياً عام 1993، في إطار حملته ضد الجماعات شبه العسكرية، لكن لتحل محلها قوات شبه عسكرية – جيش المواطنين – جرى حشدها تقريباً على النمط الأمريكي – الحرس الوطني – وأدمجت فيها بعض جماعات الحرس .

- **رديف شبه رسمي :**

عـدة جماعـات، شبه عسكرية، من اليمين المتطرف، ظهرت بعد وصول أكيـنو إلى السلطة، بهدف تعويض ضعف وعدم حزم السلطات في مواجهة التمرد الشيوعي .

هـذه الجماعـات، التـي تعمـل تحت اسم " العمل التطوعي " يجري عادة تمويلـيها مـن طرف ملاك الأراضي، وأصحاب المشاريع، لكن عدد منها يرتبط مباشرة بالجيش، مهمتها انحصرت في تصفية المتعاطفين مع الحركات الشيوعية.

قوات الأمن، من ناحية، تستند أيضاً إلى " سادة حرب ": مسلمين في قطعية مع حركاتهم، مليشيا قبلية، جماعات ترتبط بحركات دينية متطرفة، خاصة طوائف إنجيلية متفرعة عن الأمريكية .

الـرئيس راموس حاول استعادة السلام المدني في كل أنحاء الفيليبين، فأعلن

سياسة الوحدة والمصلحة الوطنية، وعرض المفاوضات والعفو لكن هذا لا يكفي، إصلاحيات كبرى كانت لازمة، والتي أشارت إليها لجنة الوحدة الوطنية في تقريرها :

- الكفاح ضد الفقر واللامساواة الاجتماعية، سياسة إعادة توزيع الثروة، والعدالة في جباية الضرائب، وإصلاح زراعية .
- تنمية الأقاليم الفقيرة وحماية البيئة .
- تطهير الإدارة والبوليس والقضاء، ومكافحة كل أشكال الفساد .
- تصحيح عمل الإدارة، ومعالجة عجز الخدمات الاجتماعية والغذائية .
- احترام النظم الاجتماعية والسياسية للجماعات المحلية.

هذا يعني في العموم معالجة الأسباب التي وراء ظهور الحركات المسلحة لكن السبب الحقيقي ليس هذا فقط، إنه يكمن في رفض المستفيدين من الوضع – الملاك رجال المال، النفوذ، إدخال أي إصلاحات سياسة التهدئة إذن سواء سليمة أم عسكرية تصطدم بعقبتين أساسيتين :

- استمرارية وجود عوامل اجتماعية اقتصادية، والتي في الأصل، أو ساهمت في ظهور حركات العنف السياسي، انتشار الحركات المسلحة الشيوعية، يرجع الفضل فيه إلى نظام استغلال الأرض والذي هو مصدر الظلم والبؤس، وليس إلى الأديولوجيا الماركسية، بينما الحركات المسلحة الإسلامية تقوم على مشاعر قوية بتكبد التمييز الاجتماعي والاقتصادي أما التحاق شباب الضباط بالحركات الانقلابية، فإنه يرجع إلى إحباط عند العسكريين، فيما يتعلق بالترقيات والمرتبات، ذلك أن جيلاً من الضباط يقارن مرتباته بدخول عناصر الإدارة الفاسدة .

تجزؤ بؤر الاحتجاج يرجع إلى أثر سياسة اليد الممدودة من طرف الحكومة والتي أدت إلى انقسامات في داخل وبين الحركات .

كما يرجع أيضاً إلى خلافات اديولوجية، وإلى الطعن في القيادات السياسية

– العسكرية من طرف المحيطين من العسكريين، هكذا تشتت الحركة الشيوعية أما الحركة الإسلامية فقد طغت عليها عناصر متطرفة .

- **حركات التمرد العسكري :**

التمرد العسكري، في الفيليبين، يوصف عادة، باليمين المتطرف وهو مجموعة من العسكريين، تحن إلى النظام السلطوي أيام ماركوس، تستهدف الإطاحة بنظام أكينو، الذي تأسس عام 1986 م الواقع مع ذلك أشد تعقيداً. حركات التمرد العسكري ظهرت منقسمة بين المخلصين لماركوس وبين الإصلاحيين المضادين لمراكوس، قبل وصول أكينو إلى الحكم ليتحولوا بعد ذلك ضد أكينو وثمة طرف ثالث هم " جنود اليسار " أنصار ثورة شاملة يقودها العسكريون.

- **وسط غير متجانس :**

أول الحركات، حركة إصلاح الجيش RAM، ظهرت عام 1982 في عهد رئاسة ماركوس، مؤسسوها انخرطوا، بدون تردد تحت شعار " المجتمع الجديد " لكنهم سريعاً ما أحبطوا بسبب جمود النظام وفساده .

هؤلاء الضباط الذين عارضوا نظام ماركوس، لعبوا دوراً مهماً في سقوط الدكتاتور عام 1986، أقوياء بهذه الشرعية شعروا بحقهم في المطالبة بالوصاية " الأخلاقية " على النظام الجديد، ومكانة سياسية على قدر التزامهم الماضي، وعندما أحسوا بعدم تحقيق هذه المطالب، صار هدفهم الجديد الإطاحة بأكينو حركة أخرى هي: جنود شعب الفيليبين، وتضم أنصار ماركوس الذين يحنون إلى عهده، يبدو إنهم من أصحاب الامتيازات التي يخشون فقدانها .

الحركة الثالثة: اتحاد الضباط الشباب، وتجمع ضباطاً شباباً يعلنون إنهم يسار لا شيوعي .

- **تحالفات تكنيكية :**

رغم خلافها واختلافاتها، رأت هذه الحركات ضرورة التحالف لتقوية

مركــزها، فــي الميدان كما في المفاوضات، وقد ظهر هذا في محاولة الانقلاب ن ديسمبر 1989، إذ وجد أنصار ماركوس وخصومه أنفسهم كتفاً أي كتف .

فــي عــام 1991 تــشكلت سكرتاريا، تضم الحركات الثلاث، وعبرت عن مطالب مشتركة للمعسكرين المتمردين :

- سحب فوري للقوات الأجنبية – قوات أمريكية .
- إعادة رماد ماركوس .
- إصلاح النظام الانتخابي بهدف إجراء انتخابات نزيهة .
- الحوار مع كل حركات التمرد، مسلمين وشيوعيين .
- إعادة النظر في سياسة الدفاع وإصلاح الجيش .

هذه السكرتارية تستخدم واجهة للحركات الثلاث في الحوار مع السلطة .

- **الانحراف نحو الدفاع عن مصالح فئوية :**

رغــم شعاراتها، ذات الصبغة الأخلاقية والوطنية، فإن الحركات العسكرية كانــت لهــا مطالب وتوجيهات نحو الدفاع عن مصالح فئوية أو طموحات سياسية لكوادرها الطموحة .

بعــض الضباط يرغبون في استعادة الامتيازات التي كانت لهم في ظل حكم الطوارئ .

ضــباط شباب، مفعمين بالحماس، وبالمثل، استخدمتهم قيادات عسكرية ذات أهداف مغايرة، أو حتى من طرف فئات سياسية – اقتصادية .

شــيوع مــثل هــذه التجمعات العسكرية حول قيادي محلي أو وطني يمكن تفــسيرها جزئياً من خلال الثقافة الفلبينية شكل من عبادة البطل الأهداف العسكرية لحــركة التمرد العسكري، كانت تبدو نبيلة ترتبط برفض الفساد بين كوادر الجيش العليا، أن هوة عميقة تفصل الضباط الشباب الصغار، المنحدرين غالباً من عائلات

فقيرة أو من الطبقة الوسطى، المفعمين بالمثل والمبادئ والصالح الوطني، عن الجنرالات الذين يملكون ثروات لا تتناسب مع مرتباتهم الحكومية حاولت التصدي للفساد داخل الجيش لوضع حد لهذا العامل .

- منطق اختلال :

حركة التمرد العسكري عمدت إلى زعزعة استقرار النظام بالكلام وبالسلاح، من ناحية لا تتوقف عن حث الشعب على الانتفاض ضد عجز وتراخي حكومة الرئيسة أكينو في نفس الوقت يتصلون – سراً – بالأمريكان، للحصول على دعم واشنطون لمشروعهم " التحرر الوطني والاجتماعي " صاحب ذلك مادياً تنظيم عمليات تفجير وخطف واغتيالات قادت إلى المحاولة الانقلابية كمرحلة أخيرة .

لقد واجهت الرئيسة أكينو، خلال فترة حكمها، سبع محاولات انقلاب عسكري .

- الحركات الإسلامية :

يمثل جنوب الفيليبين الحدود الشرقية لانتشار الإسلام، في جنوب شرق آسيا والذي أوقفه الاحتلال الأسباني في القرن 16 .

- توجه ديني أم إقليمي ؟

الجماعة الثانية في البلاد: يمثل المسلمون 8% من سكان الفيليبين (حوالي 5 مليون من 63 مليون) ومع أن الدين، في الفيليبين لا يمثل عقبة أمام الاندماج، الكاثوليكية، وأن كانت أغلبية لا يمكن وصفها بالأصولية، كما أن الإسلام في مجموعة ليس متطرفاً، المسلمون ممثلون في كل أجهزة الدولة (حكومة برلمان، إدارة، جيش) والعلاقات الإنسانية والثقافية مع الوطن العربي متطورة نسبياً، كثرة من العمال الفيليبين يعملون في البلدان العربية، جامعة ماراوي، في ميذاناو، تستفيد من عدة منح من ليبيا ومن السعودية، والعديد من الطلاب الإيرانيين يأتون للدراسة فيها، خاصة بسبب رخص تكاليف دراسة اللغة الإنجليزية .

مـــن ناحــية أخـــرى، إذاً هؤلاء المسلمون، في مجموعهم سنة من المذهب الـــشافعي، فـــإنهم مع ذلك ينقسمون إلى ثلاث عشرة مجموعة عرقية لغوية الثلاث مجمـــوعات الرئيـــسيات تـــتجاوز المليون فرد، هذا الانقسام يفسر، جزئياً، تشتت الحركات السياسية – العسكرية والتي تقوم على قواعد عرقية أو طائفية .

– **سكان يتمركزون في جنوب الفيليبين :**

يـشمل جنوب الفيليبين جزر ميندناو، بازيلان، سولو، تاوي. أي أقل قليلاً مـــن 40% مـــن مـساحة التراب الوطني مقسم إلى أربع أقاليم إدارية، من بينها، خاصـــة، إقليم الحكم الذاتي ميندناو المسلم، والذي ظهر في أعقاب استفتاء عام 89 ويضم المناطق ذات الأغلبية المسلمة .

جـــنوب الفيليبين ليست منطقة فقيرة، وليس بدون موارد، إنه يساهم بحوالي 20% في الناتج النحلي الخام لكل البلاد، لكن الحركات الإسلامية ترى أن الحكومة لا تأخـــذ بعين الاعتبار مشاكل التنمية الاقتصادية في ميندناو، بينما الجزيرة تشبع جوع البلاد، في الواقع الأراضي في المنطقة خصبة، ميندناو مع سولو، المنطقتان الوحيدتان اللتان لا يطالهما الإعصار، كما يوجد مشروع مثلث تنمية اقتصادية بين ميـــنداناو وصـــباح – في ماليزيا – وشمال سولاديزي – في اندونيسيا – إمكانيات الازدهار هذه غير المستثمرة ساعدت على عودة ظهور الحركات الإسلامية .

– **حركة إقليمية أكثر منها دينية :**

الحركة الإسلامية ليست نتاج مسلح لحركة " مجانين الله " الراغبة في إقامة دولة إسلامية، هذه الصورة الكاريكاتورية خاطئة أن لم يكن وراءها سوء نية، إنها نـــتاج " وطنية إقليمية " ظهرت كرد فعل على استعمار الجنوب من قبل كاثوليك جاءوا من الشمال الفيليبيني .

إغـــراءات الإقليمـــية، في جنوب الفيليبين، يمكن إرجاعها إلى بداية القرن، عندما فرض الأمريكان سياسة إخضاع البنى الإسلامية التقليدية، بينما الأسبان، قبل ذلـــك، لـــم يـــشاءوا أو لم يستطيعوا المساس بها، لقد شجع الأمريكان الهجرة نحو

الأراضي الخصبة في الجنوب، قانون أوسمينا 1912، سمح لآلاف السيبوانوس – سكان سيبو – بالإقامة في ميذاناو هذه الظاهرة أثارت عند المسلمين عقدة الخوف، مما دفعهم إلى الدفاع عن هويتهم بأن رفضوا وقاموا محاولات الدمج وإلى المطالبة بأن تكون لهم إدارة شئونهم .

هــذه الوطنــية الإســلامية، أحــياناً عدوانــية كضرورة دفاعية شعر بها المــسيحيون على أنها تهديد موجه ضدهم، مع أن المسلمين يطلبون حماية هويتهم أكثــر ممــا يــريدون تهديد المسيحيين هكذا المسيحيون، غير متحمسين لإمكانية تــرتيبات قانونــية تجعلهــم تحت نظام " الشريعة " لم يتعاطوا مع مطالب السكان المسلمين بمرور الأيام تعمقت الريبة بين المسلمين والمسيحيين، والتي تبلورت في مــواجهات بين متطرفي الطرفين في سنوات 79 – 1971، هذه الانتفاضات كانت إرهاصات الحركات الإسلامية .

– حقبتان من الصراع :

فــي عام 1960 نشأت المنظمة الوطنية لتحرير مورد MNLO، والتي تحت قــيادة أعيان محليين، تضم كل حركات المعارضة الإسلامية ضد الغزاة القادمون من الشمال .

هــذه التعبــئة ظلــت ســلمية علــى شاكلة التعايش الطويل بين المسلمين والمسيحيين .

لكن العجيب إن انعكاسات مبادرة حكومية هي التي أسرعت بتفجر الصراع مانــيلا، من أجل الإعداد لغزو ولاية الصباح الماليزية (*) عمدت إلى تدريب جنود مــسلمين فــي جزيرة كور يجيدور، لكن سوء المعاملة، وعدم دفع مرتباتهم، أثار بيــنهم مــوجة من السخط في هذا المحتوى نشأت في مايو 1968 حركة من أجل اســتقلال ميندناو. لأول مرة إنشاء دولة مستقلة تضم جزر سولو وبالأوان وجزء

(*) الصباح كانت تتبع سلطان سولوا، لكن الإنجليز ألحقوها بالاتحاد الماليزي مانيلا منذئذ تطالب باستعارتها.

من ميندناو – صار طلباً مطروحاً لكن الحركة لم تكن حركة سياسية عسكرية، لقد ظلت على نفس طبيعة "MNLO" المنظمة الوطنية لتحرير موردو، والتي تؤطرها على كل حال .

- **انتفاضة عام** 75 - 1976 :

الأمـــر مختلف بالنسبة للجبهة الوطنية لتحرير مورو MNLF، التي تأسست عـــام 1969، مـــن شباب خريجي الجامعة القادرين على صياغة مشروع سياسي وتنظـــيم كفاح مسلح، في عام 1971 انفصلوا عن MNLO، المعارك الأولى وقعت فـــي نهايـــة عـــام 72 سياسة الرئيس ماركوس وضعت النار في البارود: إعلان الأحكـــام العـــرفية، تعيـــين موظفـــين مـــسيحيين من الشمال للإدارة المحلية: هذه الإجراءات أبعد من أن تسهم في تهدئة الوضع، أكدت مخاوف السكان المسلمين .

عـــام 73 و74 اشـــتدت المـــواجهات وعمـــت. عـــام 1975 بـــدأت أول المفاوضـــات فـــي جـــدة – السعودية – بين مبعوثين من ماركوس ومندوبين عن MNLF هـــؤلاء طالـــبوا بإنـــشاء دولة مورو المستقلة وهو طلب غير مقبول من الحكومة، في ظروف حرجة، بعض ممارسات عناصرها أساءت إلى سمعتها، كما أســـاء لهـــا توقيع اتفاق مع الحركات الشيوعية – هذا الاتفاق ألغي عام 1983 بعد اكتـــشاف محاولة الشيوعيين استقطاب المقاتلين المسلمين – بالإضافة إلى هذا فإنها تكبدت ضغط الجيش الذي أطلق هجوماً قوياً، ضدها في عام 75 – 76 .

- **اتفاق طرابلس** 1976 :

فـــي هـــذا المـــناخ المشجع على التفاوض، قابلت زوجة الرئيس ماركوس، أميلدا، العقيد معمر القذافي، السند الكبير للجبهة الوطنية لتحرير مورد MNLF، في طرابلس، نهاية عام 1976 .

الخـــوف مـــن مقاطعة نفطية من طرف البلدان العربية، لعب دوراً في هذا القرار من أجل سحب فتيل هذا الصراع .

تـــم التوقـــيع علـــى اتفاق في ديسمبر 76 وهو اتفاق طرابلس، والذي ينص

إضـــافة إلى وقف النار، على الحكم الذاتي لثلاث عشرة مقاطعة جنوبية، منذ ذاك صار اتفاق طرابلس مرجعاً قانونياً للحركة .

جـــرى استفتاء في إبريل عام 77، أغلبية السكان في المناطق ذات الأغلبية المـــسيحية، كانت ضد " الحكم الذاتي " لكن الحركة نددت بالنتائج، ولم تعترف بها، لتعود المعارك مجدداً منذ خريف 77 .

ابـــتداءً مـــن عـــام 77، ورغـــم اشتداد الكفاح عام 1980، إلا أن الحركة الإسلامية مرت بفترة تدني نسبي بسبب عدة عوامل مجتمعة :

- انقسامات داخلية تحولت إلى انفصالات، عدة حركات انشقت عن الحركة الأم.
- تقلص الدعم الخارجي: المساعدات الليبية السخية زمنا طويلاً تقلصت، كذلك الدعم الماليزي، مساعدات سوريا وإيران لم تعوض الفاقد .
- مانيلا أطلقت حملة طلب ودّ البلدان العربية .
- التطبيق الجزئي لاتفاق طرابلس جعل البعض يتخلى عن الحركة .
- دخـــول السعودية، من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي، منافساً على حساب ليبيا .

ابـــتداءً مـــن عام 89 استعادت الحركة الإسلامية نشاطها، بعد ثلاث سنوات من الخمود، نوري ميسواري، عاد سراً إلى البلاد، وعرض الدعم المالي والأسلحة علـــى الجماعـــات التي تواصل القتال، عام 1993، الجبهة الوطنية لتحرير مورو، أرســـلت رســـالتين تعبيراً عن تصميمها: حررت راهبتين أسبانيتين مخطوفتين من طـــرف جماعـــة منشقة، وهي عملية إعلامية شارك فيها سفير ليبيا آنذاك، وأبادت وحدة عسكرية بحرية في بازيلان .

هكذا تريد البرهنة من ناحية على قدرتها وتصميمها على مكافحة العصابات الإجـــرامية، والتنـــصل من ممارساتها، ومن ناحية أخرى تريد البرهنة على قوتها وقدرتها العملياتية .

فــي أبــريل عــام 1993، اتفقت الحكومة والجبهة الوطنية لتحرير مورو MNLF علــى الــتفاوض على أساس تطبيق تام لروح اتفاق طرابلس عام 1976 جــرى التوقــيع على الاتفاق في جاكاوتا – اندونيسيا – في نوفمبر 1993، والذي ينص على :

- وقف نار مؤقت، مع تشكيل لجنة مراقبة .
- مذكــرة تفــاهم، داخلية، لم يعلن فحواها، لكن يبدو أنها تؤكد موافقة مانيلا علــى الحكــم الذاتــي فــي ميــنداناو، وتخلي نوري ميسواري عن مطلب الاستقلال التام. إنه إذن تطبيق اتفاق طرابلس .

لكن جماعة أخرى ظهرت، أكثر تطرفاً، تأخذ على MNLF تراخيها وتخليها عن مطلب الاستقلال .

هــذه الجماعــة تــتكون، فــي الغالب، من شباب أنهوا دراستهم في البلدان العربية، خاب أملهم في تطبيق جدي وتام لاتفاق طرابلس .

إنها جماعة أبو بكر عبد الرازق جانجلاني، أبو سياف .

اللامــساواة الاجتماعــية لازالــت ســائدة، تجعل من المسلمين في جنوب الفيليبــين، الجماعة المهملة والمهمشة الأكثر من البلاد والموارد الهامة لازالت في الواقــع تحت سيطرة عائلات غنية من " المستعمرين الكاثوليك الشماليين " والريع يذهب إلى مراكز أعمال، والأعمال في مانيلا وليس لصالح تنمية الإقليم والرفع من مستوى معيشة السكان، التطبيق الجزء لاتفاق طرابلس لم يترجم في تحسين شروط الحياة، بعض الاختصاصات الإدارية والبلدية لا تعالج جوهر النزاع .

إذا كانت المسألة، في جوهرها، ليست دينية، ليست نزاع مسلمين وكاثوليك، إلا أن ارتــباط الاســتحواذ علــى الثروة من قبل عائلات كاثوليكية، على حساب الــسكان الأصــليين المــسلمين وأن هذه العائلات غربية – أجنبية – عن مناطق المسلمين، جعل النزاع يأخذ صبغة دينية .

النزاع / مهما كان الوضع حالياً، يهدد بالانفجار، ما لم تعالج الأسباب الكامنة .

إن الصبغة الدينية يمكن أن تزيف الواقع .

– **الفعلة :**

المنظمة الوطنية لتحرير مورو	MNLO	1960
الجبهة الوطنية لتحرير مورو	MNLF	1969
الجبهة الإسلامية لتحرير مورو	MILF	1978
جماعة أبو سياف		1990

– **الحركة الشيوعية المسلحة :**

إن واقـــع الظلم والبؤس واللامساواة الاجتماعية الاقتصادية، والإقطاعية في لـــباس حـــديث، والـــذي أدى إلـــى ظهور حركات مسلحة إسلامية، أدى عند غير المسلمين إلى حركات شيوعية مسلحة .

الحـــزب الـــشيوعي الفيليبـــين P.K.P تأسس عام 1930، على يد كريستانو ايفانجليستا، لكن نشاطات الثورية أدت إلى قمعه بعنف، ثم تحريمه، عام 1932.

في عام 1938، غيّر الحزب من استراتيجية واندمج مع الحزب الاشتراكي.

– **ارهاصات انتفاضة الهوك :**

الاحـــتلال اليابانـــي قـــدّم فرصـــة التجربة الأولى للعمل السري للشيوعيين الفيليبنيـــين، الهـــدف آنـــذاك كان مكافحة الفاشية وتحرير الوطن، في عام 1992، أسس الشيوعيون "الجيش الشعبي ضد اليابان" والمعروف اختصاراً باسم "الهوك".

هذه المقاومة جمعت حركات فلاحية تضم حوالي 10 آلاف مسلح في نهاية الحرب ،عدم كفاءة أطرها القيادية أدّى إلى تغلب اليابانيين عليها .

لكـــن ما وراء تحرير البلاد كان للشيوعيين هدف الاستيلاء على السلطان، كمـــا يـــشير إلى هذا ضحايا عملياتهم، من 25 ألف ضحية في سنتين من الحرب،

5000 – فقــط – جــنود يابانيــين. الآخــرون كانوا: أعداء الشعب، كبار ملاك الأراضي وحرسهم .

بعد تحرير البلاد، أقوياء بشرعيتهم التي استمدوها من كفاحهم ضد الاحتلال اليابانــي، توقّــع الــشيوعيون الاعتــراف بقوتهم السياسية والعسكرية، ورفضوا الامتثال لأوامر الحكومة والأمريكان بإلغاء السلاح، تطورات الموقف بعد ذلك أدت إلــى تخلــي الحزب عن خطة البرلمان، الذي تبناه عام 44 – 1946. خاصة بعد رفض السلطات الاعتراف بفوز بعض عناصره في انتخابات عام 46 .

بعــد مرحلة جدال داخلي شديد، عاد الهوك إلى حرب العصابات، في بداية عام 48 جرى منع الهوك AJP .

جــيش شعبي ضد اليابان – في نوفمبر، الحركة وقد اختارت طريق الكفاح المسلح، أخذت اسم " جيش التحرير الشعبي " وبدأت الهجوم في بداية عام 50 .

لكــن الاختيارات السيئة من طرف قيادته، وقابلية للتسلل إليه، جعله فريسة رد حكومي في عام 51 – 52، تم القضاء على جيش التحرير الشعبي، وفي بداية أعوام 60، توقّف الحزب الشيوعي عن الوجود باعتباره قوة سياسية، لكنه عاد إلى الظهور في شكل اجتماعي سياسي، مختلفاً عن سابقه وبقيادة جوزى ماريا سيزون.

التــيار الــذي يقــوده جــوزى ماريا أبعد من الحزب الجديد، فأسس حزبه الخاص، بضعه شهور بعد 1968، أسس هذا الحزب فرعه المسلح، وذلك بأن دمج مجموعات مسلحة صغيرة قائمة وأسس منها: جيش الشعب الجديد .

فــي بدايــة الحقبة 80، استعاد جيش الشعب نشاطه، ووسّعه ليشمل كل التــراب الوطنــي، بعــد مــرحلة من الخمود في منتصف الثمانين 20% من الجماعــات الريفية صارت تحت تأثير الحزب والذي عناصره المقاتلة تتراوح بين 12 ألف و15 ألف عنصر .

بعــد سلسلة من المفاوضات جرت في هانوى عام 1993، وفي هولندا عام 94، أمكن الوصول إلى بوادر حل وسط خلال عام 1997، يتكون من أربع نقاط،

تكون موضوع مفاوضات تالية، وتقود إلى اتفاق سلام ..: حقوق الإنسان، وتشريع دولي إنساني، ونهاية الحرب، وإصلاح اجتماعي، اقتصادي، سياسي دستوري .

لقـد تـمَّ الاتفـاق علـى الـنقطة الأولى، لكن الحزب طلب اعتماد الاتفاق رسـمياً مـن الـرئيس الفيليبيني، لكن هذا رفض، وطلب أولاً وقف النار، الرئيس الجديـد، اسـتراداً، أعطى موافقته عام 1998 مع الطلب من المعارضة المسلحة، الطـرف الآخر من المفاوضات، تحديد زمن – سنة – للتفاوض حول الثلاث نقاط الباقية. هذا يعني أن ملف النزاع ما زال مفتوحاً أمام كل الاحتمالات .

- **الفيليبين :**

المساحة	:	300 ألف كم2
السكان	:	64 مليون نسمة
التكوين الوقي	:	مالاوى 95%. صينيون 1.5%
الديانات	:	مسيحية 85%، إسلام 8% وثنيون 6%
		بوديين 1% .

المراجع

1- موسوعة الصراعات   ص 949 - 971 .

2- حالة العالم 2000   ص 335 - 357 .

3- سكان العالم   ص 295 - 297 .

4- حالة العالم الثالث .

5- اللوموند: ميندناو: بوسنا آسيوية ؟ 6 يوليو 2000 .

الفصل الرابع

إيران من الإمبراطورية ... إلى ....؟

إنّ الأحـداث التي أدت، في نهاية المطاف، إلى سقوط نظام الشاه، وإعلان الجمهـورية، فـي 1 إبريل 1979، والتي عرفت إعلامياً " بالثورة الإسلامية " قد بـدأت، في الحقيقة، منذ عام 1977 م وعلى يد فعلة من المثقفين، الذين لم يكونوا من رجال الدين الشيعة، هذا يعني، على خلاف ما هو شائع عند العامة، أن الثورة الإيـرانية لا تختـزل في صعود التعصب الديني، ولا ترجع في أساسها إلى حركة نهوض دينية، رجال الدين لم يكونوا فعلة أساسيين في انطلاقها.

تطـور الأحـداث، التـي صنعت آليتها، وتدمير البنية الاجتماعية التقليدية، خلال مرحلة التحديث الشاهنشاهي، دون إقامة بنية بديلة، غياب المؤسسات المدنية بـسبب نظـام الحكـم الـسلطوي، وضعف المثقفين والطبقة الوسطى عامة، مع اسـتمرارية المؤسسة الشيعية الدينية قائمة، دون أن يطالها تدمير البنية الاجتماعية التقليدية، خلال مرحلة التحديث الاصلاحي الشاهنشاهي، جعل الثورة تقع بين أيدي رجال الدين، هؤلاء وحدهم يملكون مؤسسة قائمة وقادرة على تأطير وقيادة حركة الشعب وبلورة غضب وقلق العامة .

المـثقفون أطلقـوا شـرارة الثورة، لكنهم لا يملكون وسائل تأطير الحركة الثورية وقيادتها، المؤسسة الدينية الشيعية تملك هذه الوسائل وهذه المقدرة .

المؤسـسة الدينية الشيعية مستقلة عن الدولة، تحصل على تمويلها من الناس مباشرة، من خلال " الزكاة " وقد أعطاها هذا قوة في مواجهة نظام الشاه، كما إنها تـوجد مـن خـلال رجالهـا فـي كل شارع وحي وسوق وقرية، هؤلاء الرجال يـسيطرون فعلـياً علـى الشارع الإيراني، ويقودون الحياة الاجتماعية، مما جعل المؤسسة الدينية دولة داخل الدولة، إنها تتقاسم عملياً السلطة مع نظام الشاه .

الــشاه لــم يفــته إدراك هذا، لقد أدرك أن استقلالية المؤسسة الشيعية مالياً وإداريــاً، يجعلهــا صــعبة المــراس، وغير قابلة للتطويع، وهذا بالضبط ما جعل التحديث الاصلاحي الشاهنشاهي لا يمس المؤسسة الدينية .

الــشاه فكــر فــي أن أول خطــوات تطــويعها تكمن في القضاء على هذه الاستقلالية.

الحجــج فــي هذا السبيل تبدو في ظاهرها بريئة، لكنها بالكاد تخفي الدوافع الحقيقية.

لقــد أراد الشاه الرفع من مستوى حياة رجال الدين وتقديم الدعم المالي للمؤســسة الدينــية، لكي تنهض أفضل بمهامها، ذاهباً إلى أن إيران الغنية لا ترضــي لــرجال الــدين وللمؤســسة الدينية أن تعيش في حالة معاناة وفاقة ومستوى حياة متدنٍ.

- لكن هدفه الحقيقي، من الإغداق على رجال الدين وعلى المؤسسة الدينية هو:

1- تعــويد رجال الدين على مستوى حياة رفيع، فيعزلهم بهذا عن عامة الناس، ويقودهم إلى الارتباط مصلحياً بالدولة .

2- تطويعهم من خلال التحكم في مصادر هذا المستوى من الحياة.

3- إخضاع المؤسسة الدينية للدولة .

المؤســسة الدينــية أدركــت مغــزى اهتمام الشاه، عندئذ لم يعد أمامها إلا المواجهة، المعركة هكذا بدأت بين الشاه ورجال الدين الذين أدركوا هدف الشاه .

لكن هذه المعركة لم تتحول إلى ثورة، لقد كان صعباً على رجال الدين نقلها إلــى الشارع - دوافعها ليس في مقدور العامة إدراكها حتى أن بعض رجال الدين لــم يجدوا غضاضة في قبول المال الحكومي، البعض الآخر سجن منهم من سجن، ونفي من نفي خارج البلاد، وبدا الأمر وكأن مشروع الشاه لتطويع المؤسسة الدينية سوف يكلل بالنجاح .... لو لم يتحرك المثقفون ! .

في الحقيقة الثورة أطلقها المثقفون، دون أن يكون هذا هدفهم، المثقفون الذين بدأوا الحركة لم يكن هدفهم إسقاط نظام الشاه، وإنما تحرير الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .

هذه الأهداف، وإن كانت تتعارض مع أهداف المؤسسة الدينية إلا أنها كانت طوق نجاه لمؤسسة توشك على الغرق .

ما إن بدأت هذه المطالب تعلن، حتى أثارت عاصفة بدأت تهز أرجاء إيران منذ مارس 1977 .

النظام الشاهنشاهي يقوم على الطغيان والسلطوية والحكم المطلق، مطالب تحرير الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، لابد وأن تهز أسسه، وأن تقضي عليه، حتى وإن لم يكن هذا هو الهدف الواعي للانتفاضة الثقافية .

الشرارة أشعلها كاتب إيراني، اسمه على أصغر حاج سيد والذي، في رسالة مفتوحة، موجهة إلى الشاه، يطالب بالحرية .

بالطبع هذا لا يكفي وحده لإشعال شرارة الانتفاضة. الملابسات التي صاحبت نشر هذه الرسالة ساهمت في ذلك، هذه الجرأة بدأت تعطي ثمارها، كاتب الرسالة لم يلاحق، لم يقبض عليه، وهذه سابقة على غير العادة، بسبب ما كان يعتبر في إيران الإمبراطورية، جريمة وقذفاً في حق الإمبراطور ومساساً بالذات الإمبراطورية .

عدم ملاحقة كاتب الرسالة، اعتبرها المثقفون مؤشراً على ضعف النظام أو على الأقل ضوءًا أخضر، عندئذ أطلق المثقفون العنان لمطالبهم: رجال القانون، الكتاب الجامعيون، الصحفيون ..... أخذوا يعبرون صراحة عن آرائهم ويعلنون مطالبهم ..

أما رجال السياسة، المعارضون للنظام، الذين كانوا يلتزمون الصمت قهراً، فقد أخذوا بدورهم يطالبون بالمزيد من الحرية .

مع ذلك الانتفاضة لازالت غير مؤكدة، لقد كان بإمكان بوليس الشاه ومخابرته

– السافاك – وضع حد لهذه المطالب والتي لازالت مطالب ثقافية سياسية، بعيدة عن اهتمامات ومشاغل عامة الناس، وبالتالي ليس بإمكانها تحريكهم.

لكن الإمبراطور يتردد في التعامل مع هذه المطالب ومع الذين يعلنونها: بين القمع الذي اعتاد عليه وبين ترك الحبل على الغارب.

هذا التردد كان بداية العد التنازلي للنظام الإمبراطوري .

القمــع كــان سيغضب الرئيس الأمريكي الجديد، الديمقراطي كارتر، والذي نصّب نفسه " بطل حقوق الإنسان "، والشاه كان مهتماً لعدم إغضابه، وهذا ما ساهم فــي تــردده وعدم لجوئه إلى القمع، هكذا البوليس السري – السافاك – ذو السمعة السيئة، لم يقم بأي اعتقالات .

جرأة المثقفين في إعلان مطالبهم، وعلى رأسها الحرية، وتردد الإمبراطور فــي التعامل معهم، وفق أسلوب القمعي المعتاد، فتح ثغرة لم يتمكّن الشاه بعد ذلك من سدها، لقد شاعت المطالب، جارة إلى مطالب أخرى، وازدادت جرأة الإيرانيين بقدر تردد النظام في اللجوء إلى القمع، ودخلت فئات اجتماعية أخرى – إلى جانب المثقفين – المعركة مع النظام .

عندما حاول النظام، بعد ذلك استعادت هيبته كان الوقت قد تأخر جداً .

فــي 8 و9 ينايــر 1978، وفي مدينة قم، المقدسة بالنسبة للشيعة، والواقعة 150 كــم جــنوب طهــران، فــتح البوليس النار على عدة آلاف من المتظاهرين المحتجــين على نشر يومية حكومية (اطلاعات) لمقالة مسيئة لآية الله الخميني، عــدد من المتظاهرين قتلوا، هذه كانت لحظة حاسمة، لأنها تشير إلى دخول رجال الدين والعامل الديني حلبة الصراع في بلد تهزه الاضطرابات التي بدأها المثقفون، كما أنها تشير إلى بداية استيلاء رجال الدين على حركة الشارع .

أحداث قم هذه فجرت موجة الاحتجاجات الشعبية، انتفاضة المثقفين بدأت تأخذ بعــد شــعبياً، مطالب المثقفين، تمتزج بعنف المظاهرات والاحتجاجات، دماء القتلى جعلــت كــل عــودة إلى الوراء مستحيلة، كما استحال الوقوف هكذا بدأت الدوامة:

تسلسلت أحداث العنف المظاهرات الاحتجاجات، وكذلك القمع والتنكيل المواكب إحياء لذكرى هذه الأحداث، أربعين يوماً بعد ذلك، أو الأربعينية، حسب التقاليد الشيعية والشرقية بصفة عامة، كانت فرصة اندلاع العديد من المظاهرات، في عدة مدن إيرانية من بينها تبرز عاصمة إقليم أزربيدجان، والتي كانت مسرحاً لامتزاج السياسي والديني: لقد أخذ المتظاهرون يشعلون النار في رموز النظام ورموز المجتمع الفاسد، دور الخيالة، متاجر الترف، محلات الأرمن، حيث تباع الخمور .

في محاولة للسيطرة على الوضع، وإمام عجزة، استدعى البوليس الجيش، القمع كان رهيباً، بضعة مئات من القتلى ..

المثقفون، حيث أعلنوا مطالبهم زعزعوا مصداقية النظام بوليس الشاه عندما فتح النار على المتظاهرين في قم، فتح جبهة أخرى، عامة الناس، بتحريض من رجال الدين، أخذوا يدكون رموزه .

من أربعينية إلى أخرى، عمت المظاهرات والإضرابات كل مدن إيران تقريباً، عدد القتلى يزداد، ومعه تزداد أهمية دور الهرمية الدينية الشيعية على حساب دور المثقفين ومطلب الحرية والديمقراطية .

الهرمية الشيعية كانت المؤسسة الوحيدة القادرة على تأطير الشارع وقيادة حركته العامة، بسبب غياب مؤسسات المجتمع المدني، وقمع الحريات، وتشتت المثقفين، وضعف بنية الطبقة الوسطى، فإن المؤسسة الدينية وحدها برزت قادرة على قيادة الانتفاضة .

المؤسسة الدينية وحدها لم يدمر النظام بنيتها خلال ما دُعي مرحلة الإصلاح والتحديث الشاهنشاهي، بسبب استقلاليتها تجاه الدولة، والتي تستمدها في الغالب من التجار - البازار .

التجار في إيران - تقليدياً - فعلة سياسيين واقتصاديين مهمين، أغضبهم الفساد المستشري في أوساط النظام والذي أثاره تمسهم وحدهم دون حاشية الإمبراطور، تضامنوا مع الحركة، كما أن تغلغل المؤسسة الدينية في الأحياء وفي الأسواق والقرى، ليس بعيداً عن هذا، كما لحق بالحركة العمال والإجراء .

دوافع هذه الفئات مختلفة، لكنها تتفق في سخطها على النظام .

أمـــام استفحال الحركة الاجتماعية، وعد الشاه بإجراء تغيرات وإصلاحات مـــن أجل احتواء الحركة، غير الوزير الأول، لكن الوقت كان متأخراً، وما قام به اعتبر ضعفاً، وشجع على تطرف الحركة ومطالبها .

فـــي بدايـــة شهر سبتمبر بدأت الجماهير تطالب برحيل الشاه. ردة الفعل الأولـــى من قبل الشاه كانت إعلان أحكام الطوارئ في اثنتى عشرة مدينة، من بينها طهران .

غـــذاة هـــذا القرار، الذي دخل حيز التنفيذ ليلة 7، 8 سبتمبر 1978، أطلق الجيش النار على الجماهير المتجمعة في ميدان جالي بطهران، فأخذت ذلك مجزرة مروعة عرفت " بالجمعة السوداء " إيران لم تعرف لحظة راحة بعد هذه المجزرة.

الوضـــع يـــزداد ســـوءاً، عمال النفط يضربون عن العمل، وتوقُف تصدير النفط، شلً كل جهاز الإدارة والخدمات، بما في ذلك الإذاعة والتلفزيون، كل البلاد انتفضت متحدة .

أمـــام تدهـــور الوضـــع حاول الشاه، مرة أخرى، احتواء الانتفاضة بأن قدم تنازلات.

فـــي أواخـــر أكتوبر، أي في آخر أيامه، حاول الشاه كسب ودّ العامة، بعد اســـتفحال وشيوع مشاعر السخط والغضب، وسحب البساط من تحت أقدام القيادات الدينية والسياسية المعارضة .

1- وجّه خطاباً يعلن فيه قبوله بمطالب الشعب، ويؤكد عزمه على الإصلاح.

2- أذنِ بـــثلاث مـــوجات مـــن الاعتقالات، طالت عدداً كبيراً من كبار رجالات نظامه وأقرب المخلصين له: في الأمن والإدارة وخاصة في جهاز السافاك.

3- أخرج عددًا كبيرًا من المعتقلين السياسيين .

4 - عين عضو الجبهة الوطنية، المعارضة، شهبود بختيار، رئيساً للحكومة .

لكن هذه التنازلات ظلت بدون تأثير يُذكر على الحركة، إن لم تكن قد زادت في تأجيجها، الإجراءات التي قصد منها الشاه تهدئة العامة واحتواء غضب الشارع، أدت إلى العكس من المطلوب منها: لقد فهمت وفسرت على أنها تعبير عن ضعف وهزيمة الشاه .

هكذا بدلاً من أن تحدث الرضى بين العامة، زادت السخط وألهبت المظاهرات .

موجات الاعتقالات في صفوف رجال النظام، أدت إلى تصدع هائل في مؤسسة النظام، وأفقدته أهم أركانه، البعض ألقي به في السجن، والبعض الآخر شلّه الخوف من هذا المصير، اعتقال عدد كبير من المسئولين، من أعمدة النظام أفقده آخر إمكانات مواجهة الحركة .

أما من بقي من رجال النظام لم يطله الاعتقال، فإنّ موجه الاعتقالات إخافتهم وشلتهم عن العمل من أجل الدفاع عن نظام لا يأمنون انقلابه عليهم .

وأخيراً المفرج عنهم، من المعتقلين السياسيين، انخرطوا في صفوف الحركة وزادوها اشتعالاً .

كل خطوة يخطوها الشاه إلى الوراء يقابلها تقدم الحركة عشرات الخطوات ...

في 16 يناير 1979 أرغم الشاه على مغادره طهران، رسمياً في إجازة، بعد أن سمّي مجلس ولاية .

في 19 يناير، ملايين الإيرانيين، جاءوا من مختلف أنحاء البلاد، يجوبون شوارع طهران .

في 1 فبراير: تجمعوا يحيون عودة آية الله الخميني، بعد خمس عشرة سنة من المنفى .

16 يناير 1979 هو نتاج إحدى أكبر الانتفاضات الشعبية في التاريخ، انتفاضة لم يستطع النظام السياسي احتواءها رغم القمع والتنكيل .

لكــن إذا كانــت كراهية نظام الشاه قد وحَّدت الإيرانيين من كل الاتجاهات، والفئات، فإنّ سقوط النظام أخذ يهدد بظهور الانقسامات والتناقضات .

الإصــلاحات التحديثــية، التي بدأها الشاه، منذ ما دُعي بالثورة البيضاء، أو الإصــلاح الزراعــي عــام 1962، دمرت البنية الاجتماعية التقليدية، خاصة في الأريــاف، لكن فرص نجاح بنية بديلة كانت صفراً، لقد أعاقها نظام سلطوي فردي

لقــد كــان الإصـــلاح والتحديث سريعاً لم يتمكن نسبة كبيرة من الناس من اســتيعابه ولا التكيف معه، هكذا ظهر على إنه تدمير أكثر من إصلاحاً أو تحديثاً، لقــد دمــر البنية الاجتماعية التقليدية التي كانت تكفل قدراً من الاستقرار والأمان لعامة الناس، لكنه لم يبن بديلاً .

كما كان الإصلاح مفرطاً، فظهر على إنه نقيض تقاليد الناس وقيمهم، وليس تحديثاً وتطويراً .

وما زاد الطين بلة أن الإصلاح كان على النمط الأوروبي، ما أذكى مخاوف الناس، وأكد شعورهم بأنه إصلاح معادٍ لتقاليد وأعراف المجتمع الإيراني .

هــذا الــتحديث السريع المفرط، على النمط الأوروبي، أدّى إلى صدمة بين الناس .

- بسبب :

1- مــا آثاره من مخاوف وقلق على التقاليد والمعتقدات والأعراف الاجتماعية التقليدية .

2 - ســرعة وتيــرة التحديث والإفراط فيه، لم يمكّنا غالبية الناس من استيعابه ولا التكيف معه .

3 - إنه يتبنى النمط الأوربي .

هــذه العــوامل أدت إلى ردة فعل دينية ضد التحديث الذي ظهر للناس ليس

علـى أنـه تحديث بل انسلاخ عن الهوية الوطنية، وأدى إلى أن يندفع العامة إلى الاحتماء بالمؤسسة الدينية، وآيات الله، والزعامات التقليدية طلباً لأمان النفس.

المؤسسة الدينية وحدها ظلت قائمة لم تطلها عواصف التحديث الشاهنشاهي.

المؤسسة الدينية، رجال الدين والزعامات التقليدية، ظهرت هكذا على أنها حامية الهوية والمعتقدات والأعراف الاجتماعية، بينما ظهر نظام الشاه على أنه معادٍ لتقاليد وأعراف المجتمع الإيراني .

محاولة النظام السيطرة على رجال الدين بتحويلهم إلى موظّفين أثارت غضب رجال الدين، لقد أدركوا أن الرواتب السخية يقصد منها تطويعهم .. وأثارت خوف المؤسسة الدينية على استقلاليتها .

نتيجة كل هذا، تعميم السخط والغضب، مقروناً بالخوف واللاأمان بين عامة الناس، على خلفية أزمة اقتصادية وصعود المطالبة بالحرية والديمقراطية، ونظام يخضع لمزاجية إمبراطور مطلق السلطان .

بعد النمو السريع والمرحلة الاستهلاكية في بدايات أعوام السبعين، حلّت الأزمة وتفاقم البطالة، السخط العام، كما ظهر قبيل الانتفاضة، وحَّد كل الإيرانيين، من كل الأصول والأعمار، والمعتقدات والمهن، ضد الأوتوقراطي، ضد شخص ونظام جسَّد كل البغض: كراهية نظام الشاه وحّدت كل الإيرانيين .

لكن هذه الوحدة، مع ذلك، ليست بدون تناقضات، لقد بدأ المثقفون حركة الاحتجاج من أجل الحرية وديمقراطية الحياة، لكن المؤسسة الدينية استحوذت عليها.

الحركة تبنت سريعاً شعار " الإسلام " لكن على أساس امتثالات متعددة .

بالنسبة لجيل الآباء: الحركة تعني العودة إلى الأعراف والتقاليد الاجتماعية، التي دمرها التحديث، إنها ردة فعل متأخرة، بعض الشيء عن التحديث الإمبراطوري.

- بالنسبة للشباب غير المحظوظين: تعني الثأر من الظالمين المستكبرين - مكتنزي الثروات .

- بالنسبة للفلاحين، الذين فقدوا أراضيهم، فإن الحركة تعني استعادة النمط الريفي القديم الذي دمره الإصلاح الزراعي والتحديث .

أما رجال الدين، الخميني، فإن الحركة تعني الاستيلاء على السلطات، بدعوى حق رجال الدين في إدارة شئون الدولة .

أما بالنسبة لشباب المدن، فإنها تعني الحرية وإرادة المشاركة الفعالة في التغير الاجتماعي .

هذه الفئات الاجتماعية يجمعها معاً كراهية نظام الشاه وإرادة " إسقاط نظامه" لكنَّ كلاً منها يتأسس على نظرة مختلفة، لهذا لم يكن غريباً أنه حالما انهار نظام الشاه بدأ الاختلاف، لتحول الحركة سريعاً إلى حركة قمع واسعة السلطة الدينية، ممثلة في المؤسسة الشيعية، كانت أقوى الأطراف الاجتماعية، لقد بدأت " الثورة " تأكل أولادها ! .

ضعف المثقفين وتشتت حركتهم بين الفئات الاجتماعية استمرارية سلطان قمعي لعدة أجيال، خضوع الطبقة الوسطى وانقيادها السريع أمام الخميني وأعوانه، السلوك الخانع لمجتمع تعوَّد القمع طويلاً، سرعان ما أعادت اللحمة مع الماضي، بعد فترة انتفاضية قصيرة الأجل، لتحل المؤسسة الدينية محل المؤسسة الإمبراطورية، النظام لم تتغير طبيعته وأن تغيَّر رجاله .

كلّ هذه العوامل لعبت دورها في تحول الأحداث إلى مشروع قمعي واسع تحت مبرر دولة " إسلامية " الحرب مع العراق في سبتمبر 1980 ساهمت في ترسيخ سيطرة حزب الخميني على السلطان. الخطر الجماعي جعل الخلافات الداخلية تتنحّى وأعطى مبرراً للقمع الجديد.

الحسابات تجري معكوسة، الذين ظنوا الفرصة سانحة لتصفية حسابات قديمة مع " إيران " خدموا سلطان المؤسسة الدينية .

نهايـــة الإمبـــراطورية أعلنت في 11 فبراير 1979، بعد أن قرر المجلس الأعلى للجيش حياد القوات المسلحة، وخلال آخر محاولات الحرس الإمبراطوري إنقـــاذ الموقـــف المـــنهار أخذ مهدى برقان، الذي عُين قبل ذلك ببضعة أيام رئيساً للحكـــومة المؤقـــتة، مـــن قبل الخميني، مكان ووظيفة شهبود بختيار، الجمهورية الإســـلامية أعلنت في بداية إبريل، بعد أن صوت لصالحها 98% من الإيرانيين، حسبما تقول السلطات التي نظمت الاستفتاء .

الخمينـــي كان معارضاً شديداً لنظام الشاه، إلا أنّه لم يكن عام 1964 الزعيم الكارزمـــي الـــذي صـــار خمس عشرة سنة بعد ذلك: الانتفاضة الباحثة عن رمز وجدته في الخميني المنفي .

هاجـــر الخمينـــي أولاً إلـــى تركيا، ثم أقام في مدينة النجف المقدسة بالنسبة للشيعة، في العراق، هجرته كانت بسبب موقفه ضد " الثورة البيضاء " التي أعلنها الشاه، بسبب عدائه للهيمنة الأمريكية على بلاده، ثم غادر العراق إلى فرنسا، ابتداءً مـــن أكتوبر 1978، بعد أن منعته سلطات بغداد من ممارسة أي نشاط سياسي ضد نظـــام الـــشاه، هذا كان نتيجة اتفاق الشاه مع الحكومة العراقية في موضوع التمرد الكـــردي فـــي العراق والذي كانت إيران تدعمه. هكذا كان توقف دعم الأكراد في العراق مقابل منع الخميني من أي نشاط سياسي .

الـــسياسة لعـــبة قـــذرة بقدر ما هي خطرة، إذا كان يوجد في العراق أربعة ملايين كردي، فإنهم في إيران ستة ملايين. العراق تدرك حتى اليوم أن دعم تمرد أكرادها لن يتجاوز خطوطاً حمراء، ليس من مصلحة جيرانها تجاوزها .

الخمينـــي يؤمن بفكرة بسيطة، والتي كانت لا تحظى بأغلبية الهرمية الدينية فـــي عـــام 1978: نظـــام الشاه ليس شرعياً وجوده في العراق، وفي مدينة النجف بالـــذات، كان يقلق نظام الشاه والذي بادل التوقف عن دعم أكراد العراق بالتضييق على نشاطات الخميني، لكن هذا خدم الخميني وجوده في فرنسا، بعد تركه العراق، مـــنحه فرصـــة إشاعة أفكاره التي منفاه العراقي حرمه من نشرها: تقنية الكاسيت، كما أن انتفاضة المثقفين وتصاعد التوتر في إيران كان عاملاً آخر في صالحة لغته

الخطابية بسيطة، وذات أثر يلهب مشاعر العامة، العامة هم مصدر قوة الخميني، والذي كان يخاطبهم بطريقة لم تمنعهم من التواصل معه أمية أغلبهم: الأشرطة المسجلة، محاطاً بخلية نشطة جداً من المناضلين، يرتبطون في إيران بخلايا ليست أقل فعالية تشيع وتنشر بين العامة خطابات الخميني .

هكذا مع تطور الأحداث، وغياب زعامة داخلية، صار للخميني ثقل أكبر فأكبر في قيادة الحركة .

الخميني لم يطلق حركة الاحتجاج، لكنه تمكّن من السيطرة عليها بفضل السيطرة على الشارع وعلى العامة، واستغلاله كراهية العامة للشاه ونظامه، وموقف العامة من التحديث خاصة وقد أفضى إلى وضع اقتصادي سيئ، فإذا أضفنا إلى هذا وضعه كرجل دين – آية الله – وتأثير المؤسسة الشيعية بين العامة الذين لجئوا إليها اتقاء لعواصف التحديث فإننا ندرك كيف آلت إليه قيادة الحركة المثال على ذلك الإجماع التام الذي ظهر في التزام عامة الإيرانيين بتعليماته، لقد صعد الملايين من الإيرانيين فوق أسطح المنازل، بعد إعلان حكم الطوارئ، يصرخون بصوت واحد: الله أكبر .

الحركة كانت أساساً عشوائية، بدأت بمطالب الحرية والديمقراطية، من مثقفين بين الفئات الاجتماعية، بدون روابط متينة مع عامة الناس وهمومهم لتصبّ في مظاهرات واحتجاجات تجري على نسق الفعل ورد الفعل، بدون هدف محدد ولا قيادة.

الإيرانيون جمعهم بغض نظام الشاه، ثم إرادة إسقاطه، لكن هذا الإجماع يخفي تيارات مختلفة، ليس بإمكان أي منها تأطير وقيادة حركة الشارع، الشارع يبحث عن قيادة، عن رمز، الخميني جسد هذا الرمز بسبب عدائه لنظام الشاه وموقفه ضد التحديث، وبفضل أعوانه النشيطين الذي جعلوا الشارع يرتبط به مباشرة، الخميني يرى الحركة وسيلة الاستيلاء على السلطان، بدعوى حق رجال الدين في إدارة شئون الدولة .

لكـن شعار الإسلام الذي رفعه الخميني، لا يكفي لحل تناقضات الحركة، هكـذا حالما استقر الأمر للخميني، بدا الإحباط في الفئات الأخرى المنتظرة من الحـركة أكثـر حكـم رجال الدين، ومع الإحباط تحولت الحركة إلى حركة قمع واسـع الـيوم، يـبدو إنـه لم تنجز الحركة غير " حكم رجال الدين " الذي وفاة الخمينـي، وضغط مشاكل الحياة بدأت تضعه موضع سؤال، مع انتشار ما يدعى الاعـتدال أو المـصلحون وعـودة المثقفـين إلى الواجهة بالمطالب نفسها رغم الاغتيالات التي تطالهم.

في العوامل التي أمدت المؤسسة الدينية بالقوة في مواجهة نظام الشاه، تكمن حدودها، لم يكن ممكناً أن المؤسسة الدينية تقود ثورة تغيير حقيقي .

مـشاكل المجـتمع الإيراني لا يحلها حكم رجال الدين، الوضع الاقتصادي يتدهور، البطالة، التضخم، تدني الخدمات يأخذ بخناق عامة الناس .

تـياران الآن يتوجهان في إيران: تيار رجال الدين الراغبين في استمرارية سـيطرتهم علـى المجـتمع – محافظ – وتيار يرى أن حكم رجال الدين لا يحل مشكلات المجتمع – إصلاحي الجديد في وضعية اليوم .

1- أن رجال الدين ينقسمون على أنفسهم بين محافظ وإصلاحي .

2- رجـال الـدين ليـسوا الـيوم في مواجهة الشاه وأعوانه يحتشد خلفهم الناس المظلومـون، المستغلون، المقموعون يستثمرون مشكلات المجتمع للطعن في شـرعية نظـام الشاه إنهم اليوم في السلطة، والمشكلات تتفاقم وبدون حلول، وعامة الناس تنفض من حولهم، إنهم اليوم في مواجهة عامة الناس، الذين لا يهمهم كثيراً، إن كان آية الله مرشد الدولة، وإن كانت الدولة تتسمى إسلامية، إذ كان مصيرهم البطالة والفقر والظلم الاجتماعي وقمع الحريات .

ممارسـة السلطة زعزعت مكانة المؤسسة الدينية في النفوس، البحث اليوم عـن نظام يكفل حل مشكلات المجتمع حتى وأن لم يكن على رأسه فقهياً، مشكلات الـناس الـبطالة، التـضخم، الفقـر .... ولـيس عقيدتهم الدينية يبدو أن التيار الإصلاحي فهم ذلك، فهل يحتاج المحافظون إلى مواجهات دامية لكي يفهموه ؟ !.

- مراجع عامة :

1- أوليفيير كاري: الإسلام والدولة ص 65 - 89 . نشر PUF. باريس .

2- بإشـــراف جـــيل كابل، يان ريتشادر: مثقفو ومناضلو الإسلام المعاصر، ص 29 - 70 . نشر سوى، باريس

3 - عـــز الـــدين كـــيان تيـــبور : الـــثورة الإيرانية ساعة الإصلاح في اللوموند الدبلوماسي يناير 1998 .

4 - كراسات الشرق: إيران أي مستقبل للجمهورية الإسلامية ؟ 1996 .

5 - ف عـــبد الحـــق، ح ف بايـــار، أوليفييـــر روى: تيرميدور في إيران. نشر كومبليكس باريس .

6 - ج. ب ديقـــارد، ب هـــوركاد، ي ريتـــشارد: إيران في القرن العشرين. نشر فايارد باريس .

7 - فارهاد كوسرو كافاد: التضحية باليتوبيا. نشر مطبعة العلوم السياسية باريس .

باللغة الفرنسية :

8 - اللوموند: القائمة السوداء التي تقلق الكتّاب الإيرانيين 19 / فبراير 1999 .

صراع الفئات والنظام الإيراني 26 نوفمبر 1997.

- ملحـــق :

- المساحة: 1.648.000 كم2 .

- السكان: 67.3 مليون .

- الدين: إسلام 97% .

- شيعة 85% .

ابـتداءً من استيلاء الصفويين على السلطة، في إيران عام 1501 م، صار المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في إيران.

- سُنّة 12%
- ديانات أخرى 3%
- يهود حوالي 15 ألف .

- التكوين العرقي :

فرس	51%	حوالي	34 م
أزميري	24%	حوالي	16 م
أكراد	9%	حوالي	6 م
عرب	2.5%	حوالي	2 م
ترك	1.5%	حوالي	1 م
آخرون	10%	حوالي	6 م

الفصل الخامس

الولايات المتحدة: الجريمة عنف سياسي !

البعض ربما يستغرب أن نتطرق إلى الولايات المتحدة في هذا الصدد. نحن لم نسمع عن حركات اجتماعية مهمة، ولا عن حركات انفصالية ترفع السلاح ضد المركـــز ولا حتى دعوات سلمية إلى الانفصال، يبدو هكذا أن الأمريكان يعيشون منسجمين، سياسياً على الأقل، رغم التنوع العرقي والثقافي .

عـــندما يجـــري الحديث عن الاتحاد السوفيتي، فإن الكثيرين يرجعون بقاء الدولـــة الـــسوفيتية إلـــى التأطير الحزبي القوي، وإلى (الكي جي بي)، هذا لم يكن خاطـــئاً تمامـــاً، لـــذلك عندما ضعفت الدولة وتراخت قبضة الحزب، تفكك الاتحاد السوفيتي فصار خبر كان .

- فما الذي يحافظ على بقاء الولايات متحدة ؟

صـــحيح من غير الممكن الحديث عن تأطير حزبي، ولا دور مماثل (للسي أي أي) إنـــنا هكـــذا نتجاهل عامل آخر لم يكن موجوداً في الاتحاد السوفيتي، إنه الـــسوق والـــذي حتـــى الآن يوفر ازدهاراً ورخاء نسبياً لعدد كبير من الأمريكان، يجعلهـــم يفـــضلون ويقدمون الانتماء لدولة غنية وقوية عن أي انتماء عرقي ثقافي حتـــى لو كان على حساب آخرين ودول أخرى، وما ظل هذا الازدهار يتمتع به، عدد مهم نسبياً من السكان، فإنّ الاتحاد سيبقى .

ولاء الأمـــريكان للـــسوق، ولـــيس إلى الاتحاد، إلا الإطار الذي يحمي هذا الـــسوق. لكن الرأسمالية بدأت تتخلّى عن السوق " الوطني " لصالح سوق عالمي، وتضغط على الدولة من أجل تقليص دورها الاجتماعي، متخلية عن المزيد والمزيد ممن هم في حاجة إلى مساعدة، والتي تبرر، في نظرهم انتماءهم للاتحاد .

الدولـــة المركـــزية تفقد شيئاً فشيئاً مبررها، أمام أعداد متزايدة من السكان، والرأسمال، لم تعد الولايات المتحدة تحتكر نشاطاته، صار يبحث عن مصالحه في كل مكان .. مقاطعات أمريكية أخذت تتجه إلى أن تكون عالماً ثالثاً.

المركز بدأ يفقد قوة جذب الأطراف .

الــولايات المــتحدة، على الأقل، بعض أقاليمها، وبعض سكانها تشهد اليوم شـــروطاً تقريباً صراعية، موسومة بعنف يماثل بعض الصراعات الداخلية في دول العالم الثالث .

فـــي نهاية أعوام 80، حصدت الجريمة أرواح حوالي 25 ألف نسمة، معـــدلاتها تفوق كثيراً معدلات بلدان أخرى متقدمة، وإذا كان من المبالغة، الحـــديث هـــنا عـــن عـــنف سياسي بمعنى الكلمة، فإن هذه النسبة العالية، وآثارهـــا البشرية والاجتماعية والاقتصادية، تجعلها من وجوه عدة تقع في المجال السياسي .

الجريمة الاعتيادية، بمعدلات معينة، يمكن أن تكون أداة احتجاج سياسي، أو علـــى الأقـــل، تمـــثل قطيعة مع المجتمع السياسي ومع القيم والمبادئ التي تؤطـــره، الخـــروج عن القانون، ولو في شكل جريمة اعتيادية، يمكن أن يمثل رفض النظام السياسي .

هكـــذا معدلات الجريمة في الولايات المتحدة، بلغت درجة تجعلنا نذهب إلـــى إنهـــا مـــوجهة ضد النظام السياسي، بالخروج عن قوانينه، الخروج عن الـــشرعية ولـــو عـــن طريق جريمة اعتيادية، هو طعن في الشرعية المؤسسة للنظام الاجتماعي – السياسي .

مـــا بـــين وضـــع لـــم يعد بالإمكان تقييمه، على إنه نتاج الجريمة والعنف الاعتـــيادي، وإن لـــم يصر بعد صراعاً داخلياً، فإننا يمكن أن نتحدث عن " صراع إجرامـــي " والـــذي يكـــشف عن شدة ويومية مستوى العنف الذي يتكبده جزء من الأمريكان يتعاظم باستمرار .

- ثقافة العنف :

بالطبع لهذه الوضعية جذور لا يمكن إغفالها، تمجيد العنف واللجوء إلى القوة على إنها فعل مؤسس ورد إيجابي، هو أحد أسس المجتمع الأمريكي، صحيحي في تاريخ الأمريكان القصير، ازدهار البلاد وسمته دائماً فترات عنف، و التي تقود في النهاية إلى " التقدم " .

سواء كان هذا لصالح عمليات البناء الداخلي - حرب الاستقلال حرب الانفصال، إبادة شبه تامة للهنود - لصالح مسيرته نحو الزعامة العالمية - الحرب مع أسبانيا عام 1898، والمشاركة في حربين عالميتين في القرن العشرين - على المستوى الفردي، ظلّ عدد من الأمريكان يحتفظون بنوع من الحنين إلى عصر ذهبي أسطوري (القرن 18 - 19) والذي تمكن أجدادهم، خلاله، من صنع الازدهار والاستحواذ على قارة بواسطة قانون الأقوى وقوة السلاح .

على هذا المحتوى النفسي والتاريخي، الخصوصي جداً، تتكون خلفية ذات سمات تصدم المراقب، والتي في صالح ازدهار مناخ صراعي حاد، بعض النقاط تستحق الإشارة إليها :

- انتشار الأسلحة النارية :

الأمريكان يعيشون في بلد مسلح، لكي لا نقول مفرطاً في التسليح من 200 إلى 300 مليون قطعة سلاح ناري، تتداول بين أيدي 260 مليون نسمة - عدد سكان الولايات المتحدة - ويجري تبرير هذا باسم اديولوجيا ليبرالية مدفوعة إلى حدها الأقصى، امتلاك سلاح ناري هو حق معترف به وفق التعديل الثاني للدستور، هذا البند مدعوماً من نسبة كبيرة من الرأي العام، تجعل كل محاول للحد، مما يظهر لآخرين على إنه بقاء لفلكلور مؤلم، تثير نقاشاً سياسياً حاداً .

هذا الانتشار للسلاح الناري، والذي صار حقاً معترفاً به، تقف وراءه، منذ سنوات طويلة، الرابطة الوطنية للسلاح N.R.A والتي تتكون من 3.1 مليون عضو، قوية بملايين الدولارات في خزائنها، وبشبكة السياسيين المتعاطفين معها،

أو المحتاجـــين دعمها، فإن هذه الرابطة تمثّل اللوبي الأقوى في الولايات المتحدة، ولهـــا ثقـــل انتخابي حاسم، تقليدياً في صالح الجمهوريين إضافة إلى الكمية، هناك نوعـــية الـــسلاح المـــتداول والتـــي تثير الدهشة : بنادق هجومية صينية AK47، مسدسات رشاشة UZI – صنع الكيان الصهيوني – وعدة أسلحة حربية أخرى تباع مـــنذ وقت طويل علناً وبحرية، قبل أن يصدر شبه تشريع – قانون برادي – في محاولة الحد من بيع الأسلحة الاوتوماتيكية الأشد هجومية .

إذا قبلـــنا امـــتلاك أســـلحة شخـــصية للدفاع عن النفس، فإن امتلاك أسلحة هجومـــية لا يمكـــن تبريره، هذا التركيم الذي لا معنى له للسلاح، في فترات سلام ليس إلا مظهراً المستوى العالي للعنف، الذي يشيع في المجتمع الأمريكي .

– تكبد غير متساوي للعنف :

مجتمع حرية، مجتمع متعدد الأعراق، لكن الولايات المتحدة هي، ربما قبل كـــل شـــيء مجتمع اللامساواة، هذه اللامساوة تظهر مدى الحياة وحتى الموت لا مساواة في الحال ولا مساواة في تكبد العنف .

الجـــريمة الصراعية ليست موزعة بشكل متناسب في كل أنحاء البلاد، ولا بين الجماعات، إنها تضرب بعض الجماعات البشرية، وبشكل خاص الأكثر قابلية (السود، الفقـــراء، العاطلون) وبشكل أكثر عمومية الشباب، خاصة منهم من تجتمع فيه الصفات الثلاث المشار إليها، كما لا تلاحظ إلا في المناطق، حيث انحرافات السياسة العمرانية.

فـــي جـــيوب التعاسة والعنف تتراكم العصابات المسلحة، عصابات التهريب مـــن كل الأنواع، والمخدرات، خارج نطاق السيطرة وتنتشر الأوبئة، (إيدز، سل، إلـــخ) وتدمير ا لروابط الأسرية وتفكك التنظيم الاجتماعي، الوضع خطير جداً في هـــذه الجيوب، لدرجة أن بعض البلديات، مثل بلدية واشنطون، لم تتردد في فرض حظر التجول على شبابها، وهو إجراء جدير ببلد في حالة حرب .

إلـــى العـــنف الـــصادر عـــن الشارع، وأحياناً العنف الصادر عن جماعات عرقية، يضاف العنف البوليسي، وما يصاحبه من انتهاكات، وإهانات، وإذلال .

فــي مواجهة هذه " الغابات العمرانية " تكون المقارنة مغرية مع أي منطقة، فــي العــالم، فريسة صراع داخلي، حسب الإحصائيات، الشباب الأمريكان، الذين يعيشون في الأحياء الكبرى يواجهون خطر الموت بسبب رصاصة طائشة، خمسة عشر مرة أكثر من شباب شمال أرلندا .

ملاحظــة رهيــبة يخلــص إليها جي جاكسون، عندما سيعلن " أن الأسلحة الــنارية تقــتل مــن الــشباب السود، في كل السنوات، أكثر ممن قتلتهم المشانق العنصرية منذ بداية التاريخ الأمريكي " .

- عنف معاش يومياً :

بالنسبة لعدد من الشباب، المنحدرين من أوساط فقيرة، الموت العنيف، تبادل إطلاق النار في منعطفات الشوارع، وما يسمى عند آخرين " اشتباك مسلح " يعتبر، فــي غالــب الأحيان، أمر يومي وروتيني (القتل هو السبب الثاني للوفيات بالنسبة لمن عمرهم 15 – 24 سنة، والسبب الثالث لمن عمرهم 5 – 14 سنة) .

لكــنه حذث مجد من خلال التعامل معه في وسائل الإعلام المرئي، دراسة أجــرتها جامعة ولاية واشنطون، نشرت عام 1993، قدرت أن الشاب الأمريكي، مــستهلك متوسط للتلفزيون، يشاهد حتى الثامنة عشر من عمره 40 ألف حالة قتل علــى الشاشة الصغيرة في صورة مسلسلات وأفلام أو نشرات إخبارية، وهذا يعني عملــية تطبــيع مع الموت العنيف أكثر درجة مما عند شخص منخرط في حرب حقيقــية، أن المقاتــل فــي الحرب يشاهد حالات قتل أقل مما يشاهده مراهق على الــشاشة الصغيرة، هذا الواقع السيئ ينعكس في أن عدداً من الأطفال، يذهبون إلى المــدارس حاملــين أسلحة نارية، على أمل حماية أنفسهم من الخطر المتربص بهم "عــصابات .. حشيش" أو تأثراً بما يشاهدون على الشاشة الصغيرة، والذي يقودهم أحياناً إلى استعماله في حسم خلافاتهم الصبيانية .

- صعود اللاتسامح :

وقــتاً طويلاً بلد التسامح، الاستقرار، الازدهار، في عيون ملايين الأشخاص

فـــي العـــالم، فإن الولايات المتحدة اليوم تعطي انطباعاً بأنها واقعة في دوامة من الكراهية، المؤدية إلى مناخ ريبة نحو كل شكل من أشكال الآخر، سواء أكان الآخر عـــرقاً، أم ديـــناً، أم لغـــة أم جنساً، مع اقتراب القرن القادم دينامكية الاندماج أو الـــدمج، والتـــي حتى الآن حولت موجات المهاجرين، من كل الأعراق، ومن كل الأصول، والأديان، إلى مواطنين أمريكان، فخورين بعلمهم ودستورهم، تبدو اليوم قد فقدت فعاليتها .

المظاهـــر العينية لهذه الظاهرة – تعطل ديناميكية الدمج – تختلف من ولاية إلـــى أخرى في كاليفورنيا مثلاً، حيث يتفوق البيض الانجلو ساكسون البروتستانت Wasps ن يـــبدو هـــذا التفوق السكاني مهدداً من خلال النمو السكاني لمن هم من أصـــل لاتيني، أدى هذا إلى تنديد البيض الانجلو ساكسون البروتستانت (وازيس) بالهجـــرة اللاتينية، التي هي في بعض الأحيان سرية أو غير شرعية، وإلى تبني، مـــن خلال استفتاء، قانون 187، هذا القانون لا يتردد البعض في النظر إليه على إنه عنصري، تمييزي، ونقيضاً للقيم الديمقراطية التقليدية الأمريكية .

في كل أنحاء الاتحاد مؤشرات صعود التوتر العرقي، بمعنى الكلمة، توتر : بين البيض واللاتين، بين هؤلاء والسود بين هؤلاء والآسيويين ..... إلخ.

فـــي نيويورك، وفي شيكاغو، تصدع عملية الدمج تأخذ، في الوقت الحالي، شكل جفاء عنيف، لازال في مستواه الشفوي بين السود واليهود .

البلاد تضطرب، بشكل خاص، ومتزايد الوضوح، من خلال الاحتكاكات بين الجماعات العرقية، والتي تقود إلى رفض الآخر وإلى نوع من " القبلية " الحاد.

انعكاسات المحاكمة الأكثر إعلامية، محاكمة أو ج سمبسون، تأثيرات مسيرة الملـــيون رجـــل، 16 / 10 / 1995 فـــي واشنطون، محاولات الطعن في مبادئ التمييـــز، أو الجدل الناتج عن نشر لبعض المؤلفات الاستفزازية، تجعلنا ندرك حجم الهوة النفسية التي تفصل كل يوم أكثر، بين البيض والسود .

إذا كـــان السبب الكافي وراء هذه العداءات، هو في غالب الأحيان ذا طبيعة

عــرقية، إلا أنهــا يمكــن أن تنطلق، في حالات معينة، من اتخاذ موقف أو سلوك أديولوجي قطعي، مثال جيد على هذا نجده في موجة أعمال العنف المرتبطة بمسألة الإجهاض، والتي أدت، عدة مرات، إلى اغتيال الأطباء الممارسين له .

هــذه الاغتــيالات بعــيدة جداً عن كونها جريمة الحق العام، والرجعة إلى فولكلــور أمريكــي دامٍ بــشكل خاص، يمكن النظر إليها على أنها أعمال سياسية حقيقية، القتلة والضحايا يتصرف كل منهم باسم التزام أديولوجي شخصي متناقض تماماً مع الآخر .

أخــذاً فــي الاعتبار المحتوى المولّد للعنف الذي يعيش فيه الأفراد، وانتشار الـسلاح الـناري نوعاً وكمًّا، ليس هناك ما يدهش أن أي شخص يشعر إنه مكلف بمهمــة مقدســة، ينطلق في حرب صليبية شخصية ذات صبغة أخلاقية أديلوجية، ويغــرق فــي محــيط العنف المسلح، هذه الظاهرة تسمى في بلدان أخرى حركات زندقة أو أصولية دينية .

مــسألة أن نقاش أو جدل حول بعض القيم، أو حول خيارات حياة يقود إلى تفجر العنف، هي دليل على أن المجتمع الأمريكي لم يصل إلى درجة النضج .

هــذه القابلية للجوء إلى العنف، وأداء الكيان الاجتماعي من خلال عدد كبير مــن الجماعات ذات الطبيعة المختلفة والمصالح المتناقضة، والسلوك المفرط في اللاتسامح، بل وحتى المتعصب، هي أمور مقلقة جداً .

صــحيح الــولايات المــتحدة لــم تغرق بعد في النار والدم، إنها تملك عدة إمكانــات تتــيح لهــا تأطير وتحفيف حدة هذا العنف، لكن إذا كان على البلاد أن تواجهه يوماً، فإنّ وجود عدد هائل من الجماعات المسلحة، شرعية وغير شرعية، يمكنه أن يشكل تحدياً جدياً لاستقرار وأمن البلاد، وخطراً على وحدتها .

- الجماعات المسلحة :

إحدى السمات الأخرى التي تسمح بطرح مناخ شبه صراعي، على الأقل في

بعـــض أجزاء الولايات المتحدة، هي كثرة المنظمات المسلحة، سواء كان ذلك بعلم السلطة وبفضل تسامحها، أم أن السلطة تقاتلها .

هـــذه المـــنظمات ذات طبيعة مختلفة جداً، من حيث تجنيد عناصرها، ومن حيث الغايات، يمكن مع ذلك أن تميز ثلاثة أنواع كبرى من بينها :

1 ـ عصابات المدن :

في كل المدن الأمريكية الكبرى يوجد ما يمكن تسميته " عصابات الشوارع " مـــثلاً مدينة لوس انجلوس يوجد بها حوالي ألف عصابة ومن كل الأشكال (متعددة الأعـــراق، بـــيض، سود، لا تين، اسيويين ...) تضم حوالي 140 ألف عنصر – بالمقارنة بوليس المدينة حوالي ثمانية آلاف عنصر .

عندما نجري عملية حسابية بسيطة، فإن رقم العصابات في الولايات المتحدة سيكون مذهلاً .

هـــذه العـــصابات، ذات النـــشاطات – فـــي الغالب – إجرامية تؤدي ثلاث وظائف:

مرجعية هوية بديلة : بالنسبة لجمهور الشباب، في أزمة نفسية، بسبب تدمير روابطهـــم الأســـرية (انتـــشار الأسر وحيدة العائل) وتعرضهم للبطالة، وغياب الحماية الاجتماعية، وتمزقات مراكز المدن ... الخ الانتماء للعصابة. هنا بديل عن الأسرة، وطلب حماية في غياب الضمان الاجتماعي .

فاعل اقتصادي من الدرجة الأولى بالنسبة للغيتو العمراني إنها تمارس جزءاً نـــشطاً فـــي عدة أنواع من التهريب، أولها الحشيش، والذي يتيح لهذه المشروعات الإجـــرامية، أن تـــسد جزءاً من حاجات أعضائها الأساسية، وأن تلعب هكذا دوراً اجتماعياً في خدمة جماعتها الصغير (أحياء، شوارع، عمارات سكنية) وأن تملأ فراغاً جزئياً ولا مباشراً في غياب الخدمات الاجتماعية .

قـــوة شبه عسكرية أحياناً مسلحة جداً تسيطر على مناطق وتحمي جماعتها من مطامع العصابات الأخرى، ولو أن هذا يؤدي أحياناً إلى مواجهات دامية.

هــذه الوظائــف تبــرز الدمج الحادث بين النشاطات الإجرامية والخدمات الاجتماعــية، والهوية المرجعية، وكلما غابت الدولة وتقلصت خدماتها الاجتماعية، فإن هذا يكون لصالح توسع العصابات، وتحولاً إلى بديل عن الدولة .

لهذا السبب لم يعد بالإمكان الحديث عن عنف إجرامي فقط، بسبب أن تجنيد عناصــرها يجري أحياناً على أساس عرقي، وأن ترسانتها أحياناً تثير الدهشة، فإنَّ هــذه العصابات تنخرط ضد بعضها البعض، وضد البوليس، في شكل حرب مدن صغيرة ذات سمات عرقية .

الانــتماء إلــى جماعــة وإلــى منطقة محدد بدقة، يمثل إحدى أنماط الأداء الأساســية لهذه العصابات، هذا البعد العرقي – الهوية – يظهر من خلال الأهمية المعطاة للمظهر المرئي للأعضاء (ارتداء ملابس ذات نمط ولون خاص) وبعض الطقــوس المفروضة على الجدد (ضرورة البرهنة للآخرين على سمعته وشجاعته مــن خــلال غــارات علــى أراضي معادية بهدف رش عصابة معادية، أو قتل بالصدفة، ضحايا أبرياء وجدوا في وقت ومكان غير مناسبين .

حرب الشوارع اليومية هذه، العنيفة، يمكن أن تقود إلى أشكال عنف أخرى: مثل الاضطرابات التي هزت في الثلاثين سنة الأخيرة "وات" عام 1965، "ديترو ا" 67 "ميامي" 1990 "لوس انجلوس" 92 .

مــثل هــذه الاضطرابات التي تشير إلى تفجر العنف الاجتماعي، وخاصة العرقي، أدت في كل مرة إلى سقوط عشرات الضحايا ومليارت الدولارات خسائر، وتطلبت ضرورة تدخل الجيش لمساعدة قوات البوليس التي تجاوزتها الأحداث، من أجل إعادة النظام .

هكــذا صــور عدة، وتحيلنا إلى صور صراع داخلي في أي بلد من بلدان العالم الثالث .

2 - الميلشيات شبه العسكرية :

نقيض حقيقي لعصابات المدن، المليشيات شبه العسكرية تجند عناصرها من

بين أمريكا البيضاء، الريفية المسيحية، المتشبعة (بفضائل الأخلاق والاحترام للنظام) .

هذه المليشيات ترجع أصولها إلى ميليشيات المواطنين التي تكونت خلال حرب الاستقلال، ثم صارت قانونية - شرعية - بعد تبني التعديل الثاني للدستور عام 1791، و الذي، إضافة إلى إقرار حق حمل السلاح، نصَّ على أن " ميلشيا منظمة جداً هي ضرورية لأمن دولة حرة " .

كفى عليها الزمن في مجرى الأيام، إلا أن أسطورة المليشيا عرفت بعثاً حقيقياً في بداية أعوام 1990، هذا الانبعاث يمكن تفسيره من خلال إعادة تجديد اليمين المحافظ جداً في أمريكا، وأيضاً من خلال ردة الفعل الغاضبة، من الطبقة الوسطى الأمريكية، ضد محاولات السلطة تجاوز التعديل الثاني للدستور، والذي تمثَّل في تبني قانون برادي عام 1994، والمتعلق بالحد من حمل بعض أنواع السلاح .

مليشيات جديدة بدأت تتشكل في كل البلاد، وجودها في بعض الولايات أكثر من غيرها (كاليفورنيا، أرزونا، تكساس فلوريدا، كولورادو، ميتشجان، أوهيو، واشنطون) إلا أن مجموعها في كل الولايات المتحدة يبلغ 858 منظمة وطنية، حسب معلومات شبه عسكرية، البقية وهي 488 تكوّن زخماً وطنياً ذا نشاطات متعددة : بث إذاعي منشورات ضد الحكومة، محاكم القانون العام، طوائف وكنائس مستقلة، أعضاؤها وفق المصادر الموثوقة يقارب عددهم 150 ألف عنصر من النشطين، دون الأخذ في الاعتبار مئات الآلاف من المتعاطفين والمؤيدين، أشهرها ميلشيا أقليم شمال ميتشجان، التي تأسست في إبريل 1994، على يد الباستور نورمان أولسون - (باستور راعي أوقسيس) - والتي تتكون من 123 ألف عنصر يتوزعون في عدة ولايات ثم مليشيا مونتانا تروشمان mom واليت تأسست في فبراير 1944 على يد الإخوة تروشمان - جون، دافيد، وراندى - يقودها بوب فليتشر، ويعتقد لها رافد في كندا .

الولع بهذا الشكل الجديد من " المدينة " يعطي مشهداً غريباً لجمهرة من

المواطنـــين الـــصالحين، المنحدرين، أحياناً من أوساط غنية، والذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع، في لباس عسكري، ويتدربون على فنون حرب العصابات، وتقنيات الحفاظ على الحياة، والتي اعتبرت زمناً طويلاً تراثاً فولكلورياً للأمريكان الأوائل.

هــذا الانجــذاب القــوى نحو التشكيلات شبه العسكرية آثار قلق العديد من الأمـــريكان، خاصـــة عندما تبيّن أن القائم بعملية "أوكلاهو ماسيتي"، كان عنصراً منحدراً من مليشيا ميتشجان .

هكـــذا اكتشف الأمريكان وجود وفعالية زخم من المضادين، حيث المليشيات شبه العسكرية ليست إلا الجزء المنظور منه، عدة قنوات (انطواء، أفكار، تمويل، دعـــم سياسي) توجد بين ميلشيات يوم الأحد هذه، وبين حركات ضد – الضرائب – مثل حزب دافعي الضرائب – وجماعات ضد – الإجهاض، والمتعصبين لحرية حمـــل الـــسلاح، وطوائـــف أصولية مسيحية، وتشكيلات عنصرية تدعو إلى تفوق العنصر الأبيض، وبعض العناصر المحافظة المتطرفة من الحزب الجمهوري، إنه الأبـــيض، وبعض العناصر المحافظة المتطرفة من الحزب الجمهوري، إنه بشكل عام ما يمكن تسميته حزب أمريكا البيضاء .

هـــذه الحـــركات والمنظمات فريسة ما يسمى في أماكن أخرى " عقدة دونية الأغلبـــية" تجـــد نفسها سجينة أيديولوجيا مشوشة، جوهرها بشكل عام ضد الاتحاد الأمريكـــي، هذه الإيديولوجية الممكن دعوتها " الأميركانية أو المذهب الأمريكي " تقـــوم علـــى خلـــيط من شروح الإنجيل القديم – العهد القديم – وليبرالية شعبوية متطـــرفة، وخـــوف مرضي مصبوغ بضد السامية وعنصرية تستعيرها أحياناً من جماعة كوكلوس كلان، وأحياناً من الحركة النازية الجديدة .

عملـــياً هذه الإيديولوجية تترجم في رفض حاد للحكومة الفيدرالية، المتهمة بانتهاك الحقوق الدستورية للمواطنين، والتنديد بقانون برادي حول الأسلحة النارية، والتـــنديد بالإرهاب الفيدرالي الذي تمثل في عدة تدخلات دامية من طرف F.B.I – مكـــتب التحقيقات الفيدرالية، ومن قوات الأمن الأخرى، واشنطون متهمة بأنها تبيع الـــبلاد إلـــى السود وإلى اليهود – التنديد بتواجد منظمة بأنها تبيع البلاد إلى السود

وإلـــى الـــيهود – التـــنديد بـــتواجد منظمة ZOG الصهيونية في كل مكان) وأن واشنطون تتحلى للعولمة وللأمم المتحدة عن إدارة شئون البلاد .

ممتلئـــين حماساً ضد الاتحاد، عشرات الألوف من الأمريكان يعيشون هكذا علـــى هـــامش المشروعية، ويمارسون يومياً أعمال العصيان المدني : رفض دفع الضرائب، رفض حمل بطاقات هوية، استخدام سيارات بدون لوحات ... الخ .

أمـــريكا هـــذه، أمـــريكا السلاح الناري، وتفوق البيض، أفرزت بالتدريج، وبـــشكل شـــبه سري ثقافة فرعية خاصة، تظهر في ملابسها الخاصة، وموسيقاها، وصـــحافتها، مثل جندي الثروة، ومرجعيتها الثقافية والأدبية، ومنظريها، وشهدائها (مثل دافيد كوريش رئيس إحدى الطوائف)، أعدائها F.B.I ،وخاصة عناصر مكتب الكحـــول والتـــبغ والأسلحة النارية ATEF، والذي يطلقون عليه جستابو الأسلحة الـــنارية، ولهـــا مواقعها على الانترنت، التي تتيح لها نشر دعايتها ضد الحكومة، وأحياناً كيف تصنع قنبلة يدوياً .

على شاكلة عملية أو "كلاهما"، مستعدون للقيام بأعمال عنف ذات بعد كبير، وهـــذا يـــشهد علـــى صعوبات الحياة التي تواجه عدداً يتعاظم من أمريكان الطبقة الوسطى، في عالم مفرط السرعة بالنسبة لهم .

شـــعبية أســـطورة المليشيات تشهد على الهوة الفاصلة، والتي تتعمق وتتسع باســـتمرار، بـــين جمهـــرة تـــزداد عدداً من المواطنين البسطاء، وبين السلطان – الفيدرالي – البعيد، والمنظور إليه على إنه معادٍ .

المليـــشيات إلـــى وقـــت قريب، ظاهرة خاصة بالبيض، أو خاصة بالطبقة الوسطى والصغرى من البيض، لكن الولع بالمليشيات بدأ بتسرب إلى السود، على شاكلة " مليشيا درتو الدستورية " والتي يقودها كليفورد بروكانز .

لـــيس فـــي هـــذا ما يستوجب الدهشة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الإيديولوجيا الداعية إلى تفوق البيض، والسلوك المعادي للسود فإن ردة الفعل عند السود ستكون تشكيل مليشياتهم المهمة وبما تكون سهلة : تجول العصابات إلى مليشيات .

- حركات الهوية :

أخــذاً فــي الاعتــبار والتنوع الكبير لسكانها، وأصولهم المختلفة وتاريخهم ومعــتقداتهم المختلفة تخفي شبح حركات مطلبية، التي في لحظة أو أخرى أغراها النــضال المسلح، سنوات 70 تمثّل في هذا الصدد العصر الذهبي للعمل النضالي، عدد من هذه الجماعات هي الآن في غفوة، البعض ما زال نشطاً وأن كان مهمشاً .

1- الاستقلاليون البورتوركان :

عدة جماعات مارست في أعوام 70 – 80، الكفاح المسلح من أجل استقلال بورتوريكــو، اســتهدفت قواعد عسكرية ومقار إدارية أمريكية في الجزيرة نفسها، لكــنها عملــت أيــضاً داخــل الــولايات المــتحدة نفسها، مستندة إلى المهاجرين البرتوريكان خاصة الذين يقيمون في المدن الكبيرة للساحل الشرقي – نيويورك ... شياكغو ... الخ – الحركة الأكثر أهمية كانت حركة " قوى التحرر الوطني FALN ، قامت بأكثر من 200 عملية من 1974، حوالي خمسين عملية منها في نيويورك أدت إلى عدة قتلى وحوالي 200 جرحى .

جماعات أخرى ظهرت في الجزيرة .

هــذه الجماعــات لم تعد نسمع عنها منذ نهاية عام 1980 لكن ابنعاثها يبدو دائماً ممكناً .

2- الشيكاغو :

عــدة جماعــات ظهــرت فــي كاليفورنيا، بهدف الدفاع عن حقوق المهاجــرين المكــسيك، ومساندة استقلال بورتوريكو هذه الحركات لم تحظَ بــدعم كبيــر من الجماعة اللاتينية، لكن قدوم أجيال جديدة من المهاجرين، مــن بيــنهم عــدد كبيــر من أمريكا الوسطى، الأكثر تسيساً من المكسيك، ورفــض الكاليفورنيــين البيض للنمو السكاني اللاتيني، والتطرف المرتبط بقانــون 187، يمكــنه أن يقــود إلى ظهور جيل جديد من الجماعات ذات المطالب، والعودة إلى العمل العنيف .

3- متطرفو اليسار :

عــدة جماعات يسارية، شملها إطار مقاومة حرب فيتنام، تحولت إلى العمل المــسلح في أعوام 70، 80، منها جيش التحرير، الذي ظهر في كاليفورنيا، بداية عام 70، والذي اشتهر بخطف ابنة إعلامي أمريكي شهير .

جــبهة الحرية المتحدة، التي نشطت في نيويورك المقاومة الحمراء، جيش المقاومة المتحدة، بداية 80 وقوة الثورة المسلحة .

هــذه الحــركات يبدو أنها في غفوة منذ بعض الوقت، لكن أخذ في الاعتبار المناخ الصراعي، وصعوبات الحياة المتزايدة، فإن عودتها للنشاط ليست مستبعدة .

- حركات السود :

حــركات العــنف الــسوداء عرفت أيام مجدها في سنوات 60، مع حركة المــسلمين الــسود B.M.M (حــركة عنصرية ضد البيض ذات توجه إسلامي) ومــنظمة الــوحدة الأخروأمــريكية ن التي أسسها مالكوم × عام 64 عقب خلافة واشقاقه عن B.M.M، وخاصة حزب الفهود السود الذي ظهر عام 66 والذي يضم أكثــر من 2000 مناضل، دون أن ننسى جيش تحرير السود والقريب من حركات اليــسار المتطرف التشكيلات تأثرت بالنضال ضد الاستعمار الذي جرى في أفريقيا خــلال أعــوام 60 - 70، هدفها المشترك الكفاح ضد هيمنة البيض بعضها داعية أحياناً حلم إنشاء دولة سوداء مستقلة، ابتداءً من بعض ولايات الجنوب في الاتحاد.

الحــركة المسلحة السوداء تفككت خلال أعوام 70، إذ لم تتمكن من ترسيخ أقــدامها بين الجماعة السوداء - حوالي 33 مليون لكن هذا الإرث النضالي تتبناه اليوم عدة عصابات سوداء، في محاولة تشريع أعمالها الإجرامية .

تحت ستار مرجعيات هوية، الخطاب الجذري الأسود استعادته اليوم حركات أكثر انضباطية، مع أن خطابها الشفوي ما زال متطرفاً، منها حركة أمة الإسلام.

زمــناً طويلاً مهمشة، أمة الإسلام في طريقها إلى أن تحتل مكانة مهمة بين جماعــات السود، هذه الأهمية ترجع إلى فشل عملية الدمج، وإلى القلق الذي يثيره

مـــا يدعـــو إلـــيه بعض البيض ا لمتطرفين، من تقليص نفقات الصحة وإلغاء نظام المساعدات الاجتماعية، بين 33 مليون أمريكي أسود .

صـــورة ترتـــسم مـــن خلال ما تناولناه فيما سبق، وأن كانت غير واضحة المعـــالم، إلا إنهـــا تتـــراءى بشكل يسمح ببعض الاستنتاجات التي تساعد في رسم الشكل الذي سوف تتخذه .

أولاً : العنف أمر لا يناقش أحد في واقعيته، الولايات المتحدة مجتمع عنف، والذي يظهر من خلال الولع بامتلاك السلاح الناري، سواء كان هذا بسبب الخوف، أو طلـــب الحمايـــة، أو بدوافـــع عدوانية، كما تشير إليه أعداد القتلى والاشتباكات المسلحة، العنف يبدو مع ذلك مرتبطاً، إلى حدّ ما، بالجريمة عصابات، تهريب، أو إنه حنين إلى ماضي مارس فيه الأمريكان العنف من أجل تثبيت أقدامهم في القارة.

ثانياً : إن العنف ليس فقط مسألة فردية تجري اعتباطاً وتشير إلى جنوح، أو انحرافات كان ذلك في عصابات أو مليشيات، خارج الشرعية وأحياناً ضد الشرعية القائمة .

ثالثاً : منظمات وحركات العنف سواء عصابات أو مليشيات بدأت تأخذ شيئاً فشيئاً سمة عرقية، وإذا كانت مليشيات البيض تبلغ 858، وتضم 150 ألف عنصر، إلـــى جانـــب المـــؤيدين والمتعاطفين، فأن العصابات في مدينة واحدة، مثل لوس انجلـــوس تفـــوق الألف، وتضم 140 ألف عنصر، وإذا كانت هذه لا تقتصر على السود، فإن عدد عصابات السود و ذوي الألوان، غير البيض، تمثل ثقلاً مهماً .

رابعاً : مليشيات البيض أدت كرد فعل إلى ظهور مليشيات السود، هذه تملك رديفاً مهماً وبنية تحتية توفرها لها خبرة العصابات، وشبكاتها .

خامساً : المصاعب الاقتصادية، وتقليص المساعدات والخدمات الاجتماعية، وتدميـــر العلاقـــات الأسرية، يقود إلى فراغ لن تتأخر العصابات في ملئه، فيختلط العنف الإجرامي بالعنف السياسي .

لـــنا إذن أن نتصور نتاج كل هذا على مستوى الاتحاد، الصورة هكذا يمكن

أن تتــضح كاشفة عن معسكرين، يتواجهان، من خلال تنظيمات تغرق شيئاً فشيئاً في العرقية .

- بالنــسبة للسود، العصابات تمثّل مرجعية هوية، وحماية وملأ فراغ، ولو نسبي، في غياب المساعدات الاجتماعية وتقليص خدمات الدولة .

أمـــا العــصابات فإنّ ما تقدمه من خدمات اقتصادية وأمنية تهدف منه في البداية إلى خدمة أغراضها الإجرامية، لكن ليس من المستبعد أن يجري التحول إلى هــدف اجتماعي غرقي، خاصة مع ظهور حركات ليست أصلاً إجرامية، ودخول عناصر جديدة دوافعهم ليست إجرامية .

أضـــف إلى هذا العنصرية المنبعثة، سواء أكانت قديمة، أم بسبب الظروف الاقتصادية، التي تزداد سوءاً بالنسبة لأغلبية السود والملونين، وحتى بالنسبة للطبقة الوسطى البيضاء، سوف تدفع السود، من خلال تنظيماتهم إلى الرد على العنصرية بالعنصرية .

- بالنسبة للبيض، عقدة دونية الأغلبية المتحولة إلى عقدة تفوق، الخوف من الانفجار السكاني بين السود والملونين .

في ظروف اقتصادية بالغة السوء، فإن تنظيماتهم، وإن كانت ما زالت تحمل شــعارات ليست عنصرية خالصة، مثل ضد الفيدرالية، حرية حمل السلاح، إلا أن النزعة العنصرية ضد السود والملونين أخذت تتغلب .

هــذه الوضعية ليست مرشحة للتغيير، مع تدني ظروف المواطنين العاديين، ســواء البــيض أو ســود أو ملونين ومع انسحاب الدولة مع الخدمات الاجتماعية، وبــسبب الدعايــة التي أخذت تنتشر في كل معسكر، فإنّ الخوف مع الآخر سوف يدفع بالمزيد من الأفراد إلى حسم أمرهم، والانطواء تحت راية أحد المعسكرين .

مــنذ الــيوم ثمة من يتحدث عن أمريكا البيضاء، وأمريكا السوداء وأمريكا الملونين ... هل هذا سبق لما سوف تؤول إليه ؟! .

إنّ الــولايات المــتحدة فــي حاجــة إلى معجزة لكي تتفادى المواجهة لكن

الرأسـمالية المعولمة ربما لم يعد يعنيها أن تحدث المواجهة أولاً تحدث، لما كانت تسعى لامـتلاك العالم، فإنّ بقاء الاتحاد الأمريكي أو تفككه، أمر لا يضيرها في شيء هكذا العولمة يمكن أن تكف يد الدولة الاتحادية، وحتى الولايات، عن محاولة عـلاج الأمر بالعودة إلى دولة الخدمات وبتقوية الرباط السياسي لإضعاف الرباط العرقي – الاجتماعي .

لسنا نجـزم بـشيء، لكن ماضي المستقبل يتحقق أمامنا، يكاد ينطبق بما سوف يكونه .

الولايات المتحدة :

السكان : 260 مليوناً .

التكوين العرقي : 73% بيض .

10% أسبانوفون .

12.5% سود .

3.3% آسيويون .

0.8% هنود أمريكان .

الأديان : بروتستان 56%

كاثوليك 28%

يهود 2%

آخرون : 14%

المـراجـع

1- قاموس الصراعات

ميشالون 1999 باريس

ص 217، 226 .

2- حالة العالم 2000

لا ديكوفيرت 1999 باريس

ص 370 - 376

3- سكان العالم س بروك

دار التقدم، موسكو 1983 .

ص 493، 500 .

4- أمريكا كلينتون نيكول برنهايم

ليوكومون 1993 باريس

5- الولايات المتحدة طليعة الانحطاط . قارودي .

فنت دولارج 1997 .

الطبعة العربية ترجمة وتقديم د. رجب بودبوس .

6- اللوموند: 28 مارس 1997 .

اللموند : الابن الإرهابي 1 أبريل 97 .

اللموند: أمريكا وقلق الإرهاب 30 / 12 / 99 .

اللموند: الولايات المتحدة قوة عظمى تنهار 3 أغسطس 1999

الفصل السادس

الأكراد: مأزق الدولة الوطنية

يـــنحدر الأكـــراد من سلالة الأقوام الرعوية، التي تقيم، من زمن طويل في المـــنطقة الـــواقعة من بين القوقاز والخليج العربي (400 ألف كم^2)، علماء السكان يجعلونهم أقارب الميديين، الخصوم التقليدين للفرس .

بـــلاد الأكـــراد، أوكردســـتان، لم تكوّن أبداً كياناً سياسياً موحداً حتى القرن التاســـع عـــشر، لكـــن أمـــراء الأكـــراد استطاعوا التمتع بحكم ذاتي موسع داخل الإمبراطورية العثمانية والفارسية، كردستان آنذاك كانت مقسمة إلى عدة إمارات.

فـــي بداية القرن 19، جماعات من الأكراد هاجرت من إيران واستقرت في كردســـتان العراق، وفي طول هذا القرن عرفت التطلعات الوطنية الكردية، تطوراً تدريجياً، لتصل ذروتها في نهاية الحرب العالمية الأولى .

فـــي 10 أغـــسطس 1920، أقرت المعاهدة الدولية – اتفاقية سيفر – إنشاء كردســـتان مـــوحد شمال ولاية الموصل الفنية بالنفط ولكن بعد ذلك بسنتين، اندلاع حـــرب الاســـتقلال 1919 – 1923، بقـــيادة مصطفى كمال – اتاتورك 1881 – 1938 – والتي شارك فيها أكراد الشمال بنشاط، أدت إلى توقيع، بين قوات الحلفاء وحكـــومة أنقرة اتفاق، والذي يلغي بنود معاهد سيفر، إنه اتفاق لوزان عام 1923، 24 يولـــيو والذي بمقتضاه استعادت تركيا كل آسيا الصغرى، والاعتراف بسيادتها علـــى الجـــزء الأكبـــر من كردستان في عام 1921، قوة الحماية الفرنسية دمجت مقاطعـــات كـــردية من الجزيرت وكردداق في سوريا، كما ألحقت بريطانيا ولاية الموصل بالعراق .

مـــنذئذ اتفاقـــية لوزان أدّت إلى تشتيت ما يقارب من 25 مليون كردي بين خمس دول، خالقة هكذا خمس أقليات .

الوطنـــيات الكـــردية، بتعابيـــر وأهداف متنوعة، حسب الدولة التي تنهض ضدها، شكّلت منذئذ مشكلة سياسية كبرى، خاصة في تركيا وإيران العراق .

1- تركــيا :

تمــثّل المسألة الكردية، بدون أدنى شك، المشكلة الأكثر تعقيداً والأشد، التي تواجهها الدولة التركية، والتي تضع موضع سؤال ليس فقط استقرارها، وإنما أيضاً هويتها، وأساسها وسبب وجودها.

تأســيس الدولـــة، على يد كمال أتاتورك، استند إلى رؤية متناقضة مع الواقع الكردي.

الأكـــراد، فـــي نظر الكمالية، عقبة في طريق إنجاز الدمج الوطني وتحقيق الانـــسجام الداخلـــي، وعنـــصر شرقي، إذن رجعي، يعيق عبور تركيا إلى مرحلة الحـــضارة، كثيرون في تركيا، حتى اليوم يرون في الاعتراف بالمطالب الكردية، توجيه ضربة قاتلة لتركيا .

تاريخ تركيا الحديثة موسوم بفترات صراع، منذ سنوات العشرين، بين السلطات التركية والمدافعين عن الهوية الكردية، والتي أدت إلى موت حوالي 20 ألفاً .

خـــلال حـــرب الاســـتقلال 1919، 1923، التي أعقبت الحرب العالمية الأولـــى، طلب مصطفى كمال دعم زعماء الأكراد، وأغراهم بوعد تكوين دولة إسلامية مؤسسة على الإخوة الكردية والتركية دولة إسلامية، إذن تتجاوز الهوية التـــركية والكـــردية، بدت للأكراد المسلمين مقبولة، فلم يدّخروا جهداً في دعم حرب الاستقلال .

لكـــن الانتصار الذي حققته الجمهورية أدى إلى تجاهل هذه الوعود: أقيمت إدارة عـــسكرية فـــي المـــناطق الكردية، وجرى نفي إعداد كبيرة من السكان، كما حظـــرت الـــثقافة واللغـــة الكـــردية وهـــذا أظهـــر دولة أتاتورك أقل علمانية من الإمبراطورية العثمانية .

بـنود اتفاقـية سـيفر، والتي تفترض عام 1920 بداية الحكم الذاتي لأكراد تـركيا، جـرى إلغاؤهـا بواسطة اتفاقية لوزان عام 1923، هذه الآمال الضائعة، والوعـود الزائفة فتحت الأبواب على سلسلة من الانتفاضات الكردية، التي بالطبع جرى قمعها بقسوة .

الأزمـة خطيـرة، لأنة في تركيا وحدها يوجد حوالي 50% من مجموع الأكـراد أي حوالي 12 مليون كردي من 25 مليون واحد من كل خمسة، من سـكان تـركيا، هـو كردي هذه الأرقام تكشف أهمية المسألة الكردية، ومأزق الدولة الوطنية التركية .

تطـورات الوضع في كردستان تركيا، بعد موت أتاتورك تشير إلى تقلبات الحـياة الـسياسية، فتداولت فترات الهدوء أثناء فترات الانفتاح والديمقراطية، مع فتـرات عودة القمع في أعوام 70، ضعف الدولة، وشيوع حركات المعارضة، كانا في صالح المقاومة الكردية، تدمير المجتمع بسبب الحركة العمرانية وحراك سكاني مهـم، مصحوباً بخطاب ماركسي، زاد في حساسية الوضع وأدى إلى ولادة حزب العمال الكردي PKK عام 1979 .

تحـت تأثير الوضع الكردي، تخلط أيديولوجيا الحركة صراع الطبقات وهو مفهـوم ماركسي – مع الصراع الوطني الكردي، وهو مفهوم مناقض للماركسية، وبدفع من قائدها – عبد الله أوجلان – فإنّ الحركة أخذت تدعو إلى الكفاح المسلح، واللجـوء إلـى العمـل العنيف ضد أجهزة الدولة، والذي يبدو، في نظر السلطات التركية، إرهاباً .

الحـركة الكـردية كانـت بالطبع أول ضحايا موجة المحاكمات، التي تلت وصـول الجنـرال ايفلين إلى الحكم عام 1980 منذ عام 1981، عدد من قياداتها قدّموا للمحاكمة .

المـسألة الكـردية، ومـا تمثله من تهديد جدي لكيان الدولة الوطنية ليست غـريبة عن الوضعية الشاذة التي عليها الجيش التركي، والذي، الوحيد في العالم، علـى الأقـل الغربـي، يحـتفظ دسـتورياً من حلال مجلس الأمن الوطني، بعدة

صـــلاحيات سياســـية، والتـــي تبدو متناقضة مع البينة المزعومة ديمقراطية، ومع علمانية الدولة.

لكـــن إذا كانت المسألة الكردية وتقلباتها تدفع بالجيش إلى التدخل السياسي، وإلـــى اســـتلام زمـــام المبادرة ضد الحركات الكردية فإن هذا القمع يزيد في تفاقم الأزمة، هكذا يبدو العنف دائرة مغلقة .

بـــسبب أســـاليب المحاكمـــات القمعية وانعكاساتها على السكان صار وضع حزب العمال الكردي PKK حرجاً، أضف إلى هذا التنافس الذي يجعله في مواجهة مع منظمات كردية أخرى، دوامة العنف هذه أضرت بشعبيته .

ابـــتداء مـــن 1984 أخذ الجنوب الشرقي لهضبة الأناضول يشتعل في عام 1987، إحدى عشر مقاطعة كردية وضعت تحت الحكم الاستثنائي .

خـــوفاً مـــن أن تقطع عن قواعدها، وفي مواجهة الغضب المتنامي، بسبب عملـــياتها العـــشوائية، أعـــادت مـــنظمة الحزب PKK، النظر في استراتيجياتها، واخـــتارت العمـــل العـــسكري المحـــدد الأهداف، جاعلة هدفها المؤسسات الممثلة لـــسلطان انقـــرة، فـــي نفـــس الوقت سعت إلى إعادة ترسيخ قواعدها بين السكان، وصـــبغت خطابهـــا بلـــون إسلامي، وهذا يمثّل تنازلاً اقتضاه الوضع، لأن السكان المـــسلمين أكثر استجابة لخطاب إسلامي منهم لخطاب ماركسي، كما لا يستبعد من هـــذا تأثيـــر الدعم المتعاظم الذي تحصل عليه المنظمة من جمهورية إيران، والتي تقلقهـــا الـــتطلعات الإقليمـــية عند جارتها التركية، هذا الدعم يكشف رياء الالتزام بالتشاور ضد الخطر الكردي الذي تتظاهر به الدول المعنية، سوريا أيضاً، التي بها نسبة من الأكراد، تلعب لعبة غامضة، وتمنح المنظمة الكردية دعماً مهماً .

تـــركيا من جهتها تحاول، منذ بعض الوقت، استخدام الحركات الكردية، في الـــبلدان المجاورة، وهو موقف كان وقتاً طويلاً لا يمكن حتى تخيله، بسبب العقيدة الكمالـــية، عـــام 1988 نصبت نفسها حامية لأكراد العراق واستقبلت على أرضها أكثـــر من 120 ألف كردي هاربين من العراق، كما شاركت في المهمة التي قامت علـــى أساس قرار الأمم المتحدة رقم 688، والمستهدفة حماية الأكراد المهددين من

قـبل السلطات العراقية، زيادة على ذلك اعترفت انقرة بالأحزاب السياسية الكردية فـي العـراق، واسـتقبلت زعماءها، بارازاني وطالباني، واللذين أكدا، في مقابل الاعتراف، للسلطات التركية، إخلاصهم، وتعهدا بعدم تقديم أي دعم لمنظمة PKK.

لعـبة – ولا شك – خطيرة تلك التي تلعبها الدول المعنية بالمسألة الكردية، والتـي تعميها تطلعات وقتية وقصيرة المدى، عن إدراك خطر أكبر، عندما يطعن بعضها في شرعية البعض الآخر، فإنّ الدولة الوطنية هي الخاسر الكبير .

ربمـا هـذا يـرجع إلى أنها لا تفرّق بين النظام السياسي، وبين الدولة لكنَّ المـسألة الكـردية ليست مسألة معارضة نظام سياسي، إنّها مسألة تتعلق بشرعية الدولة، وفي هذا لا فرق بين الدول المعنية .

- أسـلوب جديـد، فـي نظر تركيا إلى المشكلة الكردية، بدا يتحدد، بسبب عدة عوامل مجتمعة :

- مـن أجـل أن تتمكن من اللعب بورقة الأكراد في البلدان المجاورة لصالح تطلعاتها الإقليمية .
- للاستجابة لضغوط الولايات المتحدة في موضوع حقوق الإنسان .
- أن تظهـر بمظهـر محتـرم يليق بمتقدم لعضوية الاتحاد الأوروبي. هكذا تـوجَّب على تركيا أن تتخلى عن إدارتها القمعية والمتصلة للملف الكردي، خاصة أن هذه الإدارة ظهرت بلا فعالية .

إنهـاك الإديدلوجـيا الكمالـية سـهّل الأمـور، منذ يوليو 1990، الحزب الاجتماعـي الديمقراطي، والذي كان في المعارضة، حطَّم التابو، واعترف بالهوية الكـردية، وبتأثر من الرئيس تورقوت أوزال 1989، 1993، أعطت الحكومة بعداً رسـمياً لهذا التحول وأعلنت إنشاء وزارة حقوق الإنسان، ووعدت الأكراد ببعض الحكـم الذاتـي الإداري، وحرية استعمال لغتهم، كما أذنت بتأسيس حزب سياسي كـردي، ذي تـوجه لاسـتعمال لغتهم، كما أذنت بتأسيس حزب كردي، ذا توجه اجتماعي ديمقراطي (حزب عمل الشعب HEP) هذه التنازلات المهمة تسجل في

إطار أكثر اتساعاً يستهدف حل مشكلة الأكراد، والذي يقوم على اتفاق ضمني: في مقابـل التطويـر والتنمية الاقتصادية لمناطقهم، والاعتراف بثقافاتهم، فإن الأكراد يتخلون عن مطالبهم المتطرفة، ويقبلون الاندماج في الدولة التركية .

لهـذا الهـدف جرى تشجيع الحركات الكبيرة للسكان، الهاربين بسبب عدم اسـتقرار الأقاليم الكردية، نحو مدن جنوب الغرب، اسطنبول أزمير، أدنا. لكن إلى جانـب تكالـيفها المـرتفعة، فـأن هذه الاستراتيجية ظلت محدودة الفعالية: تتريك الأكـراد فـي وسط حضري لم ينجز، ويمكن ملاحظة العكس، تجمع على مستوى أوسـع لهـؤلاء المهاجرين، بينما هم حتى ذاك الحين في أوضاع محلية الصراع، هكذا، يمكنه أن يتكسب بعداً جغرافياً، وأن يعمم أكثر من ذي قبل .

فـي مقابـل هذه المرونة، في سياستها الكردية، تستمر الحكومة التركية في إظهـار جـزم وتصميم أكبر نحو العناصر التي تختار الاستمرار في العنف، كما دعمـت سـيطرتها على المقاطعات الشرقية من خلال إعادة تنظيم إداري، وجهد عسكري مدعوم .

منذ عام 1991، قام الجيش التركي بعمليات واسعة ضد قواعد حزب العمال الكردي، حتى في داخل الأراضي العراقية .

– مـع ذلـك مطالب زعيم الحزب، عبد الله أوجلان، بدأت تعتدل. هذا يرجع ربما إلى عدة عومل :

1- التنازلات التي عبَّرت عنها الحكومة التركية .

2- التغيرات الإقليمية بسبب حرب الخليج الثانية .

3- انهيار الكتلة الشرقية .

4- الـضغوط علـى سوريا لإيقاف دعمها للأكراد، والتي وصلت حتى الإنذار بالحرب – أخيراً .

لم يعد أوجلان يطالب بكردستان مستقلة، وإنما بإنشاء فيدرالية تركية كردية،

وفــق تعبير أوجلان " الأكراد يريدون اتحاد حر أكثر مما يريدون الانفصال، ولكن لا يمكن التفكير في هذا الاتحاد إلا على قاعدة الحرية والمساواة.

فيما وراء العبارات المهدئة، الفترة القصيرة من الهدوء - بداية أعوام 90 - تــبدو ســريعاً قــد تجاوزها الأحداث، موت الرئيس أوزال، أبريل 1993، وتزايد هجومات حزب العمال الكردي سدت الطريق نحو حل تفاوض .

تحت ضغط المؤسسة العسكرية، والتي تتمنى وضع حد لهذا الوضع، رئيسة الــوزراء، تانو شيلر، والرئيس ديميريل، عادا إلى تبنى صيغة الحزم والحسم، كما يشهد على ذلك عملية " الصلب " في مارس 1995 .

مــنذئذ، ورغــم الانفتاح المقترح من جانب PKK، والذي أمر بوقف إطلاق النار من طرف واحد عدة مرات، فإنّ الحكومة التركية تبدو أكثر تورطاً في مقاتلة الأكــراد، هــذه المعــركة كلفت أكثر من 8 مليار دولار سنوياً، وتحشد 300 ألف جــندي في الجنوب الشرقي لهضبة الأناضول، إحدى الأساليب المستخدمة تقوم في عــزل المقاتلين عن بقية سكان القرى المشتبه في تعاونهم معهم، هذه القرى يجري إخلاؤها من السكان، ثم تدميرها، حسب استراتيجية الأرض المحروقة والتي قذفت إلــى الطــرق بحوالي 2 مليون شخص، ومن ناحية أخرى تشكيل مليشيات كردية وتــوريطها فــي عملــيات قمــع حــزب العمال الكردي، الهدف من هذا تعميق الانقسامات، وجعل مختلف الفئات الكردية في مواجهة ضد بعضها.

عــدد حــراس القــرى هؤلاء، الأكراد المسلحين والمدفوع لهم من الإدارة التــركية يــصل حوالــي 50 ألفاً، منظمين في تشكيلات قبلية شبه عسكرية، هذه المليــشيات موضــع ســخط واحتجاج السكان الذين يتكبدون القمع على يدها باسم الكفاح ضد الإرهاب .

هــذه الوســائل العسكرية التي وضعت في العمل من قبل الحكومة التركية، يــضاف إلــيها أدوات قانونية - قضائية، مثل المادة 8 من القانون ضد الإرهاب، والتــي تــضع تحديــداً واســعاً فــضفاضاً لجــرائم الرأي، وتجرم كل اعتراف بالخصوصية الكردية .

نمطان جديدان من العمل العنيف ظهرا في السنوات الأخيرة، يرتبطان بالمسألة الكردية، منذ عام 1991 جرت عمليات اغتيال غامضة لشخصيات أو حتى مواطنين، والتي تحمل مسؤوليتها منظمة سرية: حزب الله، في كردستان التركي .

بالنسبة لبعض المراقبين، هذه العمليات يقوم بها أصوليون أكراد، في حزب العمال الكردي، الشيوعي، بينما يذهب آخرون، على العكس، إلى أنها من عمل المخابرات التركية مستهدفة من هذا تعميق مشاعر عدم الأمان، وإثارة رفض المواطنين للصراع الذي هم ضحيته .

في نهاية أعوام التسعين، بدت الظروف الدولية والإقليمية، في نظر سلطان أنقرة، مواتية أكثر للانتهاء من ملف الانتفاضة الكردية المسلحة :

- حرب الخليج وتوابعها والتي جعلت لتركيا مكانة مهمة في حصار العراق .
- ضعف الدولة في العراق وحالة الحصار التي يتكبدها. مدعومة من الولايات المتحدة، مقابل موقفها من العراق، عمدت إلى ملاحقة أكرادها حتى داخل الأراضي العراقية، وتدمير قواعدهم، ومستغلة موقف أكراد العراق من دولتهم، تمكنت من تحييدهم لا وحتى الحصول على دعمهم ضد إخوانهم أكراد تركيا، وفي رسالة واضحة إلى سوريا، حشد الجيش التركي 40 ألف جندي على الحدود السورية .

سوريا، في مواجهة احتمالات حرب مع الكيان الصهيوني، فضلت عدم المخاطرة بحرب مع تركيا، حتى لو كانت ضعيفة الاحتمال في نهاية أكتوبر 1998، زعيم حزب العمال الكردستاني، عبد الله أوجلان، ترك سوريا، إلى موسكو، ليبدأ رحلة طواف استمرت خمسة أشهر، عواصم أوروبا أقفلت في وجهه ...

في 15 فبراير 1999، بمساعدة يونانية، ودعم مخابراتي أمريكي، تمكنت المخابرات التركية من خطف أوجلان في نيروبي – كينيا – واقتادته إلى أزمير، حيث يحاكم .

لكــن وأن تم القبض على أوجلان، وصار رهين زنزانته فإن الملف الكردي مــا زال مفتوحاً، المسألة ليست أوجلان وليست حزب العمال الكردي، إنها مسألة هوية 12 مليون يرفضون التتريك .

إضافة إلى هذا، لا يمكن أن تحل مشكلة الأكراد بمعزل عن جارتها .

حل المشكلة تركيا يتطلب دعم الدولة في العراق وفي سوريا وفي إيران .. لكن تركيا، خاصة في العراق تلعب لعب تجعل محاولاتها لحل مشكلتها مع أكرادها بــدون جــدوى إذ لا يمكــن أن تفرض على الأكراد احترام الدولة في تركيا وأن تساعدهم في تدمير الدولة في العراق .

- تركيــا :

- المــساحة: 79452 كم2 منها 23764 كم2 في أوروبا و755688 كم^2 في آسيا .
- السكان: 58.5 مليون .
- الــدين: 90% إسلام، أغلبية سنية، توجد طائفة علوية ما بين 15 – و – 20 مليون، منها 30% أكراد .
- الأكراد: حوالي 12 مليون .

توجد أقليات أخرى مثل الأرمن، القوقاز، بأعداد صغيرة .

المراجـع :

1 – موسوعة الصراعات ص 1185، 118 .

2 – حالة العالم 2000ص 543، 547 .

3 – سكان العالم ص 263، 265 .

4 – اللوموند: – املشرد غير المرغوب فيه 1998/2/18 .

– الأكراد أدث اتاتورك السلبي 98/12/8 .

– حراس الضمير التركي 98/12/18 .

– ص 13 99/3/6 .

2 - إيــــران :

بقـــدر عـــدد الأكراد، في إيران، بحوالي 6 مليون، بذلك تمثّل إيران التجمع الثاني للأكراد بعد تركيا .

أكـــراد إيــــران، في أغلبيتهم سنّة، وهذا عامل إضافي في النزاع، جبليون، ومقاتلـــون، وتقليدياً متمردون، جرى إخضاعهم باستمرار من قبل حراس السلطان المركزي .

مـــنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت كردستان إيران مسرح اضطرابات استقلالية، والتي جزروها تمتد عام 1918 .

عقـــب الـصدمة التـــي نجمت من تفكيك الإمبراطورية العثمانية، في نهاية الحـــرب العالمـــية الأولـــى، دخـــل مجموع كردستان في مرحلة اضطرابات في كردستان إيران، كانت لهذه الاضطرابات سمة خاصة، زعيم عسكري، هو سامبو، تمكـــن من الحصول على الاستقلال الذاتي كأمر واقع، وذلك في الفترة من 1918 إلى 1922، قبل أن تستعيد الدولة في إيران قوتها على يد زعيم كوزاكي، هو رضا خان، مؤسسة الأسرة البهلوانية، وتتمكن من فرض قانونها على كردستان الإيراني.

النـــشاط المـــسلح للقـــبائل الكـــردية شهد خموداً طويل الأمد، خلال السنوات 20 – 30 .

لكـــن إرادة تحريـــر أكـــراد إيران، ظهرت مجدداً، بمناسبة اندلاع الحرب العالمـــية الثانـــية، النخبة الكردية المدنية الصغيرة، أسست في سبتمبر عام 1942 مـــنظمة تجديـــد الإســـلام، والتـــي هدفها الحصول على دولة كردية، هذه الحركة ازدهـــرت، بفـــضل دعـــم السوفيت الذين يحتلون ازربيخان الإيرانية منذ سبتمبر 1941، فـــي أغـــسطس 1945، حوّل زعيم المنظمة، القاضي محمد، حركته إلى حزب كردستان الإيراني الديمقراطي PDKI .

بدعم من السوفييت، الذين تنصلوا قبل ذلك من وعود الحكم الذاتي لمسلمي آســـيا الوســـطى، أسس القاضي محمد جمهورية كردية صغيرة، في ماهاد، 22

ينايـــر 1946، لكـــن هـــذه لم تبق على قيد الحياة إلا سنة واحدة، عقب انسحاب القـــوات السوفيتية من ازربيخان الإيراني، في مايو 1946، لم يبق، لهذه الدولة الـــصغيرة المعـــزولة، ســـند، فأعـــيد دمجها في الدولة الإيرانية في نهاية حملة عسكرية انتهت باستسلام القاضي محمد، وبهذا دخلت الحركة الكردية في مرحلة خمود طويلة نسبياً .

السلطات الإيرانية، قلقة مما يحدث في جارتها العراق، اهتمت كثيراً بتقليص مخاطر العدوى القادمة من كردستان العراق. لهذا الهدف دعمت طهران، صراحة، فـــي أعـــوام الـــستين، زعيم الحرب الكردي العراقي مصطفى برزاني، والذي في المقابل التزم بحفظ النظام بين إخوانه الإيرانيين، بما في ذلك استخدام القوة، إذا لزم الأمر، لمنعهم من الإخلال باستقرار إيران .

هكـــذا خـــلال أعـــوام 60 – 70، استخدم كل من العراق وإيران، الأقليات الكـــردية ضـــد بعضهما البعض، زعماء هذه الأقليات لم يترددوا في دخول اللعبة، والقيام بالدور المطلوب منهم .

فـــي هذا الإطار، سقوط النظام الإمبراطوري، عام 1979، أدَّى إلى انتعاش معـــسكر أكـــراد إيـــران، منتهزين فرصة ضعف السلطان المركزي، ومخدوعين بالـــشعارات الإســـلامية التـــي يطرحها النظام الجديد، فإنّ مناضلي PDKI، والذي يقوده حينئذ عبد الرحمن قاسملو، احتلوا رموز النظام – مراكز البوليس، الإدارات الحكومـــية – الحـــزب كـــان يعتقد أن ما يقوم به ينسجم مع التوجهات الإسلامية المعلـــنة، وأن مطالـــبة بإقامة الديمقراطية في إيران، والحكم الذاتي لأكراد إيران، ولـــيس الاستقلال ن سوف تستجاب، لكن سريعاً ما خابت آماله، السلطات الإيرانية الجديـــدة، اســـتعادت أدث الدولـــة الإيرانية، وصارت ترتاب في المطالب الوطنية الصادرة عن أقلية سنية وغير ناطقة بالفارسية .

هكذا تعرض الحزب "PDKI" لقمع قاس على يد السلطات الإيرانية، حراس الثورة، والجيش النظامي أعادا فرض النظام الإيراني، من جهة أخرى تكبد الحزب منافسة منظمات كردية أخرى ليتكرر نفس السيناريو: المواجهة بين الأكراد وقوات

الــنظام تــتواكب مع مواجهات بين الأكراد أنفسهم، مما أغرق كردستان إيران في حرب أهلية: بين الأكراد وقوات النظام الإيراني، وبين المنظمات الكردية نفسها .

الأكــراد الإيــرانيون قاطعوا، بشكل كبير استفتاء شهر إبريل عام 1979، حــيث دعى الإيرانيون للاقتراع ضد أو مع قيام الجمهورية، بوادر إعلان دستور سلطوي ومركزي قادت الأكراد إلى التمرد علناً، الجيش تدخل ضدهم وقام بمهمته بــدون رحمــة، تفجر الحرب الإيرانية العراقية دمر ما بقى من علاقات، ووضع الأكراد في موقف حرج، لقد اتهموا بالخيانة من قبل طهران .

قاسملو أرغم على الانسحاب إلى أراضي العراق، وأقام علاقات غامضة مع نظــام بغــداد، ومــع إنه يندد بما يدعوه العدوان العراقي، إلا أن ذلك لم يمنعه من التمــتع بالدعم المادي من العراق، هذا الدعم ربما هو الذي أتاح لحزب PDKI، أن يقــوم في خريف عام 1983، بحرب عصابات في كردستان إيران والتي أدت إلى حشد قوات إيرانية كبيرة، مخففاً بذلك العبء عن الجبهة العراقية الإيرانية .

موت الإمام الخميني، شجّع إدارة الحزب على التفاوض مع سلطان طهران حــول بــشكل ما من الحكم الذاتي لكردستان إيران، هكذا بدأ الأمين العام الحزب الذاتــي لكردســتان إيــران، هكــذا بدأ الأمين العام للحزب، عبد الرحمن قاسملو مفاوضات سرية مع سلطان طهران، في النمسا، حول هذا الموضوع وفي الطريق إلــى لقاء مبعوثين إيرانيين، جرى اغتياله في فيينا، يوليو 1989، تحليل ملابسات عملــية الاغتــيال تقــود إلــى التفكير بأنها فخ نظمته بعض الدوائر المتطرفة في الــسلطان الإيراني، أخذاً في الاعتبار الظروف السياسية والمرحلة الانتقالية، وعدم ســيطرة الدولــة الكاملــة على أجهزتها وصراعات النفوذ، في طهران، فإن هذه الفرضية تصير أكثر من محتملة .

ضــد كل أنواع الحل الوسط، خليفة قاسملو في زعامة الحزب وهو صادق شريفكندى، كان هو الآخر ضحية عملية اغتيال في سبتمبر، في برلين، رفقة ثلاثة مــن قيادات الحركة الدولة الإيرانية بدت هكذا متناقضة، فريسة اتجاهين، أحدهما مع حل وسط يضع حداً لمشكلة الأكراد، والآخر متطرف يرفض كل حلّ وسط .

مــصطفى هيجــرى حلّ محلّ صادق شر يفكندى، لكنه ترك مكانه في مايو 1995 ليتولاه عبد الله حسن زاده .

الــيوم الدولــة تبدو وقد حسمت أمرها، واختارت الحل العسكري. كردستان إيــران يعــيش فــي حالـــة حصار، يفرضه حوالي 150 ألف جندي مع عناصر الجماعات شبه العسكرية، والذين يعسكرون فيه لضمان الأمن .

لكن السؤال يظل: هل يمكن حسم مشكلة هوية بالقوة العسكرية ؟

وهــل يمكــن إسـكات أكراد إيران واستخدامهم في زعزعة استقرار دولة العراق ؟ .

إيــران :

المساحة: 1 468000 كم2

السكان: 67.3 مليون نسمة .

الدين: الإسلام أغلبية مطلقة .

المذهب الشيعي 85% السنة 12% .

التكوين العرقي :

فرس 51% .

أزيري 24% .

أكراد 9% منهم 75% سنة .

عرب 2.5% .

تركمان 1.5% .

المراجـع :

1- موسوعة الصراعات 1232. 1234 .

2- حالة العالم 2000 256. 259 .

3- سكان العالم 246. 249 .

3- العـــراق :

أكراد العراق لهم تاريخ طويل في معارضة حكومة بغداد، ومن عام 1960 صار النزاع مستمراً .

الـــنفوذ السياسي والعسكري، في كردستان العراق، كان للحزب الديمقراطي الكردســـتان PDK بزعامة الملة مصطفى الرزاني حتى عام 1975، الملة الرزاني زعـــين قبلـــي تقلـــيدي، نزاعات داخلية جعلته في مواجهة مع مثقفي اليسار بقيادة إبـــراهيم أحمـــد وجـــلال طلباني، الحكومة استغلت هذا الانقسام، وأخذت تتفاوض بالتوالـــي مع الطرفين وإذا كانت علاقة حركة أكراد إيران بالعراق قد أضعفت هذه الحركة، فإنّ علاقة أكراد العراق بإيران قد أدت إلى نفس النتيجة، وجعلت حركتهم خاضعة لتقلبات العلاقة بين طهران وبغداد .

فـــي مـــارس 1975، فـــي الجزائر، الاتفاق الذي وقع بين البلدين، بين شاه إيـــران وصدام حسين عن العراق، أرغم الانتفاضة الكردية على التوقف، في هذه الظـــروف الـــصعبة، أرغـــم الانتفاضـــة الكردية على التوقف، في هذه الظروف الصعبة، والتي ازدادت صعوبة بتوقف الدعم الأمريكي، أسس الأكراد حزباً جديداً، الاتحـــاد الوطني الكردستاني UPK، المنشق عن الحزب الديمقراطي الكردستاني، بقـــيادة طلبانـــي، الخـــلاف الأساسي، الذي أدى إلى الانشقاق، تمحور حول قواعد الحـــركة وصـــول مـــسائل تكتيكية، كما لا يستبعد منه العوامل الشخصية، الاتحاد الوطنـــي الكردستاني UPK يستند على جمهور مدني خاصة في منطقة السليمانية، ويطـــور توجهاً اشتراكياً، بينما يستند PDK " الحزب الديمقراطي الكردستاني " إلى جمهور ريفي وظل محتفظاً بطرحه التقليدي، مصطفى البرزاني توفى عام 1979، وخلفه ابنه مسعود في رئاسة الحزب الديمقراطي الكردستاني .

في السنوات 80، الأكراد الذين أقاموا علاقات قوية مع إيران عقب الثورة، ألحقـــوا قـــواتهم بقـــوات إيران، خلال حرب الخليج الأولى، ومدوا منطقة نفوذهم، لكـــنهم فـــي نفـــس الـــوقت أجـــروا اتصالات مع المعارضين الشيعة، وكذلك مع المعارضين الشيوعيين اللاجئين في الجبال .

بعد حملات " الأنفال " والتي أدت إلى حوالي 180 ألف موتى، الحركة الكردية تطرفت، وأدى هذا، في مايو 1988، إلى إنشاء جبهة كردستان العراق، والتي تضم خمس حركات بالإضافة إلى UPK وpdk بعد فشل انتفاضة مارس 1991، والتي كلفت الأكراد حوالي 50 ألف موتى، وأرغمت 70 ألف آخرين على الهجرة إلى إيران أو إلى تركيا: رأى البرزاني وطالباني أن لا مفر من التفاوض مع بغداد في شهر أبريل، ورغم انتقادات الحركات المعارضة الأخرى، ذهبا إلى بغداد المفاوضات أجهضت سريعاً بسبب الخلاف حول ثلاث نقاط .

1- دمج منطقة كركوك البترولية في المنطقة المقترح وضعها تحت إدارة كردية .

2- اختصاصات وحدود السلطات الكردية .

3- مطلب الأكراد المتمثل في نظام ديمقراطي يشمل كل العراق في 5 إبريل 1991، مجلس الأمن، التابع للأمم المتحدة، تبنى القرار رقم 688 والذي يطلب وقف القمع ضد الأكراد، يومان بعد ذلك أطلقت الولايات المتحدة عملية " بروفايد كونفروت " والتي تجمع بين عمليان إسقاط المواد الغذائية من الجو، وإقامة منطقة حظر جوي شمال الخط 36، فرنسا بريطانيا وتركيا انظمت لهذه العملية والتي تنظيمها والإعداد لها وتنفيذها تم انطلاقاً من قاعدة " انبجيلربك " في جنوب شرق تركيا، المنطقة المستهدفة في أكتوبر 1991 سحبت بغداد إدارتها، وأعلنت الحصار على المنطقة .

منذ ذلك الحين تمتع الأكراد ببعض الهدوء في علاقتهم مع بغداد باستثناء بعض عمليات التسلل والغارات العراقية المحدود .

جبهة كردستان العراق انتهزت الفرصة لتطالب بإجراء انتخابات الهدف منها تكوين برلمان إقليمي يمثل الثلاث ملايين سكان المنطقة .

الانتخابات جرت في مايو 1992 بإشراف مراقبين " دوليين " الانتخابات أدت إلى تعادل الاتحاد الوطني الكردي PDK في الأصوات، تقريباً، وتقاسم تقريباً عدد المقاعد، باستثناء نسيبة ضئيلة ذهبت لتشكيلات صغيرة أخرى .

بضعة شهور بعد الانتخابات، قرر البرلمان تبنى فيدرالي في إطار عراقي، والذي يتمحور حول حكم ذاتي حقيقي .

هذا القرار يشير إلى أن أكراد العراق قد أخذوا بعين الاعتبار موقف البلدان الأخرى، حيث توجد أقليات كردية، والتي لن تقبل بأي مطلب انفصالي، ففضلوا ما اعتبروه حداً أدنى، وما اعتقدوا قبوله من هذه الدول، ولو أن يخص العراق فقط .

لكن هذا لم يكن ليطمئن تركيا وإيران وسوريا، وحركات المعارضة العراقية الأخرى، التي تخشى الانفصال، في المستقبل، لمنطقة كردستان خارج الإطار العراقي مع مخاطر العدوى التي يشيعها بين أوساط أكراد البلدان الأخرى، ويجعل ذلك سابقة يستند إليها في المطالبة بحكم ذاتي في إطار فيدرالي أسوة بأكراد العراق، وما زاد في تعميق الشكوك بأنه مجرد قرار تكتيكي مرحلي. إن قرار البرلمان صاحبة تشكيل قوات كردية من حوالي 35 ألف عنصر .

- الحلم الكردي يدمره الصراع الأخوي :

البلدان المجاورة، التي أقلقها قرار البرلمان، يمكنها الاطمئنان، المجتمع الكردي يفرز سمومه، والتي لم تتأخر في الذهاب بالأفراح التي أثارها الانتخابات وبدايات تأسيس نظام ديمقراطي، سريعاً جداً، الخلافات القديمة، بين الطوائف الكردية، ظهرت مجدداً، وقذفت بكردستان العراق في حرب أهلية .

المواجهة الأولى بين الحزب الديمقراطي الكردستاني، والاتحاد الوطني الكردستاني، اندلعت في مايو 1994 عقب خلاف عقاري الأعمال الشنيعة التي جرت ربما لا تماثلها أعمال قوات الحكومة العراقية: قتل، قطع أطراف الانتقام من الأسر .

المنطقة انقسمت، هكذا، بين الحركتين المتنافستين، المتصارعتين .. الحزب الديمقراطي في الشمال، والغرب. والاتحاد الوطني يسيطر على الجنوب الشرقي.

لكن هذه التكوينات السياسية الشكلية لا تسيطر على اتباعها إلا جزئياً، وحسب الدعم الذي تقدمه لهم، العوامل القديمة، المتعلقة بالصراع القبلي ظلت تفعل

فعلهـــا: من فرض الإتاوات إلى فرض رسوم وضرائب مباشرة تجني مباشرة من الـــسكان، لقد ظلت القبائل مستقلة ولها قواتها الخاصة، كما أن الأحزاب الصغيرة، مثل الحزب الشيوعي الكردي، حافظت هي أيضاً على استقلالها .

الانهـــيار المفاجـــئ والسريع لسلطات الدولة، دون القدرة على إيجاد سلطان بديل يحصل على الإجماع، في مجتمع يغلب عليه التكوين القبلي أعزق المنطقة في الغوغائية .

في مثل هذه الظروف الصعبة، بدا البرلمان، بالكاد، قادراً على الحفاظ على بقائه .

رغم وقف النار، والاتفاق الذي وقع في باريس في 22 يوليو فأن مصادمات جديـــدة وقعـــت مـــنذ ديسمبر 1994، المعارك طالت اربيل، شاكلاوي، بنجاوان، هالابجـــا، رانيا، كالا، ديزا، اقتصاد حرب بد يأخذ مكانة، ويجعل إمكانية الوصول إلـــى حل ضعيفة: حوالي 150 ألف مقاتل، من الجانبين يعيشون على النزاع، ومن التهـــريب، ونظـــام مليـــشيات على الطريقة اللبنانية، والوضع يذكرنا، ولو جزئياً، بأحداث الصومال وأفغانستان لقد غرقت المنطقة في غوغائية مسلحة.

اخـــتلالات الـــنظام المركزي، أتاحت عودة ظهور القبلية التي تغذي بدورها الصراعات المحلية الموتى صاروا يعدون بالآلاف: من 2000 إلى 3000 .

الوســـاطة، خاصـــة الأمريكية، في مأزق، تطلب هدفين متناقضين، فهي ضـــد استعادة السلطان المركزي العراقي لسيطرته على المنطقة، دون إغضاب بلدان أخرى .

هكـــذا رغم محاولات الوساطة، فإن جهود المصالحة بين الغرقاء الأكراد لم تثمـــر، أمـــا محـــاولات استعادة الثقة، وفق اتفاق بين الخصمين، وقّع على هامش اجتماع المعارضة العراقية في دمشق أبريل 1996، لم تكن لها النتائج المطلوبة .

فـــي مواجهة هذا المأزق الذي تتحمل مسؤليته P.DK و UPK، " والحكومة الكـــردية " بـــدأ السكان يمنحون مصداقية متعاظمة للأحزاب الإسلامية،

الحزب الإسلامي الكردستاني، حزب الله الكردي المدعوم من إيران، وإلى خطابات واعدة بإعادة البناء الاجتماعي .

في أغسطس 1996، مسعود برزاني، أمام النجاحات التي حققها في الميدان الاتحـــاد الوطني الكردستاني، على حسابه، حذّر الولايات المتحدة بأنه سوف يطلب معونة بغداد إذا لم تمده واشنطون بالدعم الضروري ليعيد فرض نفوذه .

فـــي 31 أغسطس، أمام مماطلة واشنطون، وضع تحذيره موضوع التنفيذ، وبـــدعم مـــن القوات العراقية، استولى على مدينة أربيل، عاصمة المنطقة الواقعة تحت نفوذ خصمه جلال طالباني .

وبعـــد عـــام مـــن وقـــف القتال، بدأت المعارك مجدداً بين الاتحاد الوطني الكردســـتاني والحزب الديمقراطي الكردستاني، في بداية عام 1998، منذئذ سيطرة الدولـــة العـــراقية علـــى الأراضـــي الكردية، أخذت تقوى باستمرار على حساب الحركتين معاً .

هـــنا أيـــضاً يظـــل الملف مفتوحاً على خيار واضح: أما دولة وطنية تستوعب وتتجاوز الهويات الاجتماعية المكونة لها، وأما تفكيك الدولة لن يقف عند حدود العراق .

العـــراق :

- المساحة : 430 ألف كم2 .
- السكان: 21 مليون نسمة .
- التكوين السكاني: عرب 75% أكراد 20% معظمهم سنة 10% منهم شيعة .
- الدين : 95% إسلام

55% مذهب شيعي، البقية مذهب سني .

- المسيحيون 5%

ويعيش في الشتات حوالي 2 مليون عراقي .

المراجـع

1 - موسوعة الصراعات ص 1204 - 1207.

2 - حالة العالم 2000 ص 227 - 229 .

3 - حالة العالم الثالث .

5 - اللوموند: كردستان العراق 98/12/19 .

مسألة الأكراد المشتتين بين عدة دول، تعرض بوضوح مأزق كل دولة وطنية، قامت على أسس لم تراع التكوينات الاجتماعية في عالم أخذ يتجاوز الوطنيات السياسية نحو السوق العالمي. إن بقاء الأكراد في أقليات مشتتة بين عدة دول، مشروط بقوة الدولة الوطنية، وتحذر الانتماء الوطني بما يتجاوز الانتماء العرقوثقافي .

لكن الدولة الوطنية تواجه تحديات، وضغوطاً يفرضها تحول العالم إلى سوق، ومطالب العولمة بفتح الحدود، وتقليص السلطان الوطني، و الذي هو في صالح الحركات المناوبة للدولة الوطنية ودون اتخاذ موقف لصالح الحركات الكردية أو لصالح الدولة الوطنية، فأن دولة المنطقة المعنية في مأزق، صراعاتها وتنافسها على النفوذ الإقليمي يجعلها تستخدم مصاعب بعضها بعض، وعلى رأسها الحركة الكردية، ولكنها بدعم الأكراد عند جيراتها إنما تدعم أكرادها ضدها. حالياً العراق في مأمن من التفكك، جيرانه أكثر اهتماماً بوحدته مما يهتم هو بها، قيام أي كيان كردي في العراق سوف تكون له انعكاساته على أكراد الجيران المشكلة الكردية عرت دولاً عدة، خاصة تلك التي ترفع شعارات حقوق الإنسان، الولايات المتحدة، مثلاً، لا تتردد في استقبال زعماء أكراد العراق، ودعمهم ضد الدولة الوطنية، لكنها نفس الوقت تساهم في خطف زعيم كردي في بلد أجنبي، وإرساله إلى اسطنبول ليحاكم كإرهابي .

إذا أخذنا بالقياس فإن وضع أكراد العراق هو نفس وضع أكراد تركيا، ثمة دولة وطنية، وثمة حركة ضد الدولة الوطنية فلماذا تصير هذه شرعية وتلك إرهابية، المصالح وحدها تجعل من حركة أكراد العراق شرعية بينما حركة أكراد تركيا غير شرعية .

تركيا نفسها تتصرف بشكل مضحك، إنها تساهم فيما يزعم حماية أكراد العراق من حكومة العراق، لكنها لا تتردد في إرسال الفرق العسكرية لمطاردة أكرادها داخل الأراضي العرقية .

اللعبة خطيرة جداً تلك التي تلعبها دول المنطقة، خاصة إنها عندما تضعف بعضها بعضاً إنما تعمل لصالح القوى المضادة للدولة الوطنية .

الفصل السابع

الباسك أمة ممزقة بين دولتين

(1)

تكمن خصوصية المسألة الباسكية، في أن القومية الباسكية مقسمة بين دولتين: إسبانيا وفرنسا: وهذا ما جعل القومية الباسكية تتعرض لتطورات مختلفة على جانبي جبال البيرنيه .

في أسبانيا اتخذت شكل احتجاج عنيف، بشكل خاص، ضد السلطان المركزي في مدريد، والذي فترة حكم فرانكو، على العكس مما كان يتوقع ازداد حدة بعد موت الجنران فرانكو في 20 نوفمبر 1975، ولم يخفف منه تبني وضع الحكم الذاتي الباسكي في عام 1979 .

نهاية الحرب الباردة، في بداية أعوام التسعين، وخمود عدة نزاعات إقليمية، أعطى الأمل في نهاية وشيكة للعنف الباسكي، والذي تسبب في موت 800 ، (منهم أقل من مئة في عهد فرانكو) وهذا يشير إلى أن دوافع هذا العنف ليست فقط مقاومة النظام الفاشي، ومن أجل الديمقراطية، من الضروري إذن ملاحظة أن أنصار الكفاح المسلح لم يلقوا سلاحهم، مع أن الديمقراطية الأسبانية فتحت الباب أمام كل وسائل الاحتجاج الشرعية .

في نهاية صيف 1998، اتفاقية السلام في شمال أرلندا قدمت قدوة لبلاد الباسك، الايتا أعلنت هدنة، ومن ثم بدأ الحوار .

- الخصوصية الباسكية :

بلاد الباسك، على العكس كتالون، لم تكون يوماً دولة، باستثناء الفترة القصيرة التي ظهرت فيها جمهورية الباسك، خلال الحرب الأهلية الأسبانية، ولم

القومـية الباسـكية بدأت في الظهور خلال الحرب التي دارت ما بين عام 1833 و1876، والتي تواجه فيها أنصار الأسرة المالكة مع أنصار دون كارلوس، أنـصار دون كـارولس يتمركـزون فـي كتالون ونافار، وهما مقاطعتان باسك، ويقاتلون من أجل ملكية مطلقة ودفاعاً عن الكنيسة الكاثوليكية، وللحفاظ على بعض الامتيازات .

فـي عـام 1876، هـزيمة دون كارلوس وأنصاره، أدت إلى إلغاء معظم امتيازات الباسك، هذا الإجراء الذي اتخذه الملك الفونس 12 آثار غضب الباسك.

هـذه الحـرب وما ترتب عنها، طورت القومية الباسكية، ذلك بأن حولت صراعاً ما بين الأسبان إلى عداء تاريخي بين الدولة الأسبانية وبلاد الباسك .

في عام 1895، تأسس الحزب القومي الباسكي، على يد سابينو ارانا والذي كـان كاثوليكـياً جـداً مثل أغلب السكان الباسك، هذا الحزب عارض الاشتراكيين والديمقـراطيين، كمـا يعـارض اليسار ذو الاتجاه المركزي، مؤكداً إنه استقلالي النـزعة، التصنيع، مع حيوية المقاطعات الباسكية الخاصة، لم يعملا إلا على تقوية إرادة الانعتاق عند الباسك .

- الحكم الذاتي النسبي :

فـي أكتوبـر عـام 1936، أي بعد بداية الحرب الأهلية الأسبانية منحت مقاطعـة بيساكي وقبلوزكوا وضع الحكم الذاتي، في مقابل تقديم الدعم للجمهوريين ضـد الوطنيـين أنصار فرانكوا، النافار رفضت ربط مصيرها بمصير المقاطعات الباسـكية الأخـرى مثل الافا، واختارت معسكر فرانكو، هذه الاستراتيجية، مكنت الـنافار مـن تفادي القمع الذي نزل بالسكان بالباسك الآخرين - الأغلبية - الذين سـاندوا الجمهوريـين المهزومين: أكثر من 50 ألف قتلى، بينما 300 ألف أخذوا طـريق الهجرة، الحكم الذاتي ألغى، العلم واللغة الباسكية منعاً، كما ألغيت الميزات الـضريبية، بيـنما الافـا ونافـار حافظتا على بعض الامتيازات بسبب اختيارهما معسكر فراتكو المنتصر .

- قومية عابرة للحدود :

القومـيون الباسـك الأكثر تطرفاً يطالبون بوحدة السبع مقاطعات التاريخية الباسـكية، أربع أسبان، وثلاث فرنسيات، مجمل الإقليم يغطي 20.550 كم2، منها 2900 كم^2 باسك فرنسي، يقطنه ثلاثة ملايين نسمة، منهم 245 ألف باسك فرنسي.

هذا الفضاء التاريخي تقلّص خلال القرون، قبل الغزو الروماني، الأراضي الباسـكية كانـت تمتد شمالاً حتى قارون، وفي الشرق حتى البيرنيه الأوسط، وفي الجـنوب الغـرب حتـى بورقوس، لكن هذه المقاطعات عرفت تاريخاً مختلفاً عن بعـضها البعض، الافا، قيبوزكوا دبيسكاى ضمت إلى الكاستيل في القرن 13 و14 الـنافارو تحـت نفوذ فرنسي منذ القرن 13، زحف عليها واحتلها ملك أراقون في القـرن السادس عشر، شمال البيرينيه، لابورد وسول الحقنا بيمكلة فرنسا منذ نهاية القـرن 15 وبداية القرن 16 أما نافار الأدنى فلم تفصل عن نافارو إلا عام 1530، يجـري دمجها في مملكة فرنسا عام 1620، الثورة الفرنسية ألغت آخر الامتيازات التـي تتمـتع بها هذه المقاطعات الثلاث (اليوم مع بيارن تشكل مقاطعة البيرينيه الأطلسي) .

في القرن العشرين، المقاطعات الباسكية الأسبانية واصلت مسارات مختلفة، والتـي تبدت في اختيارات متناقضة خلال الحرب الأهلية الأسبانية، بعضها اختار معسكر الجمهوريين، والآخر معسكر فرانكو وكذلك خلال تأسيس الحكم الذاتي عام 1979: الجماعـة ذات الحكـم الذاتـي الباسـكي لا تـشمل إلا الثلاث مقاطعات الغربيات، النافار خارجاً لتكون جماعتها الخاصة عام 1982 .

- بلاد الباسك الأسباني :

بعـد مـرور أكثر من خمسة عشر سنة من العبور إلى الحكم الذاتي، تبدو المشاعر القومية متجددة بقوة في بلاد الباسك الأسباني .

- قرن من القومية المناضلة :

ظهور القومية الباسكية .

رغـم دمقرطة النظام الأسباني، فأن الجماعتين تورطتا في مزايدات مقلقة، كما أن كـلاً مـنها صـنع واجهـة سياسية لاستغلال المناخ الديمقراطي الأيتا السياسية – العـسكرية أسست: لوسما ديكو ايسكرا " والتي تعلن اشتراكية ديمقراطية باسكية، لكن بعد فترة من التردد، انتهت بإدانة اللجوء إلى الكفاح المسلح، مفضلة عليه العمل السياسي .

الأيـتا العـسكرية، بدورها، كونت ائتلاف يساري متطرف هو المعروف باسـم: هيري باتاسونا، والمستهدف منه معارضة الحزب القومي الباسكي P.N.V، والذي استمر، مع ذلك، الحزب الباسكي الأول .

هـذا التـشكيل السياسي، هيري باتاسونا، يؤيد الخيار العسكري ولا يخفى علاقته بالمنظمة السرية، وصار سريعاً التكوين السياسي القومي الأول، متفوقاً على الحزب القومي الباسكي .

انـشقاقات أخـرى تتوالي، تؤثر على فعالية الحركة القومية الباسكية لكن الأيتا العسكرية فرضت نفسها كأهم منظمة سياسي عسكرية .

– الدمقرطة والحكم الذاتي :

بظهـورها في صورة كفاح ضد دكتاتورية فرانكوا، فإنّ الأيتا تمتعت بدعم شـعبي مهـم على الصعيد الوطني والعالمي، تبنى الديمقراطية في أسبانيا بعد عام 1975، والمـسار نحـو الحكم الذاتي لبلاد الباسك، لم يضعا بأي شكل حداً لعنف المـنظمة، علـى العكس عمليات العنف استمرت وتضاعفت من عام 75 إلى 80 (290 حادث اغتيال عامي 78، 79) .

الأيـتا بـرهنت هكـذا علـى أن الاستقلال التام وليس الحكم الذاتي هدفها الأقـصى، ولهـذا فـإنّ وضع الحكم الذاتي الذي جرى التفاوض عليه بين حكومة مدريد والحزب القومي P.N.V لم يحصل على موافقتها مشروع الحكم الذاتي لبلاد الباسـك قدم إلى البرلمان الأسباني في ديسمبر 1978، ثم جرى اعتماده من خلال اسـتفتاء فـي أكتوبـر عـام 1979، لكن أحزاب الباسك، المكونة لمنظمة هيرى باتاسونا، رفضت ذلك .

اختلاف الاختيارات هذا، ترك جروحاً عميقة ما زالت حية حتى اليوم .

- ظهور حركة النضال E.T.A :

ذكـــرى الحكـــم الذاتي عام 1936، ومشاعر القهر والألم التي تولدت عن القمـــع الـــذي أعقب الحرب الأهلية، غذت في سنوات الخمسين حمى انعقاقية، لكن المناضلين تغيروا:

عناصـــر مناضـــلة شـــابة، معظمهم من الطلاب، هجروا الحزب القومي الباســكي، المعبـــر ،فـــي نظرهم، عن الأقلية البورجوازية الصغيرة، إلى التطرف الثوري، الايتا E.T.A هي المنظمة الأشد تصلباً .

الايـــتا E.T.A (بلاد الباسك والحرية) تأسست في 31 يوليو 1959 هدفها بـــناء دولـــة باسكية اشتراكية موحدة، مستقلة وذات لغة باسكية، وهذا يعني وحدة المقاطعات الباسكية الفرنسية والأسبانية .

الهـــدف إذن الاستقلال التام، بينما الحزب القومي الباسكي P.N.V كان يقبل فكرة حكم ذاتي في إطار أسباني، البعد الكاثلوكي للحزب القومي الباسكي هو الذي استمر باقياً، وهو أحد الأسباب وراء تأسيس E.T.A، المنظمة وضعت برنامج عمل لمـــدة ثماني سنوات، وأعدت نفسها لحرب عصابات في الريف وفي المدن للنضال ضـــد المركزية الفرانكية، ومن ثم تأسست جبهة عسكرية في قلب المنظمة، ونفذت أول أعمالها عام 1961، لكنها لم تعلن الحرب على الدولة الأسبانية إلا عام 1968 ، وذلك بقتل أحد أفراد البوليس .

- زمن الانشقاقات :

التناقـــضات الداخلـــية التي تهز الحركة منذ تأسيسها، أدت عام 1970 إلى صـــدع عميق، المؤتمر السادس الذي أنعقد في عام 73، 74، أعتمد أبعاد العناصر المتـــشددة – العـــسكريين – و الذين أسسوا الأيتا العسكرية، والتي تعارض الأيتا السياسية – العسكرية .

- **البديل كاس Kas :**

البديل كاس Kas - التنسيق الاشتراكي للوطنيين الباسك - يلخص مطالب الأيتا في خمس نقاط، والتي تمثل قاعدة العمل المشترك لمختلف الأحزاب المطالبة بالاستقلال :

1- العفو وإطلاق سراح كل السجناء السياسيين - حوالي 600 سجين .

2- منح الشرعية القانونية لكل الأحزاب الباسكية المطالبة بالاستقلال .

3- سحب قوات الأمن الأسبانية: حرس مدني، بوليس وطني .

4- تحسين شروط عمل الطبقة الشعبية وخاصة العمال .

5- الحكم الذاتي بمطالب تحقق الحد الأدنى :

1- إلحاق مقاطعة نافار بالثلاث مقاطعات الأخرى الأسبانيات وهي: الآفا، بيسكاي، قيبروزكوا.

2- الاعتراف بالسيادة الوطنية والحق في تقرير المصير، بما في ذلك الحق في إنشاء دولة مستقلة .

3- الاعتراف بالروابط القومية بين الباسك الفرنسي والباسك الأسباني .

4- إنشاء بوليس باسكي بديلاً عن القائم .

5- السيطرة من قبل حكومة الباسك على قوات الجيش المتمركزة في بلاد الباسك .

6- منح الشعب الباسكس سلطات كافية لإقامة بنى اقتصادية ضرورية لتقدمه.

7- الاعتراف باللغة الباسكية لغة رسمية.

في صراع على النفوذ، بين المعتدلين والمتطرفين، فإن هذه المطالب تظهران المتطرفين منتصرين.

تبع الاستفتاء على وضع الحكم الذاتي، انتخابات عام 1980، البرلمان الباسكي، الذي نشأ عن هذه الانتخابات، وقع، مع الحكومة الأسبانية، على اتفاق يحدد الصلاحيات الاقتصادية لإدارة الحكم الذاتي، وكذلك ما يتعلق بالبوليس.

هكذا بلاد الباسك حصلت على وضع حكم ذاتي، والذي لم تتمتع به أبدا خلال تاريخها، باستثناء الفترة القصيرة والقلقة التي ظهرت فيها جمهورية الباسك خلال الحرب الأهلية الأسبانية، هذا الوضع هو في معظمه في صالح الباسك، يجعلهم في وضعية أفضل من بقية أسبانيا، لكن الحكم الذاتي لا ينطبق إلا على المقاطعات الثلاث: الافاريساكى وقيبوزكوا .

برلمان وحكومة باسكية تشكلت، ذات صلاحيات مهمة، مقرها فيتوريا، لكن مع ذلك بدون أي صلاحيات في مجال الدفاع .

سلطات كل وزارة، في الحكم الذاتي، تحددت من خلال اتفاقيات حول اللامركزية ونقل بعض الصلاحيات، تكون بوليس باسكي للعمل إلى جانب الحرس المدني والبوليس الوطني، وله صلاحيات تتعلق بأمن الطرق، والحق العام، كما صار من حق الخزانة الباسكية تحصيل الضرائب، على أن تحول جزءاً منها إلى مدريد (6.24%) أما الإذاعة و(التلفزيون) العموميان فقد صارا يبثان بلغة الباسك.

- حركة مستمرة :

بداية سنوات التسعين حملت على الاعقاد في انهيار الأيتا وكذلك التحول من الكفاح المسلح إلى العمل السياسي، لكن عودة الحركة إلى الانطلاق، بعد هدنة ومفاوضات استمرت من يناير إلى أبريل 1980، برهن على خطأ هذا الاعتقاد .

مع أن المنظمة تكبدت مواجهة قاسية، وتمت تصفية قيادتها عام 1992، إلا إنها عرفت كيف تتكيف وتعيد تنظيم نفسها، لكنها مع ذلك أعادت عقلنة أهدافها وأساليب عملها، لقد اعترفت بأن الانتصار عسكرياً على الدولة هو وهم، وهذا قادها إلى تركيز جهودها على استراتيجية زعزعة الاستقرار لإجبار السلطان المركزي على الدخول في مفاوضات حول مطالبها، المختصرة في "البديل كاس".

- **البديل كاس Kas :**

البديل كاس Kas – التنسيق الاشتراكي للوطنيين الباسك – يلخص مطالب الأيتا في خمس نقاط، والتي تمثل قاعدة العمل المشترك لمختلف الأحزاب المطالبة بالاستقلال :

1- العفو وإطلاق سراح كل السجناء السياسيين – حوالي 600 سجين .

2- منح الشرعية القانونية لكل الأحزاب الباسكية المطالبة بالاستقلال .

3- سحب قوات الأمن الأسبانية: حرس مدني، بوليس وطني .

4- تحسين شروط عمل الطبقة الشعبية وخاصة العمال .

5- الحكم الذاتي بمطالب تحقق الحد الأدنى :

1- إلحاق مقاطعة نافار بالثلاث مقاطعات الأخرى الأسبانيات وهي: الآفا، بيسكاي، قيبروزكوا.

2- الاعتراف بالسيادة الوطنية والحق في تقرير المصير، بما في ذلك الحق في إنشاء دولة مستقلة .

3- الاعتراف بالروابط القومية بين الباسك الفرنسي والباسك الأسباني .

4- إنشاء بوليس باسكي بديلاً عن القائم .

5- السيطرة من قبل حكومة الباسك على قوات الجيش المتمركزة في بلاد الباسك .

6- منح الشعب الباسكس سلطات كافية لإقامة بنى اقتصادية ضرورية لتقدمه.

7- الاعتراف باللغة الباسكية لغة رسمية.

في صراع على النفوذ، بين المعتدلين والمتطرفين، فإن هذه المطالب تظهران المتطرفين منتصرين.

الأيـــتا لم تطرح على نفسها مشكلة الشرعية، إذا كانت واعية بأنها لا تمثل أغلبـــية الباســك، إلا أنها تزعم أنها تلعب دوراً طليعياً، وعلى هذا النحو تعتبر أن منجـــزات الحكم الذاتي هي بفضل أعمالها، لاشك أن ضغط الأيتا لعب دوراً مهماً في مفاوضات الحكم الذاتي، أنصارها وأن كانوا أقلية ألا إنه لا يمكن إهمالهم، ومع ذلـــك تظل المطالب القومية، بشكل واسع، أغلبية في بلاد الباسك الأسباني (حوالي 3/2 مـــن السكان الباسك) لكن العنف لم يعد مؤيداً إلا من قبل قسم مهم ولكن، في نفـــس الـــوقت، أقلية بين السكان (واحد من كل خمسة من السكان) في السنوات الأخيرة الكشف عما عرف بالحرب القذرة، التي قامت بها السلطات لبعض الوقت، مـــن خـــلال مجمـــوعة ضد الإرهاب – القتال – أثار تعاطفاً مع الأيتا خاصة بين الشباب .

- تفاقم العنف :

فـــي يونـــيو 1996 أعلـــنت الأيـــتا هدنة ذات أمد قصير، مطالبة السلطان الأســـباني الجديد أن يقدم " جواباً واضحاً وعلنياً حول نواياه من أجل حل الصراع في البلاد الباسك " .

الأحـــزاب الديمقـــراطية الباسكية عندئذ توحدت حول اتفاق ضد الإرهاب، واقترحت على المنظمة المسلحة أن تفتح حواراً تحت ثلاث شروط:

1- إطلاق سراح حارس سجن في قبضة المنظمة منذ 17 يناير 1996 .

2- وضع حد للعنف .

3- الاعتراف بالتعددية السياسية بين الشعب الباسكي .

الحكومة الأسبانية بدورها، عبرت عن بعض حسن النية، بأن قربت حوالي 30 من 600 سجين، من مناضلي الأيتا من موطنهم، وهذه إحدى مطالب الأيتا .

لكن منذ شهر يوليو عادت الأيتا وزادت في قوة حملتها العنيفة والتي تمثلت خاصة في تضاعف العمليات حول المراكز السياحية في الأندلس وفي كتالون .

هـــذا الانتعاش للمنظمة القومية لا يمنع إنها تكبدت ضربات موجعة، كفاحها

ضد الأيتا، الحكومة الأسبانة، بمساعدة أكثر فأكثر فعالية من الوطنيين الباسك المعتدلين، حالياً في السلطة ومن قبل البوليس الفرنسي، تمكنت من توجيه ضربات قاسية للمنظمة .

وصول الحزب الشعبي إلى السلطة (P.P) بعد الفوز في الانتخابات لم يغير من سياسة مدريد في المسألة الباسكية، مع ذلك بدأت السلطات الأسبانية الاهتمام بشكلتين: الدعم السياسي الذي تتحصل عليه الايتا، والعنف بدأ يتطور في الشارع في بلاد الباسك للمرة الأولى ثلاثاً وعشرين عضواً، من القيادة هيري باتاسونا، جرت ملاحقتهم قضائياً بتهمة التعاون مع عصابة مسلحة، في الواقع خلال الحملة الانتخابية الأخيرة، عرضت منظمة هيري باتاسونا خلال اجتماعاتها، شريط فيديو دعاية للأيتا، فيه ظهر وتحدث بعض النشيطين الملثمين، السلطات الأسبانية تتهمهم أيضاً بأنهم بردوا عمليات القتل، مثل مقتل الرئيس السابق للمجلس الدستوري الأسباني في فبراير 1996 .

من ناحية أخرى اتخذت السلطات الأسبانية إجراءات ضد التخريب بهدف قمع موجة العنف التي انتشرت في شوارع بلاد الباسك والتي هي أساساً من فعل شباب حركة جاواي المتعاطفة مع الأيتا، والراغبة في إطلاق انتفاضة باسكية حقيقية على غرار انتفاضة الشباب الفلسطيني .

الثلاثة وعشرون عضواً من الإدارة الجماعية لهيري باتاسونا، حكم عليهم في ديسمبر 1997 بسبع سنوات سجن لكل منهم، بتهمة التعاون مع عصابة مسلحة، لكن هيري باتسونا شكلت إدارة جديدة في فبراير 1998 استبعاد بعض العناصر الأشد تطرفاً من الإدارة الجديدة، يبدو إنه يترجم إرادة اعتدال، ممثلي كاس Kas، والتي تجمع المنظمات الأكثر جذرية حول الأيتا، صاروا أقلية (11 من 24) مع ذلك إرادة الابتعاد عن العنف الإرهابي لا تبدو واضحة .

رغم نشاطه الدائم وحركيتها فإن الأيتا ضعفت بسبب التقاء ظاهرتين :

1 – تقلص الدعم الشعبي:

المنتخبون من الحزب الشعبي أ.أ صاروا الهدف المفضل عند الإيتا، في صيف 98 قتل ستة منهم في سنة واحدة. هذه الاغتيالات أثارت في عموم أسبانيا موجه احتجاجات ضد العنف لا سابق لها. في يوليو 97 اغتيال المستشار البلدي، من الحزب الشعبي، والذي لا يزيد عمر عن 29 سنة، أثار سخطاً عارماً في بلاد الباسك. وفي كل أسبانيا (9 مليون نزلوا إلى الشوارع وفق وزارة الداخلية).

هذا الاغتيال يمثِّل الرقم 761 من حوادث الاغتيال التي قامت بها الأيتا منذ عمليتها الأولى التي جرت عام 1968 . في يناير 98 اغتيال مسؤول وزوجته أثار استنكاراً عند الرأي العام الأسباني.

هكذا أخذ الدعم الشعبي للأيتا يتقلص، لتستفيد من هذا التقلص قوات الأمن في عملياتها ضد الأيتا التي صارت مبرّرة.

2 – نجاح قوات الأمن:

توالي عمليات عسكرية ناجحة، خاصة ضد كوماندوبيسكاي الشهير في يونيو 98، خلخل البنى العسكرية للأيتا. أما شبكات دعمها وتمويلها فقد تم القضاء عليها من قبل العدالة الأسبانية.

هل ثمة مخرج من الصراع على الطريقة الأرلندية؟

من إعلان ليزارا إلى هدنة الأيتا.

في نهاية صيف 98، اتفاقية السلام في إيرلندا الشمالية، صارت قدوة عند الباسك، الأيتا أعلنت " هدنة من طرف واحد"، وهي الهدنة الأولى في تاريخها، من أجل المساهمة في إنجاح الحوار الذي بدأ منذ بعض الوقت .

المنظمة المطالبة بالاستقلال، في بيانها، أدرجت وقت إطلاق النار في سياق الأمل في العبور إلى " السيادة" لبلاد الباسك الخاضعة لأسبانيا وفرنسا. وواصلت التنديد بالطريق العقيم وهو الحكم الذاتي، مؤكدة تمسكها بـ " مؤسسة واحدة" تجمع

بــلاد الباســك الأسباني والنافار وبلاد الباسك الفرنسي. الحكومة الأسبانية رددت معبــرة عن رغبتها وضع الهدنة على محك التجربة، وطالبت " ببراهين محسوسة" على جدية هدنة الأيتا.

إعــلان هــذه الهدنـــة من طرف الأيتا، سبقه، في 12 سبتمبر، التوقيع، بعد شـــهور مـــن الحوار السياسي، من قبل كل الأحزاب القومية الباسكية. على إعلان ليـــزارا . في نص هذا الإعلان، الذي يستلهم إلى حد كبير، عملية السلام في إرلندا الشمالية، تلتزم الأحزاب الموقعة، من أجل حل المشكلة الباسكية، بتشجيع محادثات مـــتعددة الأطراف، وبدون شروط معجزة للأطراف المعنية المشاركة، وفي غياب دائم للعنف، دعوة الأيتا لإيقاف العنف تبدو ضمن هذا الإعلان.

الحـــزب الـــشعبي، في السلطة، والحزب الاشتراكي، المعارض، رفضا هذه الوثـــيقة مـــع ذلـــك جولة من الحوار جديدة بدأت بين الحكومة الأسبانية والحزب القومي الباسكي P.N.V، حليفها التكتيكي في بلاد الباسك.

رئيس الحزب القومي الباسكي P.N.V ،أعاد التأكيد على المطالب القومية:

حـــق تقرير المصير لبلاد الباسك، بما في ذلك الباسك الفرنسي. حتى وإن قاد إلى الاستقلال في إطار أوروبا القادمة، أو في إطار اتحاد أسباني.

- الانتخابات الحرة الأولى:

في الانتخابات الأولى التي جرت بدون تهديد العنف، في 25 أكتوبر 1998 ضــــربت المشاركة فيها كل الأرقام القياسية، 70.7% من الناخبين أدلوا بأصواتهم، 10% أكثر من انتخابات عام 94.

أغلبـــية القوميين في البرلمان الباسكي تعززت، لكن الحزب الشعبي، حزب أزنــــار صار القوة السياسية الثانية في المنطقة، الحزب الشعبي حقق صعوداً كبيراً، لقـــد حـــصل على 20.1% من الأصوات، أي 16 مقعداً . أوسكال هيريتاروك – نحـــن المواطنون الباسك، وهو صيغة أكثر انفتاحاً من هيري باتاسون، حصل على 17.9% من الأصوات . أي 14 مقعداً .

هـذا التـصويت المتوازن، فُسِّر على أنه مؤشر لصالح السلام، وذلك لأن الطرفين اللذين يوشكان على الدخول في مفاوضات السلام. صارا في المقدمة، مما يعطي المفاوضات مصداقية.

فـي نوفمبـر 98، أي أكثـر مـن شهر بعد إعلان الهدنة، وأسبوعين بعد الانـتخابات، بدأت حكومة أزنار تعد عدتها للدخول في مفاوضات مع الأيتا. فأذنت الـبحث عـن اتـصال مباشـر مع محيط الأيتا، من باب الحرص على الشفافية . ولتفادي المترجمين والوسطاء، لكنها طلبت مقدماً أن الأيتا تنشر نصاً معتمداً تلتزم فيه بالتخلي نهائياً عن الإرهاب.

هـذه الاتصالات كانت الأولى من نوعها، منذ الحوار الذي أجهض، والذي بـدأ فـي الجزائـر عام 89 مع الحكومة الاشتراكية . الحكومة بدت مستعدة للقيام بخطوة أولى، فأذنت بنقل بعض المساجين إلى بلاد الباسك.

(أربـع سـجناء مرضى تمتعوا بهذا الإجراء قبل الانتخابات) ووافقت على نظـام شـبه حرية لبعض السجناء الآخرين. كما أنها أعلنت أيضاً أن ضحايا الأيتا سـوف يجـري تعويضهم من خلال صناديق الحكومة (التعويضات يمكن أن تبلغ 2.5% مليار فرانك).

الهدنـة إذن بـدت قد تعززت، حتى لو أن عملية السلام تبدو طويلة وهشة، ذلـك لأن عدداً من قادة الأيتا ما يزالون يبرهنون على دوقمانطيقية ثورية وتصلّب أديولوجي أكثر مما هو الحال عند الأرا. I.R.A (الجيش الجمهوري الإيرلندي).

الفاعلون:

الأيتا – E.T.A – بلاد الباسك والحرية.

تأسـست فـي 31 يوليو 59، وبدأت الكفاح المسلح عام 61، وفي عام 68 قامت بأول عملية اغتيال.

فـي بداية أعوام الستين، عدة حركات تحرير وطنية في العالم الثالث، كانت نمـوذجاً يحتذى عند مؤسسي الأيتا: جبهة التحرير الوطني الجزائرية كانت مصدر

إلهــام خاصــة فــيما يتعلق بالبنية العسكرية للحركة. كما درس المؤسسون أيضاً وحللوا نجاحات منظمات أخرى مسلحة مثل حركة توباماروس.

فــي عــام 62، وفــي مؤتمرها العام الأول، الذي انعقد في فرنسا، عرفت الحركة نفسها على أنها حركة تحرير وطني اشتراكي، وأنها ليست طائفية دينية.

بمرور السنوات، وتعاقب مختلف المؤتمرات العامة (خمسة من 63 – 67) طــورت الحــركة موقفها الاشتراكي العالم ثالثي، وأحياناً ماركسي لينيني خالص وصــلب، النظرية الثورية الباسكية تقوم على " الشعب العامل الباسكي في مسيرته نحــو الاشتراكية بواسطة الحرب الثورية " . المؤتمر العام الرابع للحركة، والذي انعقــد عام 65، وللمرة الأولى في الأراضي الأسبانية، اعتمد آلية : فعل ــ قمع ــ فعل . وهي آلية تستلهم شي غيفادا . السنوات التالية كرست الهوية القومية الباسكية في إطار الثورة الاشتراكية.

الأيــتا نجحــت لــبعض الوقت، في هزّ الديمقراطية الأسبانية، بأن شجعت العناصــر ذات الــتوجهات الإنشقاقية في قطاع الجيش، والذي أثار تدمرهم نجاح التوجه القومي الباسكي على خلفية تسيب السياسيين، وأشعل سخطهم عدم المشاركة في الكفاح ضد " عدو الداخل" .

تعرضــت الأيــتا لعــدة انــشقاقات داخلية، مما أرغمها على إعادة تحديد اســتراتيجيتها، لقــد انتهــى الاســتراتيجيون إلى القناعة بأن التوصل إلى توازن عــسكري مع الحكومة هو وهم. عام 95 غيرت الأيتا خطتها، فصارت تركز على زعزعة استقرار الدولة الأسبانية لإجبارها على الدخول في مفاوضات.

حــول الأيــتا تقوم سلسلة من المنظمات تقدم لها الدعم، معظمها يجتمع في الحــركة القومية لتحرير الباسك M.N.L.P أما الواجهة السياسية فترجع إلى هيري باتاسونا، وعلى المستوى الاجتماعي نجد " مجلس العمال القوميين " ولجنة القوميين الاشتراكيين، ولجان الأحياء، والشباب الجذري المستقل.

بلاد الباسك الفرنسي:

انتـــشار المشاعر القومية الباسكية، في شمال البيرينيهــ الباسك الفرنسي ـــ كـــان يفـــضل تدفق المهاجرين الباسك، بعد احتلال أراضيهم من قبل قوات فرانكو عـــام 1937 . مـــوجه ثانية من المهاجرين، المتكونة خاصة، من عدد من أعضاء الأيـــتا المطلوبين في أسبانيا، وصلت ابتداء من أعوام الستين. التسامح الفرنسي مع المهاجـــرين، خاصـــة من الأيتا، وبما يرجع إلى السمة المضادة للفاشية التي كانت تـــسمم الحـــركة. لكن خطابهم حول الهوية الثقافية الباسكية، والوحدة العرقية بين الباسك الفرنسي والأسباني، أغرى العديد من الباسك الفرنسيين هكذا من بعد ثقافي فولكلوري، عبّرت القومية الباسكية، " بإطراد"، إلى بعد انفصالي.

- النضال الشرعي:

مطالب الحكم الذاتي ظهرت فعلياً من خلال رابطة تأسست عام 1953 على يـــد قـــساوسة وطـــلاب(أنباتا) والتي انزلقت سريعاً من العمل الثقافي إلى النضال السياسي.

الرابطة تدعو وتنظر لقومية باسكية تعبّر عن نفسها في إطار اتحاد أوروبي. وهـــي تنسج شبكة علاقات مع حركات استقلالية أخرى عديدة. كاتالان، أوسيتان، بروتون، والون.

لقـــد صـــاغت مـــشروعها في إبريل عام 63. في بيان عرف باسم " وثيقة اتكاســـو" والذيـــيطالب بحق تقرير المصير والاستقلال لدولة باسكية تجمع السبع مقاطعـــات الباســـكية ـــ فـــي فرنسا وفي أسبانيا ـــ وأن تندمج في اتحاد الأعراق الأوروبي.

التجـــربة صارت اشتراكية ثورية وإدارة ذاتية. في عام 72 ركزت رابطة أنـــباتا على النضال التحرري القومي، ودعت إلى إنشاء جبهة قومية باسكية تجمع كل القوى القومية.

رابطة أنباتا تساند جدياً أعمال الأيتا، وتؤيد العمليات التي قامت بها في عدة

أمــاكن. هــذه المواقــف الداعمــة للعنف أدت إلى حظر نشاطها عام 74 من قبل الحكومة الفرنسية.

- النشاط السري:

حــل الرابطة وحظر نشاطها سارع في تطرف جماعات قومية صغيرة، منذ عام 76 بدأت عمليات عنف استهدفت ممثلي الدولة " المستعمرة" والمسؤولين على الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي الذي تتكبده بلاد الباسك.

حتى عام 80 عملت هذه الجماعات على تفادي سفك الدماء، لكن هذا الخط قطع بمحاورة اغتيال زوجة نائب مدير الأمن في بابون عام 1980 .وكذلك اغتيال عنصري بوليس عام 1952 وعنصر آخر عام 83.

العلاقــات بــين هذه الجماعات الباسكية الفرنسية ومنظمة الأيتا، الأسبانية، كانــت لــوقت طويل متوترة . وذلك لأن المنظمة السرية الأسبانية كانت تعارض الكفــاح المسلح في بلاد الباسك الفرنسي، عمليات النشطين الباسك الفرنسيين، تفسد عليها هدوء مناطق تستخدمها في انسحابها كقواعد خلفية.

في بداية أعوام التسعين، إحدى أهم جماعات الباسك الفرنسي جرى تفكيكها على يد قوى الأمن.

بالــتوازي مــع هــذا العــنف، فإن المعركة دارت على المستوى الثقافي والسياسي. الهوية الثقافية واللغة الباسكية جرى نشرهما بواسطة مدارس تعلم اللغة الباســكية، عام 1997 دراسة أجراها المعهد الثقافي الباسكي. أطلقت صرخة إنذار فيما يتعلق بوضع اللغة الباسكية.

لقــد أظهــرت الدراســة أن 10% من الباسك، من سن 16 – 24 . فقط يــتحدثون الباســكية. عــندئذ عدة جماعات وروابط قدمت دعمها للقضية القومية الباسكية. وما سهل عليها المهمة أن القانون لا يمنع إنشاء مدارس خاصة مستقلة.

فــي نهاية عام 1998 . الحزب القومي الباسكي PNB، وهو فرع فرنسي مــن P.N.V الأســباني، ومــن المعتدلــين، أكد أن تأسيس مقاطعة بلاد الباسك ــ

محافظـــة – هـــو أحـــد ثلاثة محاور ذات أولوية، مع التطوير الاقتصادي للمنطقة وتوسيع استخدام اللغة الباسكية.

إذا كانـــت الحـــركة القومية الباسكية أغلبية في بلاد الباسك الأسباني، فإنها تظـــل هامشية في بلاد الباسك الفرنسي . في بلاد الباسك الفرنسي الهوية الباسكية قوية، لكن لا يوجد شعور بمعاملة ميزيةـــ سلبية ـــ من السلطات المركزية.

مـــنذ أعوام الستين، تشكيلات قومية باسكية مختلفة، لم تحصل إلا على من 5- إلـــى – 1% من الأصوات . لكن هذا لا يعني نهاية العنف. في بداية 1996، جماعـــة باســـكية فرنسية، قطعت شهوراً طويلة من الهدنة. هذه الجماعة يبدوا أنها تقاربـــت مـــع الأيتا الأسبانية، وأنها بالتالي صلبت مواقفها . عام 97 –98 أعلنت مسؤوليتها على سلسلة عمليات ضد وكالات مصرفية ترفض إصدار شيكاتها على مصارف باسكية، وضد إدارة الضرائب في ربيع عام 98 .

في نهاية أكتوبر علقت هذه الجماعة أعمالها ضمنياً، بأن أعلنت أنها تريد " أن تلاحـــظ دون أن تـــزعج" هـــذا الموقف مترتب على الهدنة التي أعلنتها الأيتا الأسبانية. لكنها مع ذلك حذرت الدولة الفرنسية ضد مخاطر جمود الوضع.

– الفاعلون:

قـــيادة الجماعات المنشقة الفرنسية تأسست عام 73، من خلال رابطة ثقافية، فـــي الـــسنة التالـــية حصلت على دعم المتشددين في حركة أنباتا، هذه القيادة تعلن نفـــسها مـــنظمة اشـــتراكية ثورية من أجل التحرير القومي، وفي عام 83، حددت الحكم الذاتي الحقيقي والتام على أنه أول هدف مطلوب قبل السير نحو الاستقلال.

مـــنذئذ لـــم تـــتوقف عن المطالبة بحق الشعب الباسكي في تقرير المصير، والعفـــو عـــن السجناء السياسيين، وبسياسة تطوير اقتصادي، ونهاية التركيز على السياحة.

حـــزب E.M.A – حـــركة ابيرتزال – يعتبر واجهتها السياسية، وهو يقوم بإصدار أسبوعية.

- **أباريتاراك :**

هــذه المــنظمة تبدو أنها الفرع الفرنسي للأيتا العسكرية. **وهي تضم حوالي** مــئة عضو، حفنة منهم فقط تشارك في العمليات. وقد أعلنت مسؤوليتها على أكثر من 200 عملية، وحملت مسؤولية أربع عمليات اغتيال، سنوات 91- 92، شهدت تزايد العمليات ضد سماسرة العقارات والسياحة.

بعــد أن كانــت تتحول من عمليات السطو، عمدت إلى تحصيل رسوم من أعضاء مختلف الروابط القومية. وإذا كانت في البداية قد تسلحت بديناميت مسروق مــن أمــاكن العمل، وبأسلحة صيد، إلا أنها تبدو **في السنوات الأخيرة قد تسلحت** بمتفجرات وأسلحة متطورة.

لكــن الحركة ضعفت جداً **بفعل قوات الأمن، القادة الرئيسون، اعتقلوا، مثل** **القائد التاريخي** فيليب بيدار، عام 88 . **والذي حكم عليه بالسجن المؤبد.**

- **باتـكسا :**

هــذه الجماعة القومية الفوضوية، ظهرت عام 1986، **تجمع شباباً فوضوياً** قــريباً مــن الحركة القومية الباسكية، **يقودها** ابن أحد مناضلي الأيتا المسجون في فرنسا .عام 93 تبنت النضال المسلح.

- **فازتيرياك :**

وهــي المُنَاظِر الفرنسي لحركة الشباب القومي لبلاد الباسك **الأسباني القريبة** من الأيتا.

التوقعات

القومــية الباسكية تناضل من أجل الاعتراف **بهويتها وباستقلالها منذ أعوام** الخمــسين، لكــن فــي مواجهة الدولة الأسبانية والفرنسية، **هذا النضال ظل بدون** نجاحات تذكر.

اليوم ثمة عوامل في صالح القومية الباسكية:

1- دمقـــرطة الحياة السياسية في أسبانيا، بعد فرانكو، والأخذ بالتعددية، ولو فـــي شـــكلها التقليدي، قلص السلطان المركزي، ومنح فرص الازدهار والانتعاش لقـــوى القاعـــدة الاجتماعـــية فـــي بلاد الباسك. وبقدر ما تتراخى قبضة المركزية الـــسياسية، فـــإن عـــوامل الربط الاجتماعي ــ الثقافي والعرقي ــ تتقوى . وعلى خـــلاف مـــا توقّعه كثيرون، من أن دمقرطة الحياة السياسية في أسبانيا سوف يقود إلـــى إفقـــاد الحـــركة القومية الباسكية مبررها الذي كان مكافحة الفاشية، فإن هذه الدمقـــرطة، وأن أفقـــدت العنف مبررة، فإنها أتاحت لعوامل الربط الاجتماعي أن تعبِّر عن نفسها، وأن تظهر علناً وتمارس دون خوف . في هذه الحالة ربما العمل السياسي والثقافي سوف يحقق ما لم يحققه الكفاح المسلح.

هذه الخلاصة نستقيها من نظرة على أوضاع الباسك الفرنسي، البعض يعزو عـــدم تفـــاقم العـــنف، رغم أنه موجود، إلى عراقة الديمقراطية الفرنسية، وانفتاح المجـــتمع الفرنـــسي – نـــسبياً – أكثر من المجتمع الأسباني، وإلى التسامح الثقافي النـــسبي الذي يسمم المجتمع الفرنسي، على خلاف التزمت الأسباني، لكن هذا وإن جعـــل العنف بدون مبرر، إلا أنه مع ذلك لم يمنع انتعاش وانتشار المشاعر القومية الباســـكية. أضف إلى هذا أن مساحة بلاد الباسك الفرنسي لا تزيد عن ربع مساحة بـــلاد الباســـك في مجملها. كما أن الباسك الفرنسيين لا يمثلون إلا ربع مليون من ثلاثة ملايين باسك.

وهذا يعني أن مصير بلاد الباسك يتحدد أولاً في بلاد الباسك الأسباني، وما ينجز هناك ستكون له بدو نشك انعكاسات على بلاد الباسك الفرنسي.

تقلـــص الـــسلطان المركزي بفضل الديمقراطية، والتوجه نحو اللامركزية، تضاف إليه الخوصصة المتزايدة، وخاصة في مجالات التعليم والثقافة والإعلام، أن كف يد الدولة يطلق العنان للقوى القومية الباسكية لإنشاء المدارس التي تعلم باللغة الباســـكية، وكذلك الصحف، وحتى الإذاعة والتلفزيون، وإذا كان من الصعب تعليم اللغـــة الباسكية في المدارس العامة، فإن المدارس الخاصة تكون مجالاً مهيئاً لتعليم

اللغة الباسكية . لقد بدأت حركة تأسيس مدراس سرية لتعليم اللغة الباسكية، الخوصصة وتلقص سلطان الدولة يلغي الحاجة إلى السرية، ويفتح المجال واسعاً للعمل الثقافي والتربوي الذي يقوي لحمة الانتماء القومي، ويحقق التفافاً أوساع حول المطالب القومية.

السلطات المحلية في بلاد الباسك، رغم ولائها للسلطان المركزي، دستورياً، إلا أنها لأسباب انتخابية، أو تعاطف قومي، أو حتى رغبة في مهادنة الشارع الباسكي، قد تغضي النظر، وتترك النشاط الثقافي والإعلامي طليق العنان.

إن ما أشرنا إليه سوف يقود، بإطراد، إلى تأكيد الهوية الباسكية وخصوصياتها، أولاً على المستوى الاجتماعي الثقافي، حيث ستزدهر الروابط والجمعيات من كل نوع، ومن ثم سيكون سهلاً الامتداد إلى المستوى السياسي. والذي يبدأ بقدر من الحكم الذاتي، ثم لا يلبث حتى يفضي تدريجياً إلى الاستقلال كأمر واقع.

هذا المسار الذي ستتخذه الحركة القومية الباسكية في بلاد الباسك الأسباني، سيظل معاقاً مالم يوازيه مسار مماثل في بلاد الباسك الفرنسي، ليلتقيا في وحدة بلاد الباسك.

هذه الوحدة يعيقها حالياً عاملان :

1- قلة عدد الباسك الفرنسيين (1.5 من مجموع الباسك) وصغر مساحة بلاد الباسك الفرنسي($\frac{1}{7}$ تقريباً من مجمل بلاد الباسك). يجعل الباسك الفرنسيين أقلية غير مؤثرة بشكل كبير، في محيط من الثقافة، والهوية الفرنسية، ويجبرهم، بسبب ضرورات الحياة المشتركة. على قدر من الاندماج في محيطهم، حتى وإن ظلت مشاعر الانتماء إلى الهوية الباسكية حية.

2- الحدود الدولية - حتى الآن - الفاصلة بين جانبي البيرينيه، بين بلاد الباسك الأسباني والفرنسي، وما يترتب ذلك من أوضاع قانونية.

هذان العاملان المعيقان لوحدة الباسك مرشحان للاختفاء :

1- دخول أسبانيا إلى السوق الأوروبية، التي صارت الاتحاد الأوروبي، أدى إلى مرونة الحدود بشكل كبير، بحيث لم تعد عائقاً حقيقياً يحول دون اتصال وتواصل الباسك على جانبي البيرينيه، ولم تعد تمنع الانتقال، والتبادل الثقافي والإعلامي، والخبرات والتجارب، هذه المرونة أدت، منذ الآن إلى أن تصبر بلاد الباسك، بقسميها الأسباني والفرنسي، فضاء واحداً.

2- العولمة الجارية، مع ما يواكبها من تقليص سلطان الدولة الوطنية، وليس فقط الدولة المركزية، ومرونة الحدود حتى اختفائها والخوصعة المتسارعة كتعبير عن تراجع السلطان المركزي والوطني، سوف تقضي على البقية الباقية من الدولة الوطنية ومؤسساتها وحدودها.

تآكل الدولة الوطنية، وتقلص سلطانها، بما في ذلك حدودها، يقود إلى اختفاء الحدود الفاصلة بين الباسك الفرنسي والأسباني، وتآكل الهوية الأسبانية والفرنسية، كهوية وطنية، مع الأوضاع القانونية المترتبة عنها، سوف يحل محلهما - عند الباسك - الهوية الباسكية.

اليقين من اختفاء الدولة الوطنية، بفضل تأثيرات العولمة، والتي بدأت تعمل عملها في أوروبا من خلال الاتحاد الأوروبي، دفع كثيراً من الساسة والعلماء والمثقفين إلى تبني شعارات بديلة عن الدولة الوطنية.

الاتحاد الأوروبي هو، حتى الآن، اتحاد دول وطنية . لكن هذا الاتحاد تحت ضغط منطقه الخاص، الذي يقود بإطراد إلى تقليص سيادة الدول الوطنية لصالح سيادة الاتحاد، مقروناً بضغط العولمة، يقود إلى اختفاء الدول الوطنية، وينتهي بأن يحل محل أوروبا اتحاد دول وطنية، أوروبا اتحاد قوميات.

هذا يعني أن الخارطة السياسية لأوروبا مرشحة للتعبير، الحدود السياسية الوطنية تختفي، الفواصل بين القوميات تزول، لكن أوروبا لن تبقى فضاء بدون معالم، على انقاض أوروبا الدول الوطنية ستظهر أوروبا القوميات - الشعوب.

فـــي أوروبـــا هذه ستكون القومية الباسكية رائدة، وستجر وراءها الكاتالان، والأوسيتان، والبروتون، والوالون، والكلتالون...الخ.

هـــامـش

انظر : قاموس الصراعات – ص 1485 – 1500 .

إشراف : جان مارك بالأنسى وأرنود دولاقرانج.

تقديم : جان كرسيتوف روفان.

نشر : ميشالون 1999 .

اللومون : تطهير أديولوجي في بلاد الباسك 19 .20 /2000/11

مساحة مجمل إقليم الباسك 20.550 كم2.

منها : 2900 كم2 باسك فرنسي.

عدد السكان : 3 مليون.

منهم : 245 ألف باسك فرنسي

الفصل الثامن

الصين: إلى أين ......؟

(1)

رغم أن أحداث تيانمين، ربيع عام 1989، كانت في نظر كثيرين مناسبة قمع دام، إلا أن الصين، قياساً ببقية بلدان آسيا، تبدو نسبياً، على الأقل حالياً، معفاة من مشاكل التمرد والاضطرابات الداخلية الخطيرة.

التناقض هكذا يبدو واضحاً، مقارنة بالأوضاع السائدة في عملاق آسيا الأخر، الاتحاد الهندي، حيث الأحداث الدامية اليومية، تغذيها التوجهات الانفصالية. في الصين لا نكاد نجد شيئاً من هذا، باستثناء ظهور اضطرابات بين الحين والآخر، في كزنجيانق وفي التبت. الأمر في هاتين يتعلق بمجموعتين واقعيتين في أطراف الفضاء الصيني، والمهمشتين من عدة نواحي، واللتين يتكبدان، في عدة مظاهر، وضعية " شبه استعمارية " .

حيث الديمقراطية في الهند تتيح تكون عشرات بؤر التوتر التي تضع وحدة واستقرار الهند موضع سؤال، فإن القبضة الحديدية لقاعة بكين تتيح لحوالي خمس الإنسانية أن يكونوا، حتى اليوم، في منأى عن العنف السياسي.

الاستقرار النسبي الذي يبدو أن الصين تتمتع به، يتناقض مع الأسلوب الذي تكون به النظام الحالي في بكين، هذا النظام استولى على السلطان عام 1949 في خاتمة الحرب الأهلية الأطول، والأكثر دموية التي عرفها القرن العشرون.

خلال سنوات الصراع هذه، وبدفع من ماوتسي توفق، أحد قادة حرب العصابات، وأكثرهم خطراً، اكتسب الحزب الشيوعي الصيني P.C.C خبرة قيادية، وصار قدوة لعديد من الحركات.

لكن مع مرور الزمن " بؤرة الثورة الرئيسة" في العالم، تحولت إلى أكبر سوق عالمي، ويمكن أن تصير، في القرن القادم، القوة الاقتصادية الأولى في العالم، إذا صدقت بعض التوقعات.

التغيير الكبير في دور الصين في العالم، نشأ عن التوجهات الاقتصادية الجديدة، التي جرى تبنيها ابتداءاً من عام 1978. بدفع من دينق كسيا بيق، الذي كان مهتماً بوضع حد لما يراه تخبطات المرحلة الماوية.

في حوالي خمس سنوات، هذا الانحراف الكبير، كان في صالح انفتاح البلاد على العالم، وأدى إلى تغيرات كبيرة، والتي أثارها الاقتصادية والسياسية والبشرية لم تتضح بعد بكاملها. مع ذلك من الممكن، من الآن فصاعداً، أن نشير إلى آثارها الاختلالية على مجموع المجتمع الصيني، من هنا الاستقرار الحالي الذي تتمتع به الصين لا يجب اعتباره غير قابل للتغيرات.

- ضعف إمبراطورية الوسط:

متكونة من 30 مقاطعة، و56 قومية، حتى لو أن إحدى هذه القوميات: الهان، تمثل الأغلبية، فإن الصين بلد المتناقضات:

ظهور سلسلة من المشكلات المترتبة على تحديث الاقتصاد على خلفية انبعاث تاريخ موسوم بالاضطرابات والانقسامات والذي يجعلنا نتوقع لها مستقبلاً صعباً.

إذا أخذنا بما تذهب إليه بعض البحوث، التي ظهرت منذ بداية سنوات التسعين (صادرة عن معهد الاستشراف الياباني، والبتاغون وبحاث صينيين وغربيين) فإن الصين يمكن أن تصير في القرن القادم البؤرة الأساسية للتوترات في شرق آسيا.

بالطبع هذا التحليل لا يلقى إجماع كل المختصين بالدراسات الصينية. ويدور حوله نقاشاً حامياً. إلا أن هذا ا الاقتراب التشاؤمي، بالنسبة للصين، يمكن اعتباره

ممكناً، أنه يقوم على افتراض عدة سيناريوات، قليلاً أو كثيراً، كارثية، كما تختلف في احتمالات صدقها. الاقتراب التشاؤمي يتمحور حول موضعين أساسين:

1- الانهيار الاقتصادي المترتب عن فشل سياسة تحرير الاقتصاد.

2- التمزق السياسي الذي يؤدي إلى ظهور عدة كيانات متميزة والأكثر دموية التي عرفها القرن العشرين.

خلال سنوات الصراع هذه، وبدفع من ماوتسي توفق، أحد قادة حرب العصابات، وأكثرهم خطراً، اكتسب الحزب الشيوعي الصيني P.C.C خبرة قيادية، وصار قدوة لعديد من الحركات لكن مع مرور الزمن " بؤرة الثورة الرئيسة" في العالم، تحولت إلى أكبر سوق عالمي، ويمكن أن تصير، في القرن القادم، القوة الاقتصادية الأولى في العالم، إذا صدقت بعض التوقعات.

التغير الكبير في دور الصين في العالم، نشأ عن التوجهات الاقتصادية الجديدة، التي جرى تبنيها ابتداء من عام 1978. بدفع من دينق كسيا بيق، الذي كان مهتماً بوضع حد لما يراه تخبطات المرحلة المادية.

في حوالي خمس سنوات، هذا الانحراف الكبير، كان في صالح انفتاح البلاد على العالم، وأدى إلى تغيرات كبيرة. والتي آثارها الاقتصادية والسياسية والبشرية لم تتضح بعد بكاملها، مع ذلك من الممكن، من الآن فصاعداً، أن نشير إلى آثارها الاختلالية على مجموعة المجتمع الصيني، من هنا الاستقرار الحالي الذي تتمتع به الصين يبدو هشاً، أو على الأقل لا يجب اعتباره غير قابل للتغيرات.

3- الفرضية الأخيرة، تعتمد على شواهد في التقاليد التاريخية العريقة. حيث تتأرجح الصين، بشكل دائم بين فترات الوحدة وفترات التمزق، واستعادة الوحدة.

- الانحراف نحو الرأسمالية:

الصين في سنوات التسعين، عرضة لبعض التوجهات الكبرى، والتي آثارها الاختلالية، وإن كانت كامنة حتى اليوم، يمكن أن تأخذ أبعاداً جديدة، خاصة بسبب

الأزمة التي تهز حالياً مجموع آسيا الشرقية، وتؤثر سلباً على توقعات التطور والنمو في الصين. هكذا أكثر من الاضطرابات الانفصالية، التي تهز التبت والزنجيانق، فإن تطور عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية هو مصدر التهديد الذي يواجه مستقبل البلاد.

-التلاشي التدريجي للدولة:

التوجهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة، المتبناة في نهاية سنوات السبعين، أدت إلى تراجع واضح لدور الدولة في تطور المجتمع الصيني، تاريخ الصين يبرهن على أن ضعف الدولة المركزية هو علامة لأسوأ الكوارث.

- مؤشرات ضعف الدولة عديدة:

فقر البيروقراطية، تفكيك القطاع العام، تخلي الدولة عن دورها كمنظمة للعلاقات الاجتماعية، الوضع موضع سؤال المكتسبات الاجتماعية للعمال، تخريب النظام الضريبي، صعود أصحاب نفوذ محليين، وسلوكهم التعسفي، تفشي الفساد في كل مستويات المسؤولية، البزنسة المتزايدة في صفوف الجيش، والذي يحاول النظام استعادة السيطرة عليه، تحرر أو انعتاق – أديولوجي ومادي معاً – فئة من السكان، هذه الفئة تبدو لا مبالية أو حتى مضادة، وفي الغالب تتجاهل تعاليم ما والتي فقدت قيمتها.

هذه القطعية مع الدولة ومع الماوية – تدخل الاضطراب في عمق أداء المجتمع والمعاش اليومي لمليار صيني، ربما للأحسن وربما للأسوأ .

- عودة ظهور توجهات انفصالية:

على غرار الصين عام ثلاثين، الممزقة في عدة إمارات، تحت سلطة سادة الحرب، فإن الصين أعوام التسعين يمكن أن تتمزق تدريجياً في عدة كيانات متميزة، وفقاً لعلاقات القوة الاجتماعية، الاقتصادية غير المتساوية. هوة بدأت تظهر وتتعاظم بين المقاطعات التي نجحت في انطلاقها الاقتصادي، خاصة

المقاطعات الساحلية، حيث يتركز القدر الأساسي من الاستثمارات الأجنبية (مثل قاندونق وفوجيان) وبين المقاطعات الريفية، في الدواخل، والتي لازالت متخلفة كثيراً (مثل قانو، كبنقاي، شانكسي)

عدة مؤشرات (رفض القيادات المحلية تحويل الضرائب إلى الدولة المركزية)

(صراعات ونزاعات مصلحية بين المقاطعات) تظهر أن بعض قيادي المقاطعات الغنية، أخذوا يترددون، أكثر فأكثر، في التضامن المالي مع المقاطعات الفقيرة، ومع المركز.

التفاقم السريع للتفاوت بين المقاطعات، يشجع ظهور اختلاف المصالح بين البيروقراطيات المحلية، وحتى نزاعات ما بين المقاطعات.

اختلافات جدية يمكنها هكذا أن تقود إلى مواجهة بين الإدارات المحلية، مثلاً موضوع السيطرة على المياه، وتدفق الهجرة المحلية، والحصول على الاستثمارات الأجنبية.

هكذا حرب حقيقية، حرب الرز، في بداية أعوام التسعين، جعلت في المواجهة مقاطعة قاندونق مع مقاطعة هونان، مما يبرهن على تلاشي المصلحة العامة لصالح المصالح المحلية، نفس الشيء ثمة عناصر تناقس حاد يقود إلى المواجهة بين بكين وشانقاهاي وحتى كانتون أو هونج كونج، والتي يسعى كل منها لأن يكون المدينة النموذج للصين في القرن القادم، وأن يكون مركز الجذب الاقتصادي الجديد، وربما أيضاً عاصمة اقتصادية للبلاد في المستقبل.

الهيمنة التاريخية والحالية لبكين بدأت توضع موضع سؤال، من قبل عدة مدن – موانئ – والراغبة في التخلص من وطأة وصاية بكين. بعض المقاطعات، مثل قاندونق، القوية بسكانها الستين مليوناً، وبقربها من هونج كونج، يمكنها أن تبحث عن الاستقلال على أمل أن تصير النمر الاقتصادي الجديد في شرق آسيا.

ظهور هذه المشاعر الانفصالية، المتنوعة الحدة، تعطي مصداقية لفرضية تفكك الوحدة الوطنية.

- أزمة الأرياف:

آثار سياسة تحرير الاقتصاد أدت إلى لا مساواة عميقة بين السكان، هذه اللامساواة ملاحظة بشكل خاص بين الطبقات الحضرية الصاعدة، المسماة " يوبي" والمستفيدة من المسيرة نحو الرأسمالية، وبين الجماهير الريفية والعمال. لبعض الوقت كانت سياسة تحرير الاقتصاد في صالح الفلاحين – حوالي 900 مليون – لكنهم صاروا، بعد ذلك أول الخاسرين في الانحراف نحو الرأسمالية.

انهيار الاشتراكية الريفية، تدني مستوى معيشة الفلاحين، تفاقم اللامساواة المحلية، عبّرت عنه ظاهرة مزدوجة.

- تضاعف انتفاضات الفلاحين (أكثر من 6300 حادثة جرى تناولها في الصحف الصينية عام 93). هذه الانتفاضات كانت أساساً رد فعل تلقائية ضد الفساد المعمم، وضد استغلال السلطات من قبل السلطات المحلية، خاصة في موضوع الضرائب.

هذه الانتفاضات، مع أنها ظواهر ترتبط – غالباً – بظروف محلية، إلا أنها، مع ذلك، يمكن أن تقود إلى حركات ذات أبعاد أكبر، مثل تلك التي تفجّرت في منطقة رنشو، في مقاطعة سيشوان في يونيو 1993، والتي عبأت لعدة أيام، أكثر من عشرة آلاف فلاح غاضب، أو سلسلة الاضطرابات التي حددت خلال الفصل الثاني من عام 1995، في شانكسي، هينان، وهونان.

هكذا الأسباب المحلية يمكن أن تقود إلى أسباب تتجاوز ما هو محلي.

- تزايد الهجرة من الريف، هذه مست حوالي 20 مليون شخص عام 1993، 94. وبدون شك 30 مليون عام 95. قسم فقط من هذا التدفق البشري نجح في الاندماج، بشكل سليم، في المدن الكبرى، الآخرون ليس لهم من فرصة إلا اللحاق بصفوف السكان الموصوفين " بالعائمين" أي الذين تتقاذفهم الطرقات، والذين يقدر عددهم عام 95 ما بين 100 إلى 150 مليون فرد.

هذا الجيش الضخم من المهاجرين، يحاول التكدس، بشكل أو بآخر مؤقتاً،

في المراكز الهائلة والمكثفة، قبل أن تطردهم التعاسة أو السلطات. ليس لديهم ما يخسرونه، هذه الجموع العائمة، عرضة للانحراف، وهؤلاء الفلاحون المفقرون، يصير من السهل استغلالهم في تفجير الاضطرابات عندما تظهر الحاجة لذلك.

تضاعف مؤشرات عدم استقرار حاد:

- ازدهار الجريمة:

تفاقم البطالة، والتي وفق بعض التقديرات تصل إلى 20% من السكان الحضر، الهجرة الريفية، ازدهار الفساد، انهيار القيم الأخلاقية، قاد كل هذا إلى ارتفاع صارخ لمعدلات الجريمة. هذه ازدادت حوالي 20% سنوياً منذ بداية حقبة التسعين. أعداد كبيرة من الأفراد، معظمهم من الفلاحين السابقين، دمرتهم التحولات الاجتماعية الاقتصادية، لم يعد أمامهم من بديل، إلا السقوط في الجريمة الفردية، أو الالتحاق بمجموعات الجريمة المنظمة مثل منظمة " الترياد الشهيرة.

بسبب تفاقم ظاهرة الهجرة الداخلية، انتشر عدم الأمان على طول المحاور الأساسية للمواصلات، وفي المراكز الحضرية الكبرى. في الأرياف عصابات إجرامية تقطع الطرق، تبتز وتسلب المسافرين، بينما مجاري الماء - الأنهار - والسواحل صارت مسرحاً لجرائم قتل على يد قراصنة أكثر فأكثر تنظيماً، وأكثر فأكثر جرأة.

السلطات، كردة فعل ضد هذه الظواهر، بدأت سياسة قمعية تتسم باللجوء، في أحيان كثيرة، إلى الإعدام، الصين في هذا المجال تسجل رقماً قياسياً عالمياً: في السنوات الأخيرة. الأرقام الرسمية لم تتوقف عن التضخم (2050 عام 94 . 2535 عام 95) لكن كشف الحساب هذا لا يعكس إلا بشكل ناقص الواقع الحقيقي.

بعض التقديرات تذهب إلى أن الإعدامات ثلاث مرات أكثر مما أعلن عنه.

في شهر إبريل سلطات بكين أطلقت حملة كبيرة ضد الجريمة، هذه الحملة ربما لها ما يبررها، لكن صفة جريمة يمكن أن تستخدم أحياناً غطاء لاستعادة السيطرة السياسية في المناطق حيث تظهر التوجهات الانفصالية، مثل

مقاطعة كزنجيانق. خلال أربعة أشهر أكثر من 1500 شخص أعدموا، بعضهم بسبب جنح بسيطة.

هذه الحملة المسماة: " ياندا" أي " اضرب بقوة " هي ثمرة سياسة متعمدة تهدف إلى إرهاب السكان، وضمان خضوعهم وفقاً للمبدأ الصيني القديم القائل: " اذبح الدجاجة لكي تخيف القرد " .

- تصلب المناخ الاجتماعي:

التحولات الاجتماعية الاقتصادية في السنوات الأخيرة، أدت إلى تصلب صارخ في العلاقات الاجتماعية. تفاقم البطالة، انهيار الضمان الاجتماعي، تدني شروط المعيشة ومستوى الحياة، انهيار ظروف العمل، انخفاض الدخول....الخ ساهمت في إثارة السخط والشعور بالقهر في أوساط العمال وجماهير الفلاحين. الاحصائيات تشير إلى تزايد الاضطرابات الاجتماعية بمقدار 50% ما بين عام 92 و93 أي حوالي 12 ألف حادثة جرى حصرها. وإلى الاضطرابات العنيفة وعمليات السلب يضاف تعدد الاعتداءات المستهدفة أطر الحزب الشيوعي والموظفين، خاصة موظفي الضرائب. كذلك ازدياد الأعمال الإرهابية: تخريب البنية التحتية، اغتيال أفراد قوات الأمن أو الجيش، تدمير الجسور، هجومات ضد مبانٍ رسمية حكومية....الخ.

مثل هذه الأحداث، الواردة بانتظام في الصحف الصينية، تقود إلى رسم لوحة سوداء للواقع الصيني، كما أنها ذات طبيعة تمثل تقريباً ارهاصات تمرد. الأرقام عام 93 تشير إلى أن أكثر من 8200 شخص قتلوا أو جرحوا خلال الاضطرابات. ذات الطبيعة المتنوعة، التي وقعت في الأرياف، من بينهم 345 موتى من قوات الأمن. هذه الإحصائية تبدو هامشية بالنسبة لعدد سكان الصين، لكنها تكشف عن أزمة اجتماعية، والتي لا يمكن في المدى إلا أن تطال المجال السياسي.

أفعال العنف هذه، من حيث تكرارها، وأبعادها، هي أكثر من كونها حدث عادي، لكن مع ذلك، ليس من الممكن بعد تحليلها على أنها أفعال ذات بعد سياسي أنها تخضع حتى الآن لدوافع اضطرابية: من تصفية حسابات مافيوية إلى التذمر

التلقائي عند السكان، مروراً بأفعال الجماعات المعارضة السرية ذات الهويات والأهداف المجهولة أو على الأقل أكثر تعقيداً من أن تدرك.

- تكون مناخ سري:

بالتوازي مع ارتفاع معدلات العنف الداخلي في المجتمع الصيني، تواجه سلطات بكين أنماط، منذ بضع سنوات، ظهور أنماط من الحركات الجديدة، أو الجماعات الفاعلة في المجال السياسي والاجتماعي والديني، والتي ليس لها عليها أي سيطرة. هؤلاء الفعلة الجدد، يشكلون، :كأمر واقع، شكلاً من " ضد - المجتمع" الذي يجمع الانتهازية والمستبعدين من الإصلاح الاقتصادي، ويربط بين مطالب الحداثة والمرجعية التقليدية.

هذا المناخ السري يتكون من ناحية من جماعات الانشقاق السياسي، والباقين أو ورثة احتجاجات تيانمين. يشهد على تزايد الاحتجاج المطالبة بالديمقراطية، والذي ظهر خلال تنحي دينق كسيا ونيق. هذه المجموعات عددياً قليلة. تجند إتباعها خاصة من بين الطبقات الحضرية ذات المستوى المعيشي الجيد والمتعلمة، والتي تولدت عن النومينكلاتور الشيوعية - المتنفذين - أو من بين البورجوازية الصاعدة. بسبب الانفتاح الاقتصادي، هذه الجماعات تملك مظلة واسعة من التقنيات المتقدمة: فاكس، حاسوب، هواتف متنقلة، صحون أقمار صناعية، القدرة على استخدام الإنترنت، لكي تتصل بالعالم وبالأفكار الخارجية، ومن أجل نشر مطالبها والأعلام بمحركتها في حالة موجة جديدة من الاضطرابات المطالبة بالديمقراطية. أنها هكذا تستطيع الاستفادة من عدة جماعات عمالية غير رسمية، والتي انتشرت خلال السنوات الأخيرة خاصة في المقاطعات الساحلية، هذه الجماعات تجند أنصارها من بين الإجراء.

إلى هذه الحركات التقليدية، جماعات سياسية أو عمالية، والتي تجد جذورها في الصين، والتي لأعضائها دخول، أو على الأقل يعملون، من المناسب أن نضيف عدة أصناف أخرى من الحركات الأكثر تجذراً في التقاليد الصينية، والتي تحبّذ أن يكون أنصارها من بين المستبعدين من الإصلاحات والمحبطين. المهاجرين

الفقراء، الذين يشكّلون السكان العائمين، يتجهون إلى التجمع في جمعيات سرية قديمة، والتي بدأت في الظهور، أو في جمعيات تبادل الحماية التي ظهرت حديثاً، في الأرياف بدأت السلطات تقلق أيضاً بسبب انبعاث جمعيات قديمة سرية، وظهور طوائف تأوسية جديدة بين الفلاحين، وجمعيات ذات سمة مسيحية، هذه الجمعيات تتبنى عقائد عتيقة وسلوك مضاد للنظام القائم.

في الوقت الحالي، هذه الجماعات ليس لها تأثير إلا محلي، وبدون أي توجه يتجاوز المحلي. لكن ازدهارها في محتوى اجتماعي واقتصادي مضطرب يدفع إلى التفكير في إمكانات تطورها في صين فريسة انعدام اليقين.

(2)

- الكزنجيانق:

الكزنجيانق، أو الحدود الجديدة في اللغة الصينية، ويطلق عليه أيضاً تركستان الصينية، أو تركستان الشرقية، هو فضاء واسع يمثل فاصلاً بين العالم الصيني وسهول آسايا الوسطى، ويمتد حوالي *1.6* مليون كم2. ينقسم جغرافيا إلى حوضين واسعين، تفصلهما سلسلة تيانشان: حوض دزونقارى، الجزء الغربي من منغوليا الصينية، وحوض تاريم المسمى قديماً كاشقارى، الواقع على الطرف الغربي من الفضاء السياسي الصيني، لكنه في قلب القارة الأسيوية.

هذه المنطقة الصحراوية والتي تنتشر فيها الواحات، ذات قيمة استراتيجية كبرى بالنسبة لسلطات بكين. كما تحتوي على ثروات نفطية ومعدنية هائلة لم تستغل إلا جزئياً حتى اليوم. كما يوجد فيها جزء من القدرات النووية الصينية، كما أنها كانت دائماً حاجزاً يحمي العالم الصيني في مواجهة الأخطار الآتية من الغرب، سواء من روسيا في فترة الاستعمار، أو من الاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة، وخلال إعادة تشكيل آسيا الوسطى الذي نتج عن انهيار الاتحاد السوفيتي خلال الخمسة عشر سنة الماضية، الكزنجيانق هذا اجتاحته انتفاضات استقلالية. مع أن هذه الانتفاضات حدثت متفرقة، وذات أهمية محدودة. إلا أنها كانت بما يكفي لإثارة قلق السلطات الصينية.

- **هوية خاصة:**

الحضور الصيني شوهد، فيما صار يسمى كزنجيانق حالياً، منذ بداية التاريخ الفرنجي، لكن السيطرة على هذه الأراضي، من قبل الصين، تأرجحت خلال القرون، ولم تكن أبداً فعلية على كامل المنطقة، تتلخص، قبل غزو الماندشو، في السيطرة على بعض المواقع على طول طريق الحرير.

الوضع الحالي يرجع إلى آخر الغزوات، ،التي ترجع إلى القرن الثامن عشر، عندما كانت أسرة ماندشو تعتلي سدة الحكم في بكين. لكن مع ذلك سيطرة بكين على هذه البلاد التخومية لم تكن أبداً حاسمة، لقد تخللتها سلسلطة من الثورات: 1758 - 1765 - 1825 - 1865 - 1878.

وبسبب ضعف السلطان الصيني أوشكت منطقة كزنجيانق أن تسقط عدة مرات تحت سيطرة موسكو، وذلك ما بين نهاية القرن 19 والنصف الأول من القرن العشرين. المحاولة الأكثر جدية لفرض هيمنة موسكو على المنطقة، حرت خلال سنوات الثلاثين، عندما صار الإقليم شبه محمية سوفيتية في نهاية نزاع طويل. خلال هذا النزاع عشرات الجماعات تتقاتل. وفقاً لأساليب تذكرنا ببعض الأوضاع الصراعية المعاصرة في الصين.

في خضم هذه الفوغائية الدامية انتصر شينق شيكاي. وهو ضابط قديم من الكومينتانق، والذي حصل أخيراً على دعم الروس. عند سقوطه عام 1944، الاستقلاليون الويقور والكازاك انتهزوا الفرصة وأعلنوا " جمهورية تركستان الشمالية " بقيادة صفي الدين وبرهان.

لكن صفي الدين وبرهان قررا الالتحاق بالسادة الجدد في بكين عام 1949 شهر أكتوبر، في عام 1955 صار الكزنجيانق" جمهورية الويقور ذات الاستقلال الذاتي".

رغم أن حل جمهورية تركستان الشمالية كان ذاتياً، إلا أن ذكرى هذه الجمهورية المستقلة، ظلت حية في نفوس السكان المحليين، ومرجعية أسطورية تذكر حماس عدة جماعات استقلالية، والتي أعادت تكوين نفسها خلال الأعوام 80، 90 .

هذا المناخ المضطرب، انضافت إليه عدة عوامل خاصة أخرى، والتي منحت الكزنجيانق مكانة خاصة في الجمهورية الشعبية الصينية، فهو يتوجه أكثر إلى العالم الناطق باللغة التركية وإلى آسيا الوسطى التي كانت بالأمس سوفيتية واليوم مستقلة، أكثر مما يتوجه نحو الصين الحقيقية.

- فسيفساء عرقية:

الكزنجيانق ،مع التبت، إحدى مقاطعتين صينيتين، حيث السكان الهان يوازنهم عددياً سكان محليون. من حوالي 16 مليون نسمة، يمثل السكان من غير الهان 50% من السكان. السكان من غير الهان يرجعون، في الغالب إلى أعراق ناطقة باللغة التركية، ومسلمين في أغلبهم: الويقور 8 مليون. الكازاك 1.5 الكرجيز 130 ألف، يضاف إليهم جماعات صغيرة من الأزبك والتاتار. إلى هذه الخلفية التركية الإسلامية يضاف سكان من أصول متنوعة، منغول، طاجيك، وهوى، والذين اعتنقوا الإسلام منذ عدة قرون.

- محاولة دمج سريع:

في عام 1949 نسبة السكان الهان في المنطقة لا تتجاوز 6% .

في عام 1995، حسب المصادر الصينية، صار الهان أغلبية مطلقة.

على غرار الوضع السائد في التبت، تدفق المهاجرين الهان، وهم أساساً من العسكريين والموظفين، الذين تركوا الخدمة العسكرية والوظيفية، إلى الحياة المدنية، وبفضل عمليات نقل سكان، هائلة، فإن يورمكي، عاصمة الكزنجيانق، صارت اليوم مدينة صينية، أكثر من 80% من سكانها من الهان.

السيطرة السكانية الصنية متقدمة خصوصاً في حوض ذزونقارى، بينما وضع السكان المحليين أفضل في حوض تاريم.

هذه النتيجة الهائلة من حيث سرعتها وأبعادها، هي نتاج سياسة متعمدة خططت لها ونفذتها بكين: ميدانياً بواسطة فرقة البناء والإنتاج في جيش التحرير

الشعبي – الصيني – وهو في الأصل وحدة شبه عسكرية مكونة من جنود مُسرَّحين من الخدمة العسكرية، مكلفين بتطوير وتعمير منطقة الحكم الذاتي. هذه الفرقة، مع مرور الزمن، صارت ذات قدرات اقتصادية، ونفوذ، حتى أصبحت شبه دولة داخل الدولة.

من ناحية أخرى، في نهاية ما عرف بالثورة الثقافية، استخدمت منطقة تزنجيانق منفى لأعداد كبيرة من الشباب " المتمردين " والذين لم يرجع معظمهم إلى مناطقهم الأصلية، وفضلوا البقاء في تزنجيانق.

– تطور غير عادل سبب عدم الاستقرار:

الجهود التي قامت بها بكين لتطوير المنطقة كانت أولوية الاستفادة منها للسكان المستقرين فيها حديثاً، الهوة بين مستوى حياة " المعمرين " الهان ومستوى حياة السكان المحليين، تؤكد تطور منفصل بين الجماعتين، وتشهد على وضعية استعمارية حقيقية. ترتب على هذا تعايش صعب بين الهان والسكان المحليين، والذي أدى إلى القهر والنزاعات بين الجماعتين، سواء للسيطرة على المياه أو الأراضي... الخ.

هذا المناخ من التعايش السيء والحوار الصعب، أدى إلى عدة مرات، خلال أعوام الثمانين، إلى اضطرابات طالت المجال السياسي. عدة حوادث، في الأصل اعتيادية، كشفت عن توترات أشد عمقاً:

مصادمات ذات طبيعة عرقية، (انتشار السخط لأسباب بيئية، نتاج آثار بيئية سيئة لبعض المشروعات، اشعاعات نتجت عن تجارب نووية صينية...الخ واضطرابات ذات طبيعة دينية (نزاعات جعلت الإسلام المنبعث من جديد في مواجهة مع خليط عجيب من الماوية والكونفوشيوسية المنتعشة).

– الموطن الرئيسي للإسلام في الصين:

يوجد في الصين ما بين 20 إلى 50 مليون مسلم. التقديرات تختلف من مصدر لآخر، كما لا يمكن الركون للتقديرات الرسمية لأسباب لا أحد يجهلها.

أغلب المسلمين من السنة، والذين يتبنون الطرق الصوفية. الإسلام في الصين يتمحور حول جماعتين متميزتين ولكنهما عددياً متساويتين:

- الهوى: مسلمون ناطقون بالصينية.

- المسلمون الناطقون باللغة التركية في كزنجيانق.

المسلمون الناطقون باللغة التركية، وإن كانت تجمعهم اللغة والعقيدة الإسلامية إلا أنهم عرقياً غير متجانسين، الإسلام بالنسبة لهم، مع ذلك، عامل هوية موحدة في وجه الكثرة من السكان الهان، وأداة تحميهم من الذوبان في الهوية الصينية، أنهم هكذا يشكلون، في منطقة ذات أهمية استراتيجية كبرى، في نظر بكين، جيوباً متجانسة من السكان الذين لم يذوبوا في الهوية الصينية ويرفضون الاندماج . ويعتنقون عقيدة " أجنبية" غريبة عن القيم الصينية، سواء منها ما يرجع إلى الماوية أو ما يرجع إلى التقاليد الفنوصية والبداية الكونفوشيوسية.

هؤلاء السكان المسلمون، من ناحية أخرى، في اتصال أكثر مع جمهوريات آسيا الوسطى والباكستان، حيث يسود الإسلام، من اتصالهم مع بكين، وبقية الجمهورية الشعبية.

معطيات الجغرافيا السياسية الجديدة، التي ظهرت في نهاية أعوام الثمانين، أتاحت مرونة متزايدة بالنسبة للحدود السياسية، وانتعاش العلاقات العائلية – القرابة – المتجاوزة للحدود، وتواصل شبكات الأخوانية الصوفية. تحركات الدعاة المسلمين أدت إلى التبادل البشري وتبادل الأفكار، والأموال، وحتى السلاح، كما مكّنت مسلمي كزنجيانق المعزولين زمناً طويلاً، أن يعيدوا الاتصال بالأمة الإسلامية. من هؤلاء السكان، الهامشيون بالأمس في محيط الصين، صاروا مجموعات ضغط خطرة في نظر السلطات الصينية.

السلطات الصينية، في مواجهة ذلك تتأرجح بين القمع والتسامح، من ناحية تحاول تسريع دمج المنطقة في الهوية الصينية، في نفس الوقت تظهر قدر من الاعتدال والتسامح النسبي نحو الإسلام، ما ظل هذا الإسلام داخل الإطار الرسمي المعترف به من قبل سلطات بكين.

وهو " رابطة مسلمي الصين" وعلى العكس يجري قمع كل ما يخرج عن السيطرة أي عن الإطار الرسمي بقوة ،فتغلق المدارس القرآنية غير الرسمية مثلاً، والذي يقود إلى تفجر أحداث عنيفة.

في محاولة تحسين صورتها عند العالم الإسلامي، فإن الصين ضاعفت، منذ بدايات سنوات الثمانين، إشارات حسن النية نحو المسلمين:

إعادة كتابة لغة الريقور والكازاك بالحرف العربي بدلاً من الحرف اللاتيني، فتح معهد الفقه الإسلامي، وعدة مدارس قرآنية، ترجمة معاني القرآن إلى لغة الريقور، تضاعف عدد المساجد في المنطقة ..الخ .

الأمر هكذا يتعلق بسياسة ذات حدين: يمكنها، من ناحية، أن تسحب البساط من تحت مطالب عديدة، بحيث تصير هذه غير ذات موضوع، كما يمكنها من ناحية أخرى، أن تؤدي إلى انتعاش الهويات والدين والعقيدة. والتي تصير قابلة لتغذية تطلعات استقلالية متزايدة.

هكذا عام 1997، عدة تفجيرات وقعت في كزنجيانق، رغم القمع القاسي الذي يجري تحت ستار" السيطرة على الجرائم الاقتصادية".

- اضطرابات مشتتة لكن ذات مخاطر:

الاستقرار الذي استمر عشرات السنوات، بفضل القوة العسكرية، يبدو أنه صار ماضياً، الكزنجيانق صارت فريسة اضطرابات متفرقة منذ بداية أعوام الثمانين. هذا التطور، يرجع - بلا شك - إلى السياسة " التحررية " النسبية، التي بدأ العمل بها في عهد دنيق كياوبينق، والتي أتاحت انبعاث ديني وهوية عند السكان الناطقين باللغة التركية، أكثر مما يرجع إلى تأثيرات الانتفاضات التي هزت آسيا الوسطى في نفس الفترة، الثورة الإيرانية، صعود الظاهرة الدينية في باكستان، حرب افغانستان، انهيار الاتحاد السوفيتي، أزمة كشمير، حرب أهلية في افغانستان. لكن هذه الانتفاضات ليست مع ذلك بدون تأثير، منظوراً إليها من كاشقار أو من يورمكي، فإن حقبة الثمانين غنية بالقدوات، المتمثلة في الجيران المسلمين الذين

يكافحون ضد ظالم كافر. هكذا لم يتأخر البعض في أن يقارن هذا بالوضع السائد في كزنجيانق.

الاضطرابات ظلت زمناً طويلاً محدودة، تظهر في دفعات عنيفة ذات طابع عرقي، أو في احتجاجات ضد تلوث البيئة وضد التجارب النووية وذات طابع سلمي. لكنها في ربيع عام 1990 غيرت تماماً من أبعادها. في قلب شهر رمضان قامت انتفاضة مسلحة في أكروش، حوالي 50 كم من كاشقار، جماعة مسلحة من حوالي 300 فرد هاجمت المدينة، الأهداف السياسية، هذه المرة، صريحة:

إقامة جمهورية تركستان الشرقية. إضافة إلى دوافع دينية تستلهم الإسلام. المواجهة مع قوات البوليس أدت إلى موت حوالي ستين، وخسائر مادية مهمة.

منذ ذلك الحين تهز الكزنجيانق، بانتظام، عمليات تفجير: مثل ما حدث في فبراير 1992 في مدينة يورمكي، 6 موتى، وفي يونيه من نفس العام في كاشقار، 10 موتى، وخلال صيف 1993 في مختلف المدن (كاشقار، كاشي، يورمكي، تورخان) سقط ضحيتها عدد غير معروف من الضحايا. العملية الأكثر أهمية كانت الهجوم الذي قامت به فرقة انتحارية من الوطنيين الويقور، في مارس 1993، على مركز التجارب النووية، أدت إلى تدمير عدد من مبانيه.

اغتيالات الهان بالسلاح الأبيض، واغتيالات ممثلي الدين الرسمي، المتهمين بالعمالة للنظام، تضاعفت أيضاً.

حوض تاريم، حيث عمليات تحويل السكان إلى الهوية الصينية، ظلت ضعيفة النتائج، يمثل بؤرة الاضطرابات الاستقلالية، تاريخياً هذه المنطقة كانت دائماً مضطربة، لأنه في هذا الجزء من كزنجيانق حدث تمرد يعقوب بك عام 1865، والذي يبدو لازال حيا في نفوس السكان.

في شمال حوض دزونقاري، منطقة على يانينق، حيث يعيش الكازاك، تبدو أنها أيضاً بؤرة أخرى للاضطرابات الحادة، في يونيه 1995 حدثت اضطرابات دامية جداً في هذه المنطقة.

مستوى العنف غيّر، بشكل محسوس، من درجته منذ ربيع عام 1996، وهو التاريخ الذي فيه السلطات الصينية منتهزة فرصة إطلاق حملة عامة في البلاد، ضد الجريمة، بدأت عمليات قمع عنيف للتوجهات الاستقلالية. مستغلة مبرر اكتشاف أسلحة ومتفجرات بكميات كبيرة، وفرصة تفكيك عدة عصابات من "الخارجين عن القانون". فإن السلطات المحلية اعتقلت حوالي ألف فرد من الويقور خلال بضعة أسابيع (الأرقام تتراوح ما بين 1700 بالنسبة للسلطات وأكثر من 18 ألف بالنسبة لبعض الحركات في المنفى).

لكن ما يظهر الطبيعة الحقيقية لعمليات القمع، وإن مكافحة الجريمة ليست إلا غطاء، قيام السلطات بإجراءات صارمة ضد الدين الإسلامي:

مثل منع بناء مساجد جديدة، اعتقال حوالي 200 من رجال الدين ومن طلاب الدراسات الدينية، إطلاق حملة ضد الدين في المدارس .وفي الجامعات. بالطبع من الواضح إن هذه الإجراءات القمعية لا تبدو ذات علاقة بمكافحة الجريمة.

هذا القمع الجدي أدى، كردة فعل، إلى سلسلة من الاغتيالات راحت ضحيتها شخصيات متعاطفة مع الصين (موظفين، إداريين، أئمة رسميين) بينما جماعات مسلحة قامت، ابتداء من مايو 1996، بعمليات ضد رموز السلطان الصيني (كمائن ضد رجال البوليس، عمليات تخريب السكك الحديدية التي تربط يرومكي بكورلا).

هل هذا الاشتعال للعنف بسيط ومؤقت أم هو ارهاصات تمرد حقيقي؟

هذه الأحداث تقدم عن كزنجيانق صورة بلد مضطرب، حيث بكين لا تستطيع وضع حد لمشاكلها وفرض النظام.

إذا فرضية الانفصال، أي الاستغلال، تبدو في الوقت الحالي بعيدة الاحتمال، بسبب الضعف العددي والعسكري للاستقلاليين، وبسبب غياب الدعم الخارجي، الباكستان مشغولة في نزاعها مع الهند حول كشمير لا تستطيع المخاطرة بتأزم علاقتها مع الصين، أفغانستان تغرق في حرب أهلية تمنعها من تقديم أي عون،

بجمهوريات آسيا الوسطى مشغولة أكثر بترتيب أوضاعها الداخلية وبإعادة اكتشاف هويتها، مع ذلك رغم الضعف العددي والعسكري، وغياب الدعم الخارجي. فإن تقنيات عدة يمكن أن توضع موضع سؤال، في حالة اضطرابات خطيرة تصيب سلطان الهان في جمهورية الصين الشعبية، (ضعف السلطان المركزي للدولة، نزاعات ما بين المقاطعات، ...الخ) في هذه الحالة تطور على نمط البلقان يمكن أن تكون له بعض المصداقية.

معنى هذا أن تطور الحالة الكؤنجيانقية يرتبط بالأحوال السياسية في مركز سلطان الهان، ف بيكين.

مهما يكون المستقبل، تطور الوضع في الأطراف الغربية لأمبراطورية الوسط، صار يقلق جدياً السلطات الصينية، هذه أمرت بتدعيم الاستعدادات والقدرات الأمنية، وشكلت هناك، في الكؤنجيانق، في بداية أعوام التسعين جيشاً جديداً، هكذا الدعياة الإعلامية التي رافقت إعدام خمسة من الاستقلاليين عام 1995، ثم عام 1997، وإطلاق حملة أمنية في إبريل 1996، تعبّر عن القلق الذي بدأ يستولي على المسؤولين الصينيين، والذي اضطرابات ربيع وصيف عام 1996، لم تفعل إلا تفاقمه.

- الفاعلون:

المعلومات المتوفرة، والمتعلقة بقوى معارضة تحويل كزنجيانق إلى الهوية الصينية، بالطبع نادرة فالأمر يتعلق بوضع غامض حيث قلة من الحركات ذات التنظيم الجيد تظهر على مسرح الأحداث، لكن مع ذلك يبدو من الممكن تمييز مجموعتين كبيرتين من هذه الحركات:

1- تكوينات سياسية قائمة في الخارج، وتجند أنصارها من بين الويقور والكازاك في الشتات.

هذه التكوينات القائمة في المنفى، التي فضّلت حتى الآن العمل السياسي، رغم خطاباتها العنيفة أحياناً، يبدو أنها مقطوعة عن الواقع المحلي الحقيقي، وتمثيلها للسكان المحليين يبدو مشكوكاً فيه.

من أهم هذه التكوينات حركتان: أحدهما قاعدتها في كازاخستان والأخرى في تركيا. وقد بدأتا هذه الأيام تسمعان صوتهما.

- منظمة من أجل حرية ويقورستان:

تشكيل يقوده هماشير وأصيدي، المسؤول العسكري السابق في جمهورية تركستان الشرقية التي أعلنتا عام 1990. لجأ إلى كازاخستان عام 1955. حركته تدعي أنها تضم 7000 مناضل في كل آسيا الوسطى .لكن هذا الرقم يبدو مبالغاً فيه.

- الفنود:

الجبهة الوطنية الثورية المتحدة لتركستان الشرقية:

هذا التشكيل القائم في تركيا منذ وقت طويل، يقوده حتى بداية عام 96، عيسى بك. وهو أحد سادة الحرب القدامى في تزنجيانق خلال أعوام الثلاثين. والذي كان قريباً من الكومينتانق ولجأ إلى أسطنبول منذ عام 1949 .

هذه الجبهة يبدو أنه أعيد بناؤها خلال السنوات الأخيرة، بدفع من رئيسها الجديد يوزوبك موكليسي، المسؤول في بداية أعوام التسعين، عن لجنة تركستان الشرقية، والتي كان مقرها المعاطى.

يوزوبك ظهر نشطاً جداً خلال اضطرابات ربيع 96، عندما قام بإمداد وسائل الأإعلام الأجنبية بالمعلومات المتعلقة بالأوضاع والأحداث في المنطقة، كما عمل ناطقاً باسم الحركات العاملة داخل كزنجيانق.

الاستخدام الحديث لشبكات الإنترنت يمكنه منح فرصة انتشار واسعة لهذه الحركات.

2- جماعات سرية مسلحة تعمل داخل كزنجيانق:

هذه المقاومة العاملة في الداخل، إلى جانب العمل السياسي الدعائي، لا تتردد في اللجوء إلى العنف المسح، فيما يشبه الوضع القائم الذي يقدمه المشهد التمردي في كشمير.

في البداية حركة وطنية محضة، قائمة أساساً بين الويقور، تتجسد في حركة تحرير ويقورستان، وجبهة تحرير ويقورستان، وحركة تحرير تركستان. التشكيل الأخير هو المسؤول عن حملة عمليات التفجير التي جرت في أغسطس 1993 في المدن الرئيسية في المقاطعة.

جماعات أخرى، تجند أنصارها خاصة من بين الكازاك، بدأت أيضاً في الظهور، خاصة في منطقة على ينينق.

لكن المقاومة المضادة للصين تضم أيضاً حركات ذات سمة دينية إسلامية، مثل الحزب الإسلامي لتركستان الشرقية المسؤول عن الانتفاضة التي جرت في أكتوش ربيع عام 1990، وحزب الإصلاح الإسلامي، والذي خمسة من مناضليه، المتهمين بالقيام بعمليات في يورسكي، فبراير 1992، جرى إعدامهم 30 مايو 1995 .

تعدد التسميات والتوجهات، يظهر أن هذه الحركات المسلحة المناضلة، ضد الوجود الصيني في كزنجيانق، تتكون من مجموعات صغيرة سيئة التسليح، سيئة التنظيم، والذي يجعلها تبدو هشة.

بعض التشكيلات المشار إليها فيما سبق، تتكون من بضعة أفراد فقط، والتي بدون شك تم تفكيكها تماماً على يد قوات الأمن الصينية، لكن إعادة تكوين المجموعات وتجديد ناشطيها يبدو سريعاً، هكذا جماعات جديدة ظهرت بمناسبة اضطرابات ربيع وصيف 96: مثل حركة " شرارة الوطن" أو حركة" نمور لوبنور" التي يقودها قاهبار شاخيار، المدعوم من جماعات سياسية تتخذ كازاخستان قاعدة، مثل الفنور – الجبهة الوطنية الثورية .... أو في كيرجيزي مثل حزب " الويقور اتفاق" .

النشطون من الناطقين بالتركية يبدو أنهم بدورهم نجحوا في الاتصال بحركات الأفقان والكشميريين، والتي بفضلها حصلوا على السلاح.

– التبت:

كما هو الحال فيما يتعلق بكشمير، من المناسب أن نميز بين عدة تبت، ذات

تحديات متنوعة. الفضاء الجغرافي للتبت يغطي حوالي 3.6 مليون كم^2 وهو بلد واسع جداً يقع على ارتفاع شاهق (في المتوسط حوالي 4000 كم^2) ويمتد أكثر من 2200 كم من الشرق إلى الغرب. و1200 كم من الشمال إلى الجنوب.

(3)

التبت الكبير، التبت التاريخي يتكون من ثلاث هضاب: أمدو، كام، ويوزانق. يسكنه حوالي 6 مليون تبتي، والذين إنضاف إليهم، منذ ضم التبت من قبل الصين، عام 1950، حوالي 9 مليون صيني. معظمهم من الهان، وفي السنوات الأخيرة بعض الهوى المسلمين.

في بداية أعوام الستين بدأت سلطات بكين تقطيع التبت الكبير، وأنشأت في 9 سبتمبر 1965، المقاطعة المستقلة ذاتياً للتبت. هذه المقاطعة تعادل التبت المركز، ولا تشمل إلا اليوزانق وجزء من كام. مساحتها لا تزيد عن 1.2 مليون كم^2. أما سكانه فيبلغون 2.3 مليون نسمة، أغلبيتهم من التبتيين، إذا صدقنا الأرقام الرسمية الصينية، لكن بعض الشكوك تحول حول مصداقيتها، ذلك لأن موجات هجرة مهمة، لوحظت في السنوات الأخيرة في اتجاه التبت، أو المقاطعة ذات الحكم الذاتي R.A.T.

منذئذ، مدينة مثل لاهسا، العاصمة التاريخية للتبت، صارت ذات أغلبية من الهان " المعمرين" .

المناطق الأخرى من التبت جرى ضمها إلى المقاطعات الصينية: الأمد وجرى تقسيمها بين كنقاهاي وكزنجيانق والقانسو، بينما الجزء الشرقي من كام دمج في سيشوان ديونان.

التبت الشرقي هذا في طريقه إلى التحول سريعاً إلى الهوية الصينية، أما سكانه من أصل تبتي فقد صاروا فيه أقلية بالنسبة للهان، التعايش بين العرقين سيء جداً. الهان، بما في ذلك الذين يعيشون في المقاطعة ذات الحكم الذاتي، يسيطرون على الوظائف الأساسية ذات المسؤولية، وعلى كل قطاع الاقتصاد، أما بعض المتعاونين المحليين فيمثلون واجهة خدمات تبتية لصالح الصين.

بموقعه في قلب آسيا، عند التقاء العالم الصيني بالعالم الهندي، فإن التبت يمثل رهان له أهمية كبرى بالنسبة للصين. سواء بسبب موقعه الجغرافي، وفائدته الاستراتيجية، كما من حيث موارده الاقتصادية الممكنة.

مملكة الثلوج هذه، هي منذ حوالي نصف قرن، مسرح مأساة ذات أبعاد كبيرة. وذلك عقب إعادة دمجها في الفضاء السياسي الصيني.

في عام 1955 غداة انتصار الحزب الشيوعي الصيني. كان التبت أوتوقراطية بودية، جرى غزوه من قبل جيش التحرير الشعبي الصيني، ثم جرى إلحاقه، في العام التالي، بناء على اتفاق مزعوم، بالجموهرية الشعبية الصينية.

هذا الحدث أثار سخط السكان التبت، المعارضين لغرض الهوية الصينية، ولسياسة تجميع الأراضي، ومصادرة أموال رجال الدين البودي، وتوطين المعمرين الصينيين في التبت. وأدى إلى اضطرابات حادة تمخضت عن انتفاضة مارس 1959 .

القمع الرهيب الذي وقع على التبت في هذه المناسبة، أدى إلى هروب الزعيم الروحي والدنيوي للتبت: الدلاى لاما، إلى الهند مع عشرات الآلاف من التبت.

من عام 19549 - 1990 يقدر عدد ضحايا الهيمنة الصينية بأكثر من مليون نسمة: بسبب المعارك. والقمع الشرس والمجاعات التي أعقبت ذلك، دون أن ننسى الإعدامات التي جرت خلال الثورة الثقافية والانتهاكات التالية لحقوق الإنسان.

إلى هذه الحصيلة الرهيبة يضاف التهديد الخطير الذي تواجهه الهوية والثقافة التبتية بسبب فرض الهوية الصينية: تدفق موجات المعمرين الهان، إجراءات إجهاض وتعقيم نساء التبت إجبارياً، .

هذه المجزرة الثقافية تجري تدريجياً وبشكل منتظم، وتحكم على التبت بالاختفاء في محيط أعداد هائلة من الهان، وذلك على غرار ما تكبده الماندشو في بداية القرن، وما يواجهه المنغول في منغوليا الداخلية. في مواجهة هذه الأقطار الرهيبة، يتأرجح الدفاع عن قضية التبت بين خيارين:

1- مقاومـــة سـلبية غيـر عنيفة تستلهم مبادئ البودية، والتي زعيمها هو الدلاي لاما.

لاجئاً في الهند، وجد الدلاى لاما نفسه على رأس حكومة في المنفى، والتي تحكم تبت الشتات - هذه الإدارة في المنفى تحاول الحفاظ على الاتصال بالتبت الخاضعين لحكم الصين. السياسة التحررية، نسبياً، التي بدأت في بكين منذ أعوام السبعين، وخاصة فتح التبت أمام السياحة العالمية عام 1989، سهلت كثيراً هذه المهمة، متيحة تدفق نسبي للمعلومات في الاتجاهين.

الدلاى لاما يفضل اقتراب سياسي لمشكلة التبت، ولا يطلب إلا حكم ذاتي موسع من طرف الصين، كما يقترح أن العلاقات المستقبلية بين لاهسا - عاصمة التبت التاريخية - وبكين تقوم على مبدأ " بلد واحد ونظامين" وهو المبدأ الذي طرح فيما يتعلق بمصير تايوان وهونج كونج.

مثل هذا الحل يسمح للصين الاحتفاظ بشؤون الدفاع والسياسة الخارجية.

الزعيم التبتي يطلب، كأولوية، تحسين شروط حياة السكان التبت في الداخل، وأن ينقد، قبل فوات الأوان، الخصوصية التبتية، وهذا ما قاده إلى الاعتدال في موقفه من السلطات الصينية، اعتداله هذا جعله يصنف، من قبل قسم متطرف من المعارضة التبتية، على أنه مهادن لبكين، الدلاى لاما مع ذلك لم يتوقف عن بذل قصارى جهده بنشاط للتعريف بمأساة التبت، وتحسيس الرأي العام العالمي بشراسة " الاحتلال " الصيني.

هذا العمل طويل النفس، الذي بدأ منذ سنوات الستين، أتاح تسجيل بعض النجاحات، مثل حصول الدلاى لاما على جائزة نوبل للسلام عام 89، وتنظيم زيارات رسمية - إلى الولايات المتحدة. بريطانيا، ألمانيا، يضاف إلى هذا العديد من الزيارات الخاصة، والقيام بمداخلات في اجتماعات المنظمات الدولية، والتي مكنته من الدفاع عن قضية بلده وشعبه.

هذه الاستراتيجية السياسية القائمة على التزام شخصي. تكملها أعمال نضالية

أكثر تقليدية: إضراب عن الطعام، عرائض، مسيرات احتجاج. حملات إعلامية، مظاهرات، خاصة خلال زيارات مسؤولين صينيين إلى الهند.

هذه العمليات يوقدها أعضاء الشتات، لكنها أحياناً تجد دعماً من بعض معتنقي البوذية الجدد في الغرب.

المعارضة التبتية في المنفى نجحت إلى حد كبير في نسج شبكة مهمة من الدعم، مكونة من نجوم المجتمعات " ممثلين، مطربين، صحفيين.." وخاصة بين المنظمات غير الحكومية، سواء كانت ذات اهتمامات عامة مثل منظمة العفو الدولية، أو متخصصة مثل الحملة الدولية من أجل التبت، أو لجنة مساندة شعب التبت في فرنسا. ومنذ بداية أعوام التسعين طورت حكومة التبت في المنفى علاقات مع تايوان، انطلاقاً من تضامن مشترك نحو التصلب الذي تبديه السلطات الصينية في بكين.

رغم بعض النجاحات الرمزية التي حققتها هذه المعارضة، والتي أدت إلى أن الحكومة في بكين تحاول تحسين إدارة المسألة التبتية، إلا أن استراتيجية التكيف التي يتبعها الدلاى لاما، لم تكن لها نتائج محسوسة، حتى لو أن بعض التطور الإيجابي جرت ملاحظته، وهو التطور الذي جرى بدفع من هوياو بينق خلال سنوات الثمانين (جهود من أجل تخفيف حدة المركزية، إرادة ترقية النخب المحلية، التسامح مع الممارسات الدينية، إجراءات تستهدف الحفاظ وانقاذ الهوية التبتية، بداية مفاوضات غير رسمية بين الصين والتبت). لكن إقالة هوياو بينق من منصبه، عام 87، قادت بكين إلى تصليب موقفها من جديد، في هذا المحتوى، الاعتدال الذي جعل في المقدمة، من قبل قادة المنفى، أثار نقداً متزايداً عند شباب التبت في المنفى في الداخل، والذي يتطلع إلى خط أكثر تطرفاً.

تصلب الموقف الصيني أفقد الاعتدال مصداقيته لصالح الموقف المتطرف في أوساط المعارضة التبتية.

2- معارضة أكثر تشدداً، لا تترد في اللجوء إلى النضال المسلح، من أجل الاستقلال التام:

المكونات العنيفة للمعارضة التبتية معروفة أقل من المعارضة السياسية.

لكنها مع ذلك تنخرط في خط المقاومة التي بدأت منذ عام 1956، على يد "المحاربين – الكامبا – في التبت الشرقية ". هذه الحركة وراء انتفاضة مارس 1959، والتي خلالها، نواة جيش تبتي سيء التسليح والتنظيم، حاولت بدون نجاح، مقاومة انتشار جيش التحرير الشعبي – الصيني – في التبت .

طوال أعوام الستين، هذا الجيش، جيش التحرير الشعبي، واجه حرب عصابات حقيقية في منطقة كام، تقودها المقاومة التبتية مدعومة من طرف المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A. هذا الدعم تأكد حدوثه بعد فتح الأرشيف الأمريكي للإطلاع العام عام 1998. عدة آلاف من الكامبا، مسلحين بأسلحة خفيفة، صدوا في وجه القوات الصينية، انطلاقاً من قواعد خلفية في نيبال حتى عام 1972.

لكن بدايات التقارب بين بكين وواشنطون، في بداية عام 1970، والضغط القوي الذي مارسته سلطات نيبال الراغبة في الحفاظ على أمن حدودها مع الصين. أدى إلى وضع نهاية للمقاومة التبتية المسلحة، لكي لا يتضرر آلاف التبت اللاجئين في مملكة الهملايا، لم يجد المقاومون بدأ من وضع السلاح. غير أن بعض قادتهم استمروا يواصلون المعركة السياسية، والاحتفاظ بخطاب متطرف، مع قيامهم بوظائف هامة في مؤتمر الشباب التبتي.

بعد حوالي خمس عشرة سنة من الصمت، الخيار الجذري عاد من جديد إلى المقدمة في التبت نفسها، بسبب ضئالة النتائج ذات القيمة التي تحققت من خلال الخطوات السلمية للدلاى لاما.

هذه السنوات الأخيرة رسمتها أيضاً سلسلة من المظاهرات العنيفة في صالح الاستقلال. جرى قمعها بقوة من قبل قوات الأمن (خريف 87، مارس ديسمبر 88. مارس 89. مايو 93). خلال هذه المظاهرات ظهر تصلب سلوك المتظاهرين التبت. خلال اضطرابات بداية مارس 89، في لاهسا، تشير بعض الشهادات إلى أن بعض المتظاهرين يحملون أسلحة نارية، وأنها استخدمت في تدمير المباني الحكومية ومحلات الهان التجارية، كما جرى قتل مدنيين، وبوليس صينيين.

هذه الاضطرابات التي ذهب ضحيتها، كحد أدنى، مئات الضحايا (من 500

إلى 800 حسب بعض المصادر التبتية) أدت إلى إعلان الأحكام العرفية لمدة تزيد عن عام. وهذا يشهد على تطرف وحتى تعصب قسم مهم من الشباب، والذي لم يعد له ما يخسره، مستعد للانخراط في عمليات انتحارية.

فيما عدا هذه الاندفاعات العنيفة التي جرى قمعها بقسوة، فإن يومية النضال الاستقلالي تنحصر أساساً في توالي مظاهرات صغيرة، تضم في أحسن الأحوالي، بضعة عشرات من الأفراد، وأحياناً احتجاجات فردية(شعارات ضد الصين، رفع العلم التبتي). المشاركة في هذه الأعمال تعني، بالنسبة للفعلة، انتحاراً سياسياً، والذي يترجم في عقوبات قاسية بالسجن، تقضي في شروط رهيبة(اغتصاب، تعذيب، سوء تغذية، تزايد الموتى في السجون)، في بداية عام 96 يوجد على الأقل 600 معتقل سياسي، من بينهم أطفال لا يتجاوز عمرهم 12 سنة.

معظم المعتقلين من المناضلين هم من بين الرهبان ورجال الدين البودى، والذين يمثلون رأس حربة بالنسبة لحركة المعارضة في الداخل.

بعض النشطين، سئموا من هذا الاقتراب، وهذا الأسلوب الذي تتخذه المقاومة، باعتباره مفرط في الرمزية، يبدو أنهم حديثاً انخرطوا في عمليات عنف، كما يشهد على ذلك التفجير الذي أصاب مبنى حكومي في لاهسا في بداية يونيه 93 بمناسبة الذكرى الرابعة لمجزرة تياغين، وأيضاً المحاولة التي جرى الحديث عنها في بداية يولوي 95، بمناسبة اقتراب موعد الاحتفال بتأسيس المقاطعة ذات الحكم الذاتي في التبت. R.A.T سواء أكانت أعمال فردية أم عبرت عن تغيير حقيقي في الاستراتيجية، هل تقود، على المدى ممارسة عمليات إرهابية؟.

في مايو 96، تقرير أعدته المحكمة العليا في التبت، يعترف رسمياً بأن الوضع غير مستقر في المقاطعة، ويستند في هذا إلى عمليات التفجير والاغتيالات التي قام بها الاستقلاليون. هذا التقرير يبرهن على أن التطبيع لم ينجز، رغم اختلال علاقة القوة بين الصين والتبت لصالح الصين.

أضف إلى هذا أن قضية الاستقلال أحرزت بعض التقدم في السنوات الأخيرة، الرأي العام الدولي أخذ يبدي اهتماماً بهذا الملف، خاصة بفضل الجهود

الإعلامية التي يبذلها الدلاى لاما. لكن ضآلة التنازلات التي قدّمتها الصين لحل هذه المشكلة، تدفع جزءاً متعاظماً من الشعب التبتي إلى التساؤل حول فعالية الخطوات التي تقوم بها الحكومة في المنفى، وأن يتطلع إلى تصليب أنماط النضال.

إذا كانت معظم الأعمال المضادة للصينيين تجري في لاهسا، فإن الاضطرابات تبدو أنها تمتد، منذ أعوام التسعين، لتشمل المدن الصغيرة، والمناطق الريفية، ما يبرهن على حيوية المشاعر الاستقلالية، لكن، على غرار ما حدث في البلقان يظل نجاح الكفاح من أجل استقلال التبت متوقفاً على حدوث أزمة داخلية خطيرة في الصين، والتي تهيئ الفرصة لمختلف القوى الانفصالية، الكامنة حالياً في قلب إمبراطورية الوسط.

- الفاعلون:

المعلومات المتوفرة حالياً ضئيلة حول المقاومة المسلحة داخل التبت. لكن يبدو أن الأعمال القليلة من النضال المسلح ضد المستعمر الصيني، هي من فعل حركات سرية صغيرة، تعمل متفرقة، مثل رابطة شباب النمور، الحركة الوحيدة الجذرية المعروفة حقاً، في قلب المعارضة التبتية، تظل مؤتمر الشباب التبتي، حتى لوا أنها حالياً تعيش هوة بين خطابها العنيف وأفعالها الميدانية.

- مؤتمر الشباب التبتي:

هذه الجماعة تشكّلت في منتصف أعوام الثمانين، على يد مسؤولين سابقين في حرب العصابات - كامبا - في سنوات الستين، والمعارضين للتوجهات المعتدلة عند الدلاى لاما نحو بكين. قيادة الحركة تقع في دارما سالا - وتزعم أنها تضم عشرة آلاف عضو في أنحاء العالم. في بداية أعوام التسعين كانت الحركة بقيادة تسوانق بونتسو وتاشي نامقيال.

قيادة المؤتمر ترى أن النتائج المتحصل عليها من العمل غير العنيف ليست مرضية، لذلك فإنها تناضل من أجل تبني أسلوب القوة ضد الاحتلال الصيني. هذه الدعوة تجد استجابة متزايدة بين صفوف الشباب التبتي في الشتات وفي داخل التبت.

مناضلوا هذه الحركة شاركوا بنشاط في الانتفاضة الدامية التي جرت 5 مارس 89. لكن مع ذلك ليس بالإمكان معرفة ما إذا كان مؤتمر الشباب التبتي متورطاً، بشكل أو بآخر، في أشكال المقاومة الأكثر عنفاً ضد الصينيين، خاصة تفجيرات مايو 93 ويوليو 1995.

المؤتمر نشط في الهند، وبرهن على حيويته خلال زيارة الوزير الأول الصيني لي بينق لنيودلهى، عام 1991. وقد نظَّم بهذه المناسبة عدة مظاهرات واضرابات عن الطعام. ثم عام 96 خلال زيارة الرئيس الصيني جيانق زيمين. حوالي 80 من مناضليه جرى اعتقالهم بعد ذلك من قبل السلطات الهندية.

(4)

أيًا كانت فعالية الحركات الاستقلالية القومية في الصين السياسي، فإنها وحدها غير قادرة على تحقيق أهدافها.

لأن:

1- الأقليات العرقية في مجملها لا تمثل إلا 8% من سكان الصين، بيننا الأغلبية الساحقة 92% من الهان، وهم العرق الرئيسي في الصين.

2- أوضاع منطقة آسيا، واختلاف المصالح، والتحالفات التي تجري أحياناً لأسباب داخلية، ولأن عدة بلدان مهمة تعاني مشكلة صحوة الأقليات القومية: كشمير بين الهند وباكستان، الحركات الاستقلالية في عملاق آسيا الأخر، الاتحاد الهندي، انشغال جمهوريات وسط آسيا بترتيب أمورها الداخلية..الخ لا يسمح لأي بلد تقديم دعم فعال لهذه الحركات خشية ردة فعل عملاق آسيا ومعاملتها بالمثل، إن بعض الحرية التي يتمتع بها مثلاً مؤتمر الشباب التبتي في الهند، ترجع إلى ما تراه الهند تعاطفاً صينياً مع الباكستان في مسألة كشمير، .

3- تملق الصين من قبل قوى عالمية لأهداف اقتصادية، حيث تمثل الصين، في نظر هذه القوى، أضخم سوق في العالم خلال القرن القادم. لا يشجع

على تقديم عون جدي لحركات الاستقلالية القومية، رغم كل تشدق بحقوق الإنسان.

مع ذلك خطر تفكك الصين ليس مستبعداً .

هذا الخطر ليس نتاج الحركات الاستقلالية القومية، وإنما نتاج عوامل وأسباب تكمن في العملاق نفسه، وفي توجهاته السياسية الحالية، والتي تعطي الفرصة لتحقيق أهداف الحركات الاستقلالية، سواء كانت قومية، التبت، الكزنجيانق، ..الخ أو غير قومية بين الهان أنفسهم.

هذه العوامل بدأت منذ مدة تختمر:

1- سياسة تحرير الاقتصاد: هذه السياسة التي بدأتها الصين منذ سنوات، دمرت العلاقات الاجتماعية، وشلت فعالية القيم التقليدية ،وأوجدت هوة تتسع باطراد بين الطبقات المستفيدة منها والطبقات المحرومة، في المدن وفي الأرياف. كما أدت إلى تضاعف البطالة (20%) وما تجره من تفاقم الجريمة بمختلف أشكالها.

2- النظام " الشيوعي" الذي حكم الصين منذ 1949، استهدف إبدال القيم والعلاقات التقليدية في المجتمع الصيني، فأدى ذلك إلى إضعافها كثيراً، لكن سياسة الانفتاح الاقتصادي سوف تدمر القيم والعلاقات الاجتماعية التي عمل الحزب الشيوعي الماوي على إحلالها محل القيم والعلاقات التقليدية، مما يشير إلى قدوم مرحلة خطيرة تتسم بفوضى قيمية وتحلل من القيم والتقاليد، وطغيان الأنانية عند الأفراد حتى عند الجماعات - صراع وتنافس المقاطعات.

3- لاشك أن الصين أضخم بلد في العالم، سكانياً 1.2 مليار نسمة، ومساحة 9.6 مليون كم2. لكن هذه الضخامة هي عقب أخيل، أو هي نقطة الضعف في العملاق الصيني.

بلد بهذا الاتساع الجغرافي، وبهذا العدد من السكان، $\frac{1}{5}$ من سكان العالم،

من الصعب الإبقاء على وحدته السياسية دون دولة مركزية قوية تسندها مؤسسات راسخة.

تاريخياً وحدة الصين كانت دائماً بفضل قوة المركز، هذه القوة تمثّل جذباً للأطراف يمنع التفكك، ما قبل ما عرف بالثورة الماوية.

كان الإمبراطور ونظامه المركزي الإداري عامل وحدة الصين، حالما اختفى النظام الإمبراطوري، حلت الغوغائية، وتفكك الصين إلى اقطاعيات يحكمها سادة الحرب، ومناطق نفود الاستعمار الأوروبي.

ولم يكن من الممكن استعادة الوحدة إلا بفضل تنظيم الحزب الشيوعي الحديدي، وحلول ماوتسي تونق، كرمز، محل الإمبراطور. تأليه ماو يذكرنا بتأليه الإمبراطور.

تحرير الاقتصاد، وتفكيك القطاع العام، أي الخوصصة، يضعف الدولة، ويقضي على دورها كمنظم للعلاقات الاجتماعية، كما أن تحرير الاقتصاد يدخل حتما قدراً من الديمقراطية مرشح لأن يزداد سواء بإعطاء المقاطعات هامش أكبر من حرية العمل، والذي قد يصل حتى إلى حرية التعامل مع الخارج لجذب الاستثمارات الأجنبية.

القوى المتزايدة لسلطات المقاطعات يضعف سلطة الدولة، كما أن ضعف سلطة الدولة سوف يزيد في قوة المقاطعات، الأنانية الإقليمية، حيث بدأت بعض المقاطعات الغنية تتخلى عن التضامن مع المقاطعات الفقيرة، وتنافس المقاطعات، في هذا المناخ، حول اجتذاب الاستثمار الأجنبي، يجعلها تدريجياً تفقد روابطها الوطنية لصالح ارتباطات خارج الحدود.

كما أن تمتع المواطنين بقدر أكبر من الحرية، يجعل الارتباط بالمركز يضعف حتى التلاشي.

المصالح الاقتصادية قد تقود السكان إلى التوجه حيث يعتقدون وجودها، فيضعف الارتباط بالمركز لصالح قوى هامشية. هذا العامل يمكن أن يفكك روابط الهان أنفسهم.

كمـــا أن الحرية النسبية، في البداية، والتي يمكن أن تتسع كأمر واقع، تتيح للـسكان، من غير الهان، إعادة الاتصال بمن لديهم روابط مشتركة معهم - الدين. اللغة....الخ - خارج الفضاء السياسي الصيني.

صـحيح أن تفكـيك الـصين لن يكون إلاّ نتاج أزمة داخلية خطيرة، تجعل الحركات الاستقلالية أول المستفيدين. هذه الأزمة بدأت تطل برأسها.

إن إعـادة تنظـيم اجتماعي سياسي كبرى، رسمت الحقبتين الأخيرتين في الـصين، وأدت، بعـد ضبابية أعوام 1949 - 1979، أي العودة إلى خط الانقسام التقلـيدي بـين الـصين الـزرقاء والصين الصفراء (الداخلية والهامش الحدودي للغرب). تمثلت إعادة التنظيم هذه في :

1- إعـادة تنظـيم الجغرافيا الاقتصادية: في المقاطعات الساحلية يمثّل متوسط دخل الفرد ضعف داخل الفرد في بقية البلاد، كما أنها تستحوذ على: من 8 إلـى 9 مـن عشرة من الاستثمارات المباشرة الأجنبية، وهي مسؤولة عن تسعة أعشار التجارة الخارجية الصينية.

2- إعـادة تشكيل الجغرافيا البشرية: عن طريق سيطرة حازمة على الولادات فـي المقاطعـات الـشرقية من البلاد، باستثناء مقاطعة قانقدونق. معدلات الخـصوبة تتـنوع من 0.85% طفل لكل امرأة، بالنسبة لمقاطعات بكين، وشنقاهاي إلى 1.4% طفل لكل امرأة في تزيجيانق.

بالنـسبة لإعـادة تنظيم الجغرافيا الاقتصادية فإنها تقود إلى انفصال المنطقة الـساحلية عـن بقية البلاد. حيث أن هذه المنطقة تتطلع إلى أن تكون منطقة تبادل قاري - أسيوي.

أمـا بالنـسبة لإعادة تشكيل الجغرافيا البشرية، فإنها جعلت شبح الانكماش السكاني يحوم حول شرق البلاد، متبوعاً بإثارة الاجتماعية - الاقتصادية. الضارة، (تدمير المدخرين تحبيط الاستثمارات والعمال).

إن الـتقاء موجتي الأعماق هاتين، يمكّنه على المدى أن يعطي ولادة أشكال جديدة من عدم الاستقرار المنتج للعنف السياسي.

- انهيار الشمال وظهور مراكز جذب جديدة:

منذ الآن بدأت مناطق الازدهار الصينية تنتقل إلى الساحل الجنوبي، وإلى الموانئ الحرة: كانتون .. دلتا نهر الجواهر.

هذا التطور الجغرافي الاقتصادي ربما سوف يسرع في حدوثه شيخوخة الثلاث مدن الشمالية الكبرى: بكين، شنقهاي، تيانجين. الأرقام تتحدث، أن يتواصل انخفاض الولادات - الخصوبة - خلال نصف القرن القادم فإن مجمل السكان لا يتغير من الآن وحتى عام 2020، لكن الذين أعمارهم تتجاوز الستين سنة سيكونون أكثر عدداً مرتين وربما ثلاث مرات من عددهم في إحصاء عام 1990.

بالتوازي مع هذا، التطبيق المتشدد لسياسة الطفل الواحد، أدت إلى ندرة الشباب: عام 1990، الأقل من عشرين سنة كانوا أكثر ثلاث مرات من الذين عمرهم 60 سنة، في تيانجين وبكين. عام 2020 لن تكون النسبة حتى 1- إلى -1 في بكين، واحد إلى اثنين في تيانجين، أما بالنسبة لشنقهاي، فإن كبار السن سيكونون ثلاث مرات أكثر من الشباب.

- هامشية الشباب هذه تجعلنا نتوقع صدعاً اجتماعياً واقتصادياً عميقاً:

دخول إجباري إلى اقتصاد الخدمات، وضع موضع اتهام التضامن الأسري، ثورة في إدارة الأشخاص (يد عاملة أقل ولكن أكثر مطالب، والحاجة إلى التأطير تجعل المهن والمنافذ نادرة) تقلص السوق المتحرك، واللجوء إلى طلب مهاجرين ربما يزداد لإنجاز الأعمال الخطرة والصعبة.

كل هذه العوامل سوف تقود إلى تباطؤ ديناميكية هذه المناطق الطليعية، وسوف تساهم، بشكل كبير، في إضعاف مكانتها بالنسبة لداخل البلاد.

- نحو توتر بين الأجيال:

انخفاض الخصوبة، الولادات، في مجموع المقاطعات الساحلية، باستثناء الثلاثي قوانكسي، قواندونق، وهينان(حيث الولايات تتجاوز عتبة الإبدال 2.1 طفل لكل امرأة) يخفي رهانين اجتماعيين على الأقل:

- السيطرة على النمو السكاني، التي تصل أحياناً إلى إحداث انكماش سكاني (سكان شنقاهاي ينقصون منذ خمس سنوات). هذا الانكماش يخلق طلباً اجتماعياً اقتصادياً يتجاوز المقاييس، والذي ينتج عن الخروج من الاقتصاد المعاشي، بالنسبة لملايين الناس، ويبرز، في نفس الوقت، على المسرح الاجتماعي، سكاناً كبار السن، كفئة ذات مطالب منشغلة بحاجتها إلى التمويل: " تقاعد. صحة - عناية " .

إن إدارة مثل هذه المسائل، خلال الثلاثين سنة القادمة، ستكون أمراً صعباً جداً، وفق البنك الدولي، مع معدلات دفع التقاعد الحالية، فإن هذا يعني أن $\frac{2}{5}$ من جمهرة الإجراء يتجهون مباشرة إلى التقاعد. منذ الآن حركات الاحتجاج بين المتقاعدين جارية، ويمكن أن تزداد حجمها إذا لم يدفع التقاعد.

كل هذا يلتقي متوجهاً إلى عائدية تزداد، و - أو - إعادة تخصيص الإنفاق العمومي في القطاعات الأساسية: التكوين والبنى التحتية.

بالطبع انقلاب هرم الأعمار يمكن أن يترجم في تعويضات والتي يمكن استخدامها لهذا الهدف: صعود ادخار الأسر، تقلص البطالة، اختفاء مخاوف الميزانية في الجماعات - المقاطعات - مع ذلك ليس من المؤكد أن الحاجات الجديدة: سوف تشبع في مستوى الطموحات.

سوس الفساد المعمم، وتراجع سلطة البنى الاجتماعية، سوف يعيقان نتائج إعادة توزيع اجتماعي ممكن من قبل كل فاعل اجتماعي: الأسر، الجماعات، المقاطعات، الدولة.

بالتوازي الثلاث الجنوبي: قوانقكسي، قواندونس، هينان، سيجد نفسه، خلال السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة، في مواجهة تحدي، والذي يتمثل في شباب في أمس الحاجة إلى التكوين، السكن، العمل، المعدات الهاتفية، خدمات المصارف...الخ.

في الواقع العملي، بالنسبة للواجهة البحرية، حجم المهمة يبدو كبيراً جداً، في

مقاطعـــات الجـــنوب تدفق الداخلين إلى سوق العمل يتجاوز الخارجين منه. خطر بطالـــة الـــشباب حقيقي جداً، في الوسط وفي الشمال، من فوجيان إلى هيلونجيانق، التـــنافس بين الشباب وكبار السن، في سوق العمل، ملتقياً مع البطالة يقود إلى نفس النتـــيجة: مسألة العمل هي منذ الآن مسألة شائكة (البطالة تطال 20% من السكان النشطين) ويمكن أن تصير إعصاراً، وتقضي هكذا على استقرار النظام الحالي في البلاد، بقدر ما أن الاضطرابات العمالية تتضاعف .

في هذا الوضع الهش، سيرى المجتمع أنماط أدائه التقليدية تهتز أكثر فأكثر. ثلاث عوامل، على الأقل تقود إلى هذا الاتجاه:

- **الوضع موضع اتهام مفهوم القدامى، والذي يفقد ميزته كنادر، ويمكنه أيضاً أن يفقد الاحترام والحقوق التي كانت معترفاً بها حتى الآن.**

- الانخـــداع بجـــواز السفر الداخلي - الهوكو - يقود السلطات إلى أن تتجاهل تمامـــاً حتـــى وجود المهاجرين، والذين هم، مع ذلك، فعلة مهمين في حياة المـــدن. إلى 10.5 مليون سكان بكين رسمياً، يمكن أن نضيف حوالي 3.3 مليون غير مقيمين. هؤلاء يقطنون " قيتو" ضواحي العاصمة.

نظـــام الهوكـــو هـــذا يمـــثّل جـــواز إلى وضعية هشة، ويقود إلى استبعاد المهاجـــرين مـــن الخـــدمات العامـــة " مدارس، صحة" وإلى سلبية سلطات المدن المضيقة نحو هذه الجماهير البشرية.

مثل هذه الظروف لا يمكنها إلا أن تشجع ازدهار العصابات من كل الأنواع مـــنها المتخصـــصة فـــي نشاطات غير مشروعة، ومنها من تخصيص في أحداث قلاقل أمنية.

من هنا بالطبع تزداد الجريمة والتي تمتد أحياناً حتى خارج قيتو المهاجرين.

المكانـــة الاقتـــصادية التـــي لهؤلاء الفعلة تحت الأرض، أي الذين يقومون بأنـــشطة اقتـــصادية غيـــر معلنة، خارج النظم الجارية، والتي لها مع ذلك أهمية اقتصادية. اتصالات بعضهم مع الخارج، ثقلهم العددي المتعاظم في المدن المتجهة

إلـــى الـــركود الــسكاني، يمكن أن يقودهم، عاجلاً أم أجلاً إلى المطالبة بحقوقهم، فيقلبون بهذا نمط التفكير والعلاقات الاجتماعية.

- الانتشار المتسارع للإجرام في المجتمع:

هـــذا الـــتطور يزدهـــر فـــي أوضاع تتسم بعدم اليقين الاقتصادي، (أزمة الأريـــاف، هجـــرة غيـــر مستوعبة، فقر متعاظم) مستغلاً انهيار القيم الاجتماعية التقلـــيدية: من عام 90 إلى عام 93، أكثر من 37 ألف بوليس جرت ملاحقتهم بتهم الفـــساد. الفساد طال حتى الرتب الأكثر ارتفاعاً، كما برهن على ذلك، عام 1998، فـــي شـــهر يونيو، الحكم على عمدة بكين شين كسيتونق، بست عشرة سنة سجناً، وطرده من الحزب الشيوعي الصيني بتهمة الفساد واختلاس الأموال العامة.

- نحو تضاعف بؤر العنف:

فـــي هذا المحتوى من فوران التطلعات الاجتماعية، على خلفية توتر اقتصادي كبير، فإن السلطات، لكي ترد، تبدو عاجزة، وربما ستكون أشد عجز غداً.

الأمـــل فـــي خفـــض هـــذا الضغط يبدو لا واقعياً: الدعم الحالي للبطالة - المـــساعدات - لا يمكـــن أن يـــستمر اقتصادياً، إلى الأبد، السكان يبدون اليوم لا مباليـــين بأي أديولوجية تخفي هذه المطالب من ناحية أخرى، منذ الآن لم يعد هناك اهـــتمام بمـــبدأ الإنصاف أو التوزيع، وذلك منذ أن سمح دينق كسيا وبينق لبعض المقاطعات بالإثراء بدون تعويض للمقاطعات الأخرى. الصين الزرقاء ستكون أكثر مواجهة وانشغالاً بمشاكلها الخاصة.

الأمـــل في الرد على هذا هو أمر مشكوك فيه. الأفضل أن نتوقع أن بعض المقاطعـــات ســـتتمكن، بدون شك، من الخروج من هذه الوضعية، بينما مقاطعات أخرى سوف تغرق في وضعية أزمات متكررة.

مثل هذا التطور المنفصل - إيجابي بالنسبة لبعض المقاطعات، سلبي بالنسبة لمقاطعـــات أخرى - يغذي دوافع الإقليمية، المحسوسة منذ الآن، من خلال وطأتها وحضورها، في بكين جماعات كما في شنقاهاى (جماعة هو) وفي شاندونق أيضاً والتـــي بدأت تعلن عن نفسها. أو من خلال فقدان السيطرة على الثقافة واللغة، كي

يشهد على ذلك ازدهار لهجة شانقاهاى وكانتون. إن ما يؤخذ ربما على أنه تنوع ثقافي ولغوي، في ظروف الصين، يشير إلى توجه تفكيك أعمق للمجتمع الصيني.

هذه التوقعات الاجتماعية الاقتصادية، وإن كانت لا تهدد مباشرة الوحدة الوطنية، إلا أنها سوف تغير، خلال السنوات القادمة، العلاقة بين المركز والأطراف. اتجاهان محتملان لهذا التغيير:

- **حكم ذاتي للمقاطعات.**

- **تضاعف بؤر العنف.**

سلطات المقاطعات يتوجب عليها وحدها مواجهة بؤر العنف، منذ قمع 89 ظهر استخدام الجيش ضد الهان مخاطرة كبيرة بالنسبة لبكين، كما أنه لم يعد لبكين سلطة حقيقية على المقاطعات من هناك تبرز مخاطر تمرد أو عصيان إذا لم ينجز تطهير جذري في كل دوائر الدولة – الإدارة، القضاء، البوليس.

غياب الدولة يجعل هذه المهمة تبدو مستحيلة بالنسبة للمقاطعات .

هامش

المساحة : 9.6 كم2.

السكان : 1.2 مليار نسمة.

التوزيع العرقي : يوجد في الصين 56 قومية، أهمها:

الهان : 92% .

الأقليات العرقية: 8% .

ماندوشو : 10 مليون.

زوهانق : 16 مليون.

هوى : 9 مليون.

ويقور : 8 مليون.

منغول : 5 مليون.

تبت : 4.5 مليون.

الديانة : الفنوصية agnostique: 10%

معتقدات شعبية : 20%

بوديين : **6%**

مسلمين : 2.4%

مسيحيين : أقل من 1%

المراجع

1- قاموس لصراعات:

بإدارة ج .م. بالينسي. أرنودولاقرانج وتقديم ج ك روفان.

نشر ميشالان. باريس. 1999 .ص 923. 940 .

2- العالم اليوم - موسوعة اقتصادية جغرافية سياسية

نشر لاديكوفيرت. باريس .1999. ص 287. 294.

3- سكان العالم . س بروك.

نشر دار التقدم. موسكو .1983. ص 283 .287.

4- الخروج من الاجتماعية (الاشتراكية). في سورمان.

فايارد. باريس .1990. ص 303 .365.

5- اللومون: نكبة رجال شينيانق الصامتة.99/1/15 .

وحدة الصين خرافة ؟ !99/9/23

النظام الأحمر يسيطر على بكين24 .23 /99/1

خمسون عاماً: الصين الشعبية 1 99/10/1

خمسون عاماً: الصين الشعبية 99/10/22

خمسون عاماً: الصين الشعبية 33 .99/10/4

بكين: الاعتراف بالضعف 98/12/24.

6- انظر أيضاً: د. رجب بودبوس - مواقف 5

نشر الدار الجماهيرية. ليبيا 1995 .

الفصل التاسع

الاتحاد الهندي: إرهاصات تفكك؟!

(1)

الهـند اتحـاد فيدرالـي يـتكون من 25 ولاية، وسبع مقاطعات، مساحتها 3287000 كـم^2، وتعتبر ثاني أكبر بلدان العالم سكاناً، إذ يبلغ سكانها حوالي 900 مليون نسمة وهي كيان متعدد، يتسم بتنوع الأعراق، واللغات (أكثر من 200 لغة وآلاف اللهجات)، والقبائل (400 قبيلة) والأديان (هندوس 81.5%، إسلام 12.5%، مـسيحية 2.3%، سيخ 2%، بوذية 0.8%) إضافة إلى عدة تكوينات إقليمية قوية وذات خصوصية.

وحـدة الاتحـاد وقدرته على البقاء متماسكاً، يعتمدان على مبادئ تأسيسية كبـرى تقـررت عند الاستقلال: ديمقراطية برلمانية، علمانية، دولة قانون ونظام فيدرالـي. هذه الأسس هي الضمان الضروري للتوازن بين سلطان مركزي، أحياناً بعيداً جداً، وأطراف متعددة وأحياناً مهملة ومهمشة.

هـذه القـيم بدت على أنها الوسيلة الوحيدة القادرة على تجاوز عدم تجانس مكونات الاتحاد. في عالم معاصر، يسوده الاضطراب، بسبب تفكك عدة دول ذات نظـام فيدرالي، الاتحاد السوفيتي يوغسلافيا الاتحادية، تبدو المعجزة الهندية مرجعاً ومـثلاً، رغم تخلفها النسبي وفقرها، فإن الهند تؤكد نفسها كقوة كبرى إقليمية ذات طمـوحات سياسية قوية، وانجازات تقنية مهمة، لقد دخلت النادي الذري والفضائي منذ بعض الوقت. لكن هذه الانجازات وهذه الطموحات السياسية لم تكن بدون آثار سـلبية على تماسكها الداخلي. فإلى متى تستطيع هذه الأسس مقاومة عوامل التآكل والفساد الداخلي؟.

الهـند بلد التنوعات، بلد التناقضات من كل الأنواع، بلد الأقليات أحياناً ذات

أهمية كبرى: مثلاً 130 مليون منبوذ، 120 مليون مسلم. أقليات أحياناً بحجم دولة. **أنها أيضاً بلد العنف.**

العنف طبع نشأة الاتحاد، كما شهدت على ذلك أحداث التقسيم عام 1947. 1948، والطاردة المتبادلة بين 8 مليون هندوس فروا من الباكستان و8 مليون مسلم تركوا الهند، وفي نهاية المطاف 500 ألف ضحية.

الهند المستقلة أظهرت توجهاً نحو العسكرية أكثر منها توجهاً نحو العنف، لقد دخلت في ثلاث حروب مع جارتها الباكستان: 1947، 1948 – 1965 ، 1971. واشتبكت مع الصين عسكرياً 1962، وتعتبر قواتها المسلحة الأكبر عدداً في العالم، إذ تضم 1.2 مليون جندي، وتدخلت في أماكن أجنبية قريبة منها – سيريلاند 1987، مالدين 1988 .

لكن العنف ظهر على المستوى المحلي، الاتحاد الهندي يواجه سلسلة من التهديدات:

- ذات طبيعة انفصالية (كشمير، البنجاب، أسام ..الخ).
- ذات طبيعة طائفية (اضطرابات بين المسلمين والهندوس).
- أصولية دينية (حركة السيخ والهندوس).
- تطرف سياسي: اليسار المتطرف (ناكساليت).
- ونزعات إقليمية (المطالب السياسية والهوية عند الفوزكاس والبودوس...ألخ).

أمام ضعف السلطات المحلية في الولايات والمقاطعات، وعدم قدرتها على وضع حد لهذه التوترات، اضطر المركز، نيودلهي، إلى التدخل، مستنداً إلى ترسانة قانونية وبوليسية وعسكرية متنوعة. رغم قوة وكثرة وتنوع قوات البوليس، فإن الجيش صار يتدخل أكثر فأكثر في عمليات حفظ النظام والأمن. في بداية عام 1995. 4000 ألف عسكري، أي ثلث قوة الجيش الهندي، وجهوا للقيام بدور بوليسي، مع النتائج السلبية الممكن توقعها على قدرتها العملياتية الحقيقية، فإن هذا يعكس مدى استفحال الاضطرابات الداخلية واشتداد العنف:

العنف الداخلي في الهند يتجسد في نمطين من الصراعات:

تلـك التـي تـضع **موضـع** سؤال وحدة الاتحاد، ويمكن تحليلها من خلال الصراع بي ن المركز وبعض أطرافه – كشمير، البنجاب، شمال شرف الهند .

تلك التي تطعن في شرعية البنية السياسية والاجتماعية للاتحاد: ظهرت في التـنديد بعلمانية الدولة من قبل المتطرفين الهندوس، وفي التنديد بالنظام الاقتصادي من قبل الناكساليت، وفي الاحتجاج على التنظيم الإداري، والتقسيم الترابي، من قبل بعض الحركات الإقليمية وأقاليم الحكم الذاتي.

– كشمير:

تكمن أزمة كشمير في قلب الصراع الهندي – الباكستاني، وهي نتاج تقسيم عام 1947. أدت مباشرة إلى حربين بين نيودلهى وإسلام أباد، وتحولت مع الوقت إلى نزاع عسكري. دبلوماسي سياسي، وقانوني مزمن.

مـنذ نهايـة أعوام 80، تفاقم التوتر ملاحظ في جوار الهملايا، الاشتباكات المـتعددة بـين الجيـشين في هذه المناطق، ظهور حركة نضال مسلح في كشمير الـواقعة تحت النفوذ الهندي، ومحاولات الباكستان الحديثة تدويل المسألة، تدفع إلى التفكيـر في أن التطورات الأخيرة يمكن أن تقود إلى أشغال حزب جديدة هندية – باكستانية.

هـذه الحرب ستكون أشد مأساوية لأن البلدان، بعد سباق طويل نحو التسلح، أمتلكا قدرات عسكرية مهمة، لقد امتلكا، خاصة قدرات، محدودة بالطبع لكن حقيقية في المجال الذري والصواريخ الباليستية.

مواقف الهند وباكستان، فيما يتعلق بأزمة كشمير، يختلفان في عدة نقاط:

– في تحديد مصطلح كشمير نفسه وامتداده الجغرافي.

– حـول القـراءة التاريخـية للأحـداث الماضـية، وحول التحليل القانوني والدبلوماسي للنزاع وحول تحليل الأزمة الحالية.

- كـذلك حول عدد الضحايا. الأرقام تختلف. بالنسبة للبعض 12 ألف، والـبعض الآخـر 50 ألـف موتى. الرقم 20 ألف يبدو أكثر قرباً من الحقيقة.

- **واقع جغرافي صعب التحديد:**

المـصطلح كـشمير لـه مدلولات مختلفة، إذن من الضروري التمييز بين كشمير الجغرافي وبين دولة جامو كشمير الهندية.

كـشمير تطلـق علـى أراضي تقع في منطقة الهملايا، ذات حدود متذبذبة، تلتقي فيها تأثيرات آسيا الوسطى والعالم الهندي الصيني.

المـصطلح، مأخـوذاً في معناه الأكثر اتساعاً، مساحته 220 ألف كم2 يـسكنه حوالـي 10 مليون نسمة، تتقاسمه اليوم الهند، باكستان والصين. كان مسرح حربين بين الهند وباكستان، 1947. 1948، 1965، أما تخومه الشرقية - هـضبة أكـساي الـصين - فهي في قلب النزاع الهندي - الصيني - منذ حربهما عام 1962.

كشمير، تمثّل في الواقع كل غير متجانس، متكون من بضعة كيانات متميزة عـن بعضها بما يكفي، والتي في داخلها الوقائع السياسية، العرقية، الدينية واللغوية تتـنوع كثيراً. الأغلبية العظمى مسلمة، من المذهب السني، لكن يوجد أيضاً شيعة، وأتباع المذهب الاسماعيلي، وما يتبقى هندوس وسيخ وبوديون.

- **الجزء الهندي من كشمير:**

مـن خلال ولاية جابو كشمير، مساحتها 101387 كم2 وسكانها 6 مليون، تـسيطر الهند على معظم كشمير. جامو كشمير هي الولاية الخامسة والعشرين في الاتحاد الهندي. وهي الولاية الوحيدة ذات الأغلبية المسلمة 85% منهم 5% شيعة. لهـذا فإنهـا تتمـتع بوضع خاص حسب الدستور الهندي. لكن منذ صيف 1988 صارت مسرح اضطرابات انفصالية دامية.

جامــو كــشمير التي يطلق عليها الباكستانيون: كشمير المحتلة من الهند، تتكون من ثلاث كيانات متميزة:

- وادي جــيلوم. القلب التاريخي لكشمير، حيث توجد العامصة سريناقار، يبلغ سكانها حوالي 3 مليون نسمة، منهم 90% مسلمون سنة.
- جامو، المجاورة للبنجاب، يسكنها 2.8 مليون 65% منهم هندوس.
- لاداكـــا، منطقة جبال مرتفعة، قليلة السكان: 150 ألف. منهم أغلبية ضئيلة ذات ثقافــة تبتــية ودين بودى وأقلية كبيرة مسلمة. هذه الأراضي هي اليوم مــسرح اضــطرابات مــن نــوع خاص. لادكا هي إحدى أعلى المناطق المــسكونة فــي العــالم، في الأصل يسكنها سكان يدينون بالبوذية، والثقافة التبتــية، دخلهــا الإســلام ومــنها الإسلام تدريجياً من الباكستان ومن إقليم كسنجيانق الصيني.

التعايش في البداية كان رائعاً بين المسلمين والبوذيين، لكنه أخذ يتدهور منذ نهايــة أعــوام 80، ويرجع هذا إلى تدفق المهاجرين الكشميريين المسلمين، الذين قدمــوا كــتجار، ممــا أدى إلى النمو المتسارع للأقلية المسلمة، حتى أنها صارت أغلبــية، خاصة في منطقة كارجيل. كما يرجع هذا أيضاً إلى أن النساء اللاداكيات، منشغلات بالبحث عن أزواج، لم يترددن في الزواج من المسلمين واعتناق الإسلام.

الــسكان المحلــيون صــاروا يشعرون بتهديد سكاني، ليس ذلك فقط لأنهم ينجبون قلة من الأطفال، بل أيضاً لأنهم يفقدون أمهات - افتراضياً - بسبب زواج النــساء مــن المــسلمين، حتى أن البعض صار يخشى اختفاء البوذية قريباً تجمع المحليون في رابطة " اللاداكية البوذية" في محاولة لوضع حد لتفاقم هذه الظاهرة.

هــذه الحركة ظهرت في نهاية أعوام 80، تكافح من أجل فصل لاداكية عن كــشمير، ومن أجل ذلاية متميزة عضوة في الاتحاد الهندي، أو على الأقل ماقطعة تحت الإدارة المباشرة لنيودلهى.

هــذا الهدف تحقق جزئياً في نوفمبر 1993، بإنشاء مقاطعة ذات حكم ذاتي.

لكــن الــسلطان المركزي تردد في الذهاب أبعد من هذا، لقد كان يخشى أن إدخال تعديلات مهمة في خارطة جامو كشمير، الإدارية، والسياسية، يمكن أن يفسر على أنه مقدمة للتخلي مستقبلاً عن كشمير.

رابطـــة لارداكية البوذية تطالب أيضاً بسيطرة حازمة على هجرة المسلمين. لا تملـــك إلا وسائل قليلة، وبدون دعم خارجي، فإن الرابطة فضلت العمل السياسي وليس العنف، لكن بعض عناصرها تورطوا في عدة حوادث دامية في ليه عاصمة لاداكـــا، مـــع ذلك، حتى الآن حوادث العنف بين الجماعتين - البوذية والمسلمة - نادرة، إلا أن احتمال تطرف موقف البوذيين ليس مستبعداً والذي يقود إلى رد فعل الجماعة المسلمة.

إلى وقت قريب لاداكية كانت بعيدة عن أزمة كشمير. لكن بعض الجماعات الانفصاليـــة يمكن أن تمد إليها نشاطها بأن تجعل من نفسها المدافعة عن الجماعة المسلمة أمام عدوانية البوذيين.

العلاقات التي تربط ولاية جامو كشمير بالاتحاد الهندي مستثناة من الدستور القائم في بقية الهند. هكذا المواطن الهندي لا يمكنه الإقامة الحرة في كشمير. المادة 370 م الدســتور. هــذه المادة، التي يندد بها الهندوس ويطالبون بإلغائها، تفرض على الحكومة الهندية استشارة سلطت سريناقار في تطبيق بعض القرارات المتخذة في نيودلهي. لكن في الواقع هذه الخصوصية بدأت تختفي منذ بضعة سنوات.

- الجزء الباكستاني من كشمير:

يغطّـــي أكثــر من 78 ألف كم2 من كشمير الجغرافي، يسكنه حوالي 3.3 ملـــيون نـــسمة. القسم الباكستاني، والذي يمثل في نظر الهنود كشمير المحتل من باكستان، يتكون من منطقتين متميزتين من الناحية السياسية والقانونية:

أراضـــي الـــشمال تحـــت الإدارة الفيدرالية، وتدار مباشرة من إسلام أباد. مـــساحتها حوالي 65 ألف كم2، يسكنها حوالي 600 ألف نسمة غالبيتهم من الشيعة أو مـــن الإســـماعيلية ، وهي تمثل موقع جيوستراتيجي مهم جداً. بسبب قربها من

الـصين ولأنها تستخدم منفذاً إلى سياشيني. خط الهدنة الذي يحدد الأراضي الهندية والباكستانية خلال كشمير، يتوقف عند النقطة 9892 NU. فيما وراء ذلك فراغ جغرافي حتى الحدود الصينية على بعد عشرات الكيلومترات بعد أن أهملت هذه النقطة الجبلية العالمية.

فإن الهند والباكستان يحاولان، منذئذ ،تأكيد المبادرة، ونشرت فيها قوات تسيطر على مضائق سلسلة سالتورو، مما أثار رد فعل قوي من جانب الباكستان.

هذه المنطقة الصحراوية تحولت إلى ميدان قتال الأكثر ارتفاعاً في العالم، حيث عدة آلاف من الجنود، في كل معسكر، يتواجهون، ويحتكرون من 200 إلى 300 موقع.

في حوالي عشر سنوات سقط آلاف القتلى، وأضعاف ذلك من الجرحى، ضحايا المعارك خلال فترات التوتر الدامي 85 .87. 1992 وأيضاً ضحايا ظروف صعبة – برد، ارتفاع شاهق، انزلاقات ثلجية – التي يواجهها الجنود.

هذه المواجهة، في هذا الارتفاع (حوالي 7000 متر) ذات تكلفة مالية مرتفعة بالنسبة للطرفين. الصحافة الهندية تذكران تكاليف وجبة الغذاء المنقولة إلى ارتفاع 7000 متر تكلف 10 دولار فإذا أخذنا عدد الجنود تبين لنا مدى ارتفاع التكاليف، ناهيك عن تكاليف الأسلحة والذخيرة والصيانة.

– أسد كشمير: أراضي مساحتها حوالي 13 ألف كم2. يقطنها 2.6 مليون نسمة، أغلبيتهم مسلمون شيعة. لها وضع خاص منذ عام 47.

كشمير الحرة هذه يقودها وزير أول يقيم في مظفر أباد، لها دستورها الخاص (منذ 1974) وبرلمانها الخاص، وتتمتع بحكم ذاتي نسبي في المجال التشريعي والتنفيذي والقضائي. لكن مسائل الدفاع والخارجية والمالية ترجع إلى إسلام أباد.

– الجزء الصيني من كشمير:

في معظم الأحيان مجهولاً أو متجاهلاً أو مسقطاً من ملف كشمير. في نظر نيودلهي بكين تحتل أكثر من 40 ألف كم2 من كشمير الجغرافي.

ينقسم إلى قسمين:

– اكساي شنين: مساحته أكثر من 37 ألف كم2 يسكنه بضعة آلاف من السكان. وهو ملحق حالياً بالإقليم ذي الحكم الذاتي التبتي. لكن الهند تعتبره الجزء الشرقي من لاداك.

حدود هذه الهضبة الهملادية المرتفعة، شبه الصحراوية، محصورة بين التبت واكسنجيانق، لم ترسم بدقة أبداً، هذه المنطقة، تاريخياً، تحت النفوذ التبتي، أحتلها الصينيون في الأعوام 50 السيطرة الصينية جرت وترسخت عقب الحرب الهندية – الصينية عام 1962، والتي خلالها، تمكنت القوات الصينية من زحزحة خط الحدود عشرات الكيلومترات على حساب الهند.

– قطاع مساحته حوالي 5000 كم2. يقع شمال بالتيستان، تخلت عنه الباكستان لصالح الصين، في عملية تبادل أراضي، وفق المعاهدة الباكستانية – الصينية عام 1963.

– الخلاف الباكستاني – الهندي:

تحديد امتداد كشمير – الجغرافي والتاريخي – يثير خلافاً عميقاً بين الهند والباكستان:

- الهنود يدافعون عن مفهوم واسع جداً لمصطلح كشمير، يستند إلى نظرة تاريخية للمسألة: أنهم يفهمون من كشمير مجموع الأراضي التي كان يديرها مهراجاً كشمير في القرن 19، والتي ألت إليه أما بالإرث – جامو – أو بالشراء – وادي جيلوم – أو بالاستيلاء العسكري – لاداكا – وبالتيستان. هذه النظرة المتطرفة تقود نيودلهى إلى المطالبة بكل الأراضي الواقعة اليوم تحت الإدارة الباكستانية والصينية.

- الباكستان نظرتها أكثر محدودية، تقوم على أسس اجتماعية واتفاقية، عامدة إلـى دمج الهوية الكثيرين مع الهوية الإسلامية، لهاذ السبب فإن باكستان لا تطالب إلا بجزء من جامو كشمير الشرقي. لاداك واكساي شين، ذات الثقافة التبتية والديانة البوذية، ليسا جزءاً من كشمير الحقيقية.

إلـــى صـــعوبة تحديد مدلول مصطلح كشمير بدقة، تضاف صعوبة أخرى، متعلقة بالهوية الكشميرية، مع أن أغلبية سكانها من المسلمين، إلا أن كشمير، على مـــر الـــزمان، كانت ملتقى الهندوسية ثم البوذية، قبل أن تعتنق الإسلام، ابتداء من القرن الرابع عشر، وتصير قلعة صوفية. هذا الماضي ،الماقبل إسلامي، الغني، لم يخـــتف نهائـــياً، لهـــذا من قصر النظر اعتبار المليون ونصف غير المسلمين، في كشمير، مجرد مهاجرين هنود محدثين.

كشمير هكذا ذات إرث لغوي ثقافي عرقي، يقود إلى ثنائية في تأكيد الهوية، بـــين أولئك الذين يقدمون الإسلام وأولئك الذين يفضلون هوية كشميرية متجذرة في ماضي متعدد الثقافات.

هـــذه الثنائـــية فـــي مسألة الهوية نجدها في قلب حركات الكفاح حالياً ضد الوجـــود الهـــندي فـــي جامو كشمير. البعض يفضل معركة إسلامية، ويعلن إرادة إلحاق كشمير بالباكستان المسلم. بينما آخرون يكافحون من أجل الحافظ على هوية كشميرية، يداعبهم حلم كشمير مستقلة متعددة الثقافات والأديان.

- جذور الأزمة:

عندما كانت الهند تحت الاحتلال الاستعماري، كشمير، التي يسكنها في الغالب مـــسلمون، كانت تحت حكم عائلة مهراجا هندي منحدر من جامو (أسرة دوقراس). لكـــن مـــنذ أعـــوام 30 صارت سلطة هذه العائلة محل احتجاج واعتراض عدد من المسلمين المجتمعين في المؤتمر الوطني، وهو التكوين الوطني الكشميري الأساسي، الذي أسسه الشيخ عبد الله، المسمى أسد كشميرـــ 1905. 1982 والذي فرض نفسه كشخصية أساسية في الحياة السياسية الكشميرية من سنوات 30 وحتى بداية الثمانين.

عقـــب اضطرابات دامية بين الطوائف، بشكل خاص عام 1931. و1932. أســـاس الشيخ عبد الله أولاً مؤتمر عموم مسلمي جامو كشمير في أكتوبر 1932، بهـــدف الدفاع عن مصالح الأغلبية المسلمة في مواجهة نظام راجا. خلال السنوات التي تلت، عقد علاقات مع شخصيات بارزة في المؤتمر الوطني الهندي – غاندي

نهــرو – ونــتج عن ذلك تبني نظرتهم العلمانية لمستقبل شبه القارة الهندية. فاتحاً حــركته لغير المسلمين أيضاً، ودخول حزبه إلى مؤتمر وطني وذلك عام 1939. مفــضلاً هكذا الهوية الكشميرية التي لا تستبعد الإسلام على الهوية الإسلامية التي تــستبعد غير المسلمين. وهذا دفعه إلى رفض دمج كشمير في الباكستان عند تقسيم عــام 1947. لكنه ما بين سنوات 50 و80 تردد بين حلم الاستقلال وواقع الانتماء للاتحــاد الهنيد، رفض دمج كشمير في الباكستان كان وراءه حلم استقلال كشمير، لكنه عملياً وجد نفسه منتمياً للاتحاد الهندي. الشيخ عبد الله عرف السلطان باعتباره وزيــر دولة وكذلك السجن – مجموعة 14 سنة – قبل أن يقترب، في نهاية حياته من مواقف الهند. مات الشيخ عام 1982. ورثه سياسياً ابنه فاروق عبد الله.

عند تقسيم عام 47، هارى سينق، الذي كان في السلطة، فكّر، بعض الوقت، فــي إعلان استقلال الأراضي التي يحكمها، لكن في أكتوبر عام 47، تسلل الألوف غيــر القانونــي، كــشميريين، وباتــان، في منطقة لونشي، عبر الحدود الأفغانية الباكــستانية، الــراغبين في إلحاق الإمارة بالباكستان، أجبر الحاكم على أن يطلب إلحــاق كــشمير بالاتحــاد الهندي، مقابل الإبقاء على بعض الخصوصيات، رغم معارضة أغلبية السكان لهذا الإجراء.

نيودلهــي نــشرت ســريعاً قواتها، التي ابتدئ من 1948 وصارت في مــواجهة مباشرة مع الجيش النظامي الباكستاني الذي جاء لدعم المتسليين. هذه الحرب الأولى انتهت بهدنة إي النار 1949 والتي قسمت كشمير التاريخي إلى قــسمين حول خط سيطرة – خط هدنة – والذي صار منذئذ حدود غير موثوفة بين الهند والباكستان.

فــي هذه الأثناء، ومنذ ربيع 1948، صارت الأمم المتحدة طرفاً في النزاع. مجلــس الأمــن تبنــى في إبريل 1948 وفبراير 1957 سلسلة من ستة قرارات، تتمحور حول تنظيم استفتاء حر ومحايد يسمح للسكان بالاختيار بين الالتحاق بالهند أو بالباكستان وفق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

لكــن عــدم الثقة المتبادلة بين البلدين، وتصلب مواقف كل منهما حالا دون

تنفـيذ هـذا الاستفتاء. لجنة صغيرة فقط جرى نشرها على طول خط السيطرة – الهدنة – لازالت هناك منذ أكثر من 45 سنة لكن اختصاصاتها محدودة جداً.

عجـز الأمم المتحدة أدى في سنوات 50 إلى تجميد الوضع ميدانياً. التقسيم كأمر واقع يبدو أنه يرضي الطرفين المتنازعين .

خـلال أعـوام 60 صارت كشمير، مجدداً، فريسة توترات دامية. في عام 1963 سـرقة شعرة النبي محمد – يزعم أنها محفوظة في مسجد حضر تبال في سـارينقار، أدت إلى موجة اضطرابات عنيفة. في مثل هذه الظروف لا يستبعد أن إسلام أباد تحاول أخذ زمام المبادرة بأن تسرب متطوعين غير نظاميين، لكن يبدو أن الدعم الشعبي المتوقع من الكشميريين كان محدوداً. رداً على هذا اجتاز الجيش الهـندي في أغسطس 1965 خط السيطرة – الهدنة – لكنه واجه مقاومة باسلة من جانب القوات الباكستانية .

لـم يتمكن أحد الطرفين من إنجاز امتياز حاسم في المعركة، لذلك اتفق على وقف النار في 22 سبتمبر 1965.

نـزاع عـام 1967 الذي قاد إلى فصل الباكستان الشرقي، لم يمس كشمير مباشـرة، حتـى لـو أن بعض العمليات جرت في المنطقة. على العكس اتفاقيات الـسلام التـي لحقـت (اتفاق سيملا 3 يوليو 1972) أثرت بشكل مهم في الملف الكـشميري المـوقعان، مـع الإقرار، باختلاف وجهة نظرهما، يلتزمان بأن يحلا نزاعهما من خلال التفاوض الثنائي وكان ذلك على حساب تدخل الأمم المتحدة.

الوضـع فـي كشمير استقر لبضعة سنوات، لكن في نهاية أعوام الثمانين، تغيـرات عميقة على المسرح الدولي، وفي الهند وكشمير جعلت الأزمة الكشميرية تدخل مرحلة جديدة.

- **نزاع بمعايير متغيرة:**

فهـو من ناحية نزاع بين دول – الهند والباكستان – وأحياناً الصين. ولكنه

أيضاً نزاع داخل الدول – بين المسلمين في جامو كشمير والسلطان الهندي المركزي. وأحياناً بين المنادين بالهوية الكشميرية والمنادين بالهوية الإسلامية.

ينتج عن هذا نوعان من العنف ذي الأصل المشترك، أحداث عام 47 ترتبط بالاثنين معاً، لكنهما يستجيبان لمنطق خاص بكل منهما:

- العداء الديني بين الهند والباكستان:

التوترات الحالية يبدو أنها تسجل في إطار حرب رابعة مقبلة بين الهند والباكستان. هذا السلام الساخن يتجسد مادياً من خلال توالي المصادمات، المحددة صحيح، لكن أحياناً دامية، بين الجيشين النظامين على طول خط السيطرة – الهدنة، ومن خلال حرب المواقع في المرتفعات من أجل السيطرة على سياسين، ومن خلال العمليات القذرة التي تقوم بها أجهزة استخبارات البلدين (في كشمير، البنجاب وأسام بالنسبة لاستخبارات الباكستان، وفي السند بالنسبة لاستخبارات الهند). هذا الصراع الذي ينظر إليه على أنه توتر منخفض الوثيرة، يمكنه أن يتحول، في أي لحظة إلى مواجهة كبرى ومدمرة، كما برهن على ذلك إنذار عام 1990، وسائل الإعلام أشارت إلى خط المواجهة النووية بين الهند والباكستان.

- الانتفاضة المسلحة في جامو كشمير منذ عام 1989:

حتى لو أن الهند كانت محقة في اتهام الباكستان بدعم هذه الانتفاضة، إلا أن الأمر، في الواقع، يتعلق بمشكلة داخلية في الاتحاد الهندي، والتي تمتد جذورها إلى الواقع المحلي الكشميري.

من عدة وجوه، هذه الاضطرابات يمكن تشبيهها بحرب تحرير في إطار استعماري، يقوم بها طرف، مختلف جغرافيا ودينيا وثقافياً – ضد مركز بعيد.

النزاع يجعل في المواجهة عدة جماعات كشميرية مسلحة، جماعات استقلالية، إسلامية متعاطفة مع الباكستان، ضد قوات الأمن الهندية، وتكون فرصة لعمليات الاغتيال، الاشتباكات والمجازر الطائفية والقمع الأعمى...الخ أدت حتى الآن إلى 20 ألف موتى في مدى ست سنوات.

منذ نهاية أعوام 80 التداخل بين البعدين، ما بين الدول وداخل الدول، أدى إلى انطلاق الأزمة الدبلوماسية بين نيودلهي وإسلام أباد، كلاهما متمسك بمواقف لا يمكن التوفيق بينهما:

- إسلام أباد، من جهتها تستند على حجة حق الشعوب في تقرير مصيرها، وتطالب باستفتاء تحت رقابة دولية، وفقاً لقرارات الأمم المتحدة في الفترة من 48 إلى 1957، ساعية إلى طرح المسألة في كل المحافل الدولية. الباكستان تحاول قدر المستطاع إثارة اهتمام الأمريكان والأوروبيين والبلدان الإسلامية بمعركتها - تستغل كل المنابر للدفاع عن القضية (الجمعية العامة للأمم المتحدة، لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، منظمة المؤتمر الإسلامي، حركة دول عدم الانحياز، الكومنولث) لكن حتى الآن هذا الهجوم الدبلوماسي لم يكلل بالنجاح المرغوب.

- نيودلهي، من ناحيتها، ترى على العكس أن قرارات الأمم المتحدة الصادرة في سنوات الخمسين قد عفا عليها الزمن، وتفضّل احترام الحدود الناتجة عن مرحلة تصفية الاستعمار، منددة بقوة بتدخلات الباكستان في جامو كشمير، مستندة في حجتها على اتفاق سيملا، فإن الهند تتمسك بالشكل الثنائي للمفاوضات. وقد نجحت الهند حتى الآن في تفادي تدويل النزاع، لأن هذا التدويل يبدو ضاراً بالنسبة للهند، فهو يمثّل سابقة خطيرة، إذ يمكن لحركات الانفصال الأخرى - أسامي، ناقاس وآخرون في الشمال الشرقي - أن يحتجوا بها.

- **جذور الانتفاضة:**

تفجّر الكفاح المسلح ابتداء من 1989، هو ثمرة تطور طويل بدأ منذ بداية أعوام 80. هذا الكفاح المسلح تغذية عدة عوامل:

- ظروف كاسمير الخاصة.
- التطور الفوغائي الداخلي في الاتحاد الهندي .
- بعض الأحداث الكبرى على المسرح الدولي.

- التدهور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في كشمير:

عقب إلحاق كشمير بالاتحاد الهندي، نجح المؤتمر الوطني، وخلال ثلاثة عقود، في الحفاظ على توازن عادل بين تطلعات الاستقلال أو حتى التطلعات المتقاطعة مع الباكستان، وبين الانتماء للاتحاد الهندي وفاة الشيخ عبد الله عام 1982، أحدثت تغييراً في هذه القيمة الأساسية، ابنه فاروق، الذي خلفه لأبيه، بسبب مسيرة غوغائية، تتمثل في العبور إلى تولي السلطة وإلى المعارضة طوال الحقبة 1980، تحالفه المعترض عليه، مع المؤتمر بزعامة راجيف غاندي، الذي كان في السلطة في نيودلهي، رآه عدد من الكشميريين تبعية مذلة للسلطان المركزي، أما إدارته للشؤون العامة فقد كانت مرسومة بالفساد والوساطة والمحسوبية وعدم الكفاءة، مما عجل بإثارة السخط العميق بين السكان. هكذا الهيمنة التقليدية للمؤتمر الوطني انهارت سريعاً، بسبب ظهور تكوينات معارضة جديدة، أحياناً ذات صبغة إسلامية مثل الجبهة الإسلامية المتحدة M.U.F .

تنامي وازدهار هذه الحركات أجبر السلطات المحلية، المنشغلة بالحفاظ على السلطان، على اللجوء إلى التزوير في انتخابات عام 1987 لضمان الفوز.

تدهور المناخ السياسي في أعوام 83 إلى 89، صاحبه تدهور في الظروف الاجتماعية - الاقتصادية، تمثل هذا في صعود البطالة التي مست خصوصاً حملة الشهادات من الشباب، والذين شعروا بأن تطلعاتهم الاجتماعية أحبطت، ولعب الساسة أثار اشمئزازهم .

هذه الجماهير من العاطلين أمدّت مختلف الجماعات النشطة بالمناضلين، والتي انطلقت في الكفاح المسلح منذ 88. 1989.

منذ منتصف الحقبة 80، وخاصة بعد انتخابات عام 87 المشبوهة، تحول عدد متعاظم من الشباب الكشميري إلى العمل السري، واجتازوا الحدود الباكستانية بهدف الحصول على أعداد سياسي وعسكري. بالنسبة للبعض قام بأول تجارب الحرب في أفغانستان، إلى جانب جماعات المجاهدين المتعاطفين، مع الباكستان المقاتلين ضد القوات السوفيتية.

- الوضع السياسي في الهند:

بدايـــة الاضـــطرابات، في جامو كشمير، في نهاية أعوام 80، تزامنت مع إعـــادة تشكيل عميقة للمشهد السياسي الهندي، غذاة الانتخابات العامة، نوفمبر 89، والتـــي أدّت إلـــى هزيمة حزب المؤتمر، وضعف حكومة جاناتادال الائتلافية التي خلفت حكومة حزب المؤتمر. وتنامي حزب الشعب الهندي *BJP*. في هذا المحتوى المـــضطرب كان السلطان المركزي غير قادر على إدراك، وفهم الوضع الحقيقي الذي يتطور في كشمير، واختار حلاً قمعياً خالصاً، يتمحور حول الإدارة المباشرة للمـــنطقة من قبل الحكومة الفيدرالية، ونشر أكثر من 500 ألف جندي في الميدان. قـــسوة وصـــلابة الخـــط الـــذي تبنته نيودلهي يجد تفسيره في الخوف من العدوى المزدوجة.

- تفجُّـــر الاضطرابات الطائفية بين الهندوس والمسلمين يخاطر بأن يهدد جدياً علمانية الدولة التي تمثل قاعدة النظام السياسي الهندي.
- وجـــود ســـابقة والتي يمكن أن تستخدمها المطالب الانفصالية الأخرى – في البنجاب .. أسام .. الخ حجة مما يهدد وحدة الاتحاد.

- ظروف دولية مواتية:

صـــعود قوة المطالب الكشميرية، في نهاية أعوام 80، تأثّر باتجاهين ظهر على المسرح الدولي.

- بعث النضال الإسلامي، ورمزه في المنطقة كان الثورة الإيرانية عام 1979، وانتصار المجاهدين على الجيش الأحمر، في أفغانستان عام 1989 .
- نهاية الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتي، وإعادة تشكيل آسيا الوسطى الـــسوفيتية، والـــذي أدى إلـــى اســـتقلال دول مـــثل تركمنستان، قيرجيز، وطاجكـــستان، والتـــي ســـكان كل منها لا يتجاوز الخمسة مليون، في هذه الظروف، العبور إلى الاستقلال لبلد مثل كشمير، الذي يسكنه عشر مليون لم يعد وهماً.

- تعدد وجوه النزاع:

النـــزاع الكشميري كان يمكنه أن يكون شكلاً مصغراً لحرب أفغانستان، لكن مـــع التـــسليم بأن ثمة تشابهاً بين الحالتين، وأن بعض العناصر الفاعلة عبرت من نـــزاع إلى آخر، فإن المقارنة تبدو، من بعض الوجوه مجحفة: الكشميريون ليسوا مقاتلـــين مثل الأفغان، وثقافتهم مهما كانت غنية، فإنها لا تفضل بشكل خاص القيم الحربية. إنّ اليأس هو الذي قاد بعضهم إلى حمل السلاح في نهاية أعوام 80.

- اختلال توازن القوى المتواجهة:

الحـــركات الكـــشميرية يمكنها أن تحشد، على الأكثر، 10 آلاف نشط، منهم نـــواة صلبة ومدربة تدريباً جيداً 4 آلاف مقاتل. بينما قوات الأمن الهندية - جيش وحدات شبه عسكرية بوليس - تقدر بحوالي 500 ألف عنصر.

هـــذه القوات عليها أن تعيد الهدوء وتفض النظام في أراضي جامو كشمير، وأن تواجه القوة العسكرية الباكستانية في الجانب الآخر من خط السيطرة - الهدنة - كمـــا أنـــيط بهـــا منع تسلل المناضلين القادمين من أشد كشمير ومن الباكستان، والـــسيطرة علـــى الأريـــاف لعـــرقلة حـــركة النشطين، وحفظ النظام في المدن. ســـرينقار تحولت هكذا إلى معسكر شديد التحصين، حيث تنتشر نقاط المراقبة، وكل المباني الرسمية وضعت تحت حراسة قوية.

الحـــركات الكـــشميرية النـــشطة مشتتة في كثرة من المنظمات. المخابرات الهـــندية تقـــدر عـــددها بأكثر من 120 في بداية الاضطرابات. معظمها جماعات صغيرة.

إذا كانـــت كـــل الحركات تقاتل من أجل فصل كشمير عن الاتحاد الهندي، فإنها تختلف حسب أديولوجياتها ومشروعها السياسي، مع ذلك يمكن تمييز بؤرتين متنافستين وأحياناً متواجهتين:

- إحـــداهما تجمع التشكيلات الوطنية التي تقاتل من أجل استقلال كشمير موحد، أي يظم أيضاً الجزء الباكستاني من كشمير وتتبنى خطاباً - أحياناً - علمانياً.

- الأخـــرى تـــتكون من حركات ذات توجه إسلامي، وتناضل من أجل إلحاق جاموكشمير بالباكستان.

العلاقـــات بـــين هذين التوجهين تتأرجح بين التعاون الأخوي وبين الاقتتال. عـــدة مناضلين جرى اغتيالهم على يد القوات الهندية بسبب خيانة رفاقهم، أو بسبب اخـــتلاف عمـــيق حـــول طبيعة المعركة، وأحياناً بسبب خلاف حول تقاسم حمولة سلاح جرى الاستيلاء عليها، أو بسبب تحول أحد القيادات من حركة إلى أخرى.

واعـــياً بهذا الضعف المترتب على الانقسامات في صفوفه، حاول المعسكر الانفصالي تجاوز هذه الانقسامات، بأن كوَّن ائتلافاً واسعاً عام 1992 هو " المؤتمر أحزاب الحرية".

الحـــركات الكشميرية تقود حرب عصابات تقليدية، تستهدف رموز السلطان المركـــزي والمتعاونـــين معـــه، واســـتنزاف القوات الهندية ويعمل ناشطوها في مجمـــوعات صغيرة من 5 إلى 10 أفراد، ولا يعملون في جماعة كبيرة إلا نادراً ، وهـــذا يحد من فعالية عملياتهم، إلى جانب أنهم لا يملكون أسلحة ثقيلة. يتمركزون أساســـاً فـــي وداي سريناقار، ثم توسعت عملياتهم لتشمل كل جامو كشمير، ونظراً لاختلاف ميزان القوى في غير صالحهم، فإنهم يفضّلون العمليات الخاطفة ويتفادون كل مواجهة مباشرة مع القوات الهندية.

- بوادر تحول الأزمة إلى طائفية:

عـــدة عملـــيات خطـــف واغتيال وقتل تستهدف الأقلية الهندية، حفرت هوة عميقة بين الجماعة الإسلامية والجماعة الهندية، مع أن هذه الأحداث الدامية ليست في أهمية المجازر التي يرتكبها السيخ في البنجاب، وأنها بدأت مؤخراً، وفي غالب الأحـــيان علـــى يـــد أجانب قدموا من أفغانستان، إلا أنه لا يستبعد أن تكون، ولو جزئياً، بفعل المخابرات الهندية التي تستهدف.

- الطعن في مشروعية الحركات ومطالبها.

- تحويل المسألة من معركة تحرير وطني إلى نزاع طائفي كان من كان وراءها فإنها أدت إلى هجرة الهندوس المقيمين في وادي سرينقار.

التحول إلى نزاع طائفي بدأ من خلال عمليات التفجير والتهديد من قبل جماعات إسلامية ، لكن هذا كان رداً على ظهور جماعات الدفاع الذاتي التي شكّلها المتطرفون الهندوس أتباع حزب الشعب الهندي B.J.P وغيرهم من المسؤولين عن عمليات القتل ضد المسلمين في جامو.

هكذا النزاع أخذ يتحول من نزاع سياسي ضد السلطان المركزي، ليأخذ أيضاً شكل نزاع طائفي.

خلال السنوات الأولى من النزاع، وجدت قضية الاستقلال دعماً كبيراً من الشعب، إلى جانب الدعم المباشر، فإن الشعب شارك في عمليات المقاومة السلبية - اضرابات، مظاهرات، عصيان مدني - وإظهار العداء نحو القوات الهندية. حتى أن بعض المراقبين أطلق صفة انتفاضة على أحداث كشمير، على غرار انتفاضة فلسطين.

السلطات الهندية لا تستطيع الاعتماد على البوليس المحلي، معتبرة إياه غير موثوق به، ذلك لأن عدة أحداث جعلت في المواجهة القوات الهندية مع البوليس الكشميري.

مع أن هذا الوضع في طريقه إلى أن يتغير، لكن تظل أغلبية الشعب في صالح قضية الاستقلال، ولازالت هناك حركات نشطة حتى عام 1996.

في حرب قذرة يخوضها جيش نظامي ضد المدنيين، قوات الأمن تنتهج بانتظام أسلوب التعذيب، أما السلطات العسكرية الهندية فإنها تغمض عيونها عن أعمال القمع: اغتصاب ، قتل، عقوبات جماعية، حرق قرى..الخ أكثر من 2000 مدني ضحايا إعدام بدون محاكمة على يد قوات الأمن. 20 ألف معتقل بدون محاكمة. عدة شهود يشيرون إلى أن التعذيب شائعاً ضد المعتقلين. مسؤولية القمع أسندت للجيش الهندي، لكن تكتيك القمع تحسّن منذ بداية أعوام 90 بفضل تعاون

سري مع " الكيان الصهيوني " والاستفادة من خبرته في قمع انتفاضة الفلسطينيين.

- الآثار الاقتصادية والبشرية:

النـــزاع الكـــشميري يمثّل حملاً ثقيلاً على الاقتصاد الهندي، وذلك لأسباب ثلاث:

- تكاليف الإنفاق على قوة أمنية كبيرة.
- تكاليف الدمار المترتب على المعارك.
- الخـــسائر المتـــرتبة علـــى توقف السياحة والتي مثلت حتى 1938 النشاط الاقتصادي الأساسي في أراضي كشمير.

أمـــا على المستوى البشري فإن العمليات العسكرية والأمنية أدت إلى موت 1100 بين عام 89 و97، إلى هذا يضاف الخسائر بين المدنيين.

لكـــن أسوأ آثار النزاع تكمن في الهوة التي حفرت بين الجماعة الإسلامية والجماعـــة الهندية، والتي انعكاساتها لا تتوقف عند حدود كشمير، بل ستتعداها إلى داخـــل الاتحـــاد الهـــندي. هـــل نـــرى فـــي هذا نفس الآلية التي قادت إلى تقسيم 47 – 48 ؟.

- غياب الحل:

بـــسبب تـــشتت الحركات الكشميرية، والخلافات فيما بينها، واحتلال ميزان القـــوة لـــصالح قوات الاتحاد الهندي، يبدو أن قضية الاستقلال لا يمكنها الانتصار علـــى المدى القريب، على الأقل، لكن عوامل أخرى تجعلنا ندرك أن أزمة كشمير لا نهاية قريبة لها.

- مأزق الحل العسكري:

إذا مـــن وجهـــة نظـــر عملياته، قوات الأمن سجلت بعض النقاط لصالحها، بـــسبب الـــضعف البنـــيوي للجماعـــات المطالبة بالاستقلال، فإنها تبدو قد خسرت

المعــركة المعــنوية – النفسية – مع أن بعض علامات التعب والإنهاك قد ظهرت بــين الشعب، إلا أنه يرفض الوجود العسكري الهندي، كما أنه لا يوجد مؤشر على انخفــاض الوجود العسكري الهندي، كما أنه لا يوجد مؤشر على انخفاض مستوى العــنف. علـــى العكس النزاع ينتشر في بقية الاتحاد الهندي، كما برهن على ذلك سلــسلة العملــيات مــنذ خريف 95 التي جرت في نيودلهي وضواحيها، على يد جماعات كشميرية.

هكــذا رغــم محاولات التهدئة التي قامت بها السلطات المركزية، وإجراء انــتخابات قاطعــتها أغلــب الجماعات السياسية الكشميرية فإن مرحلة جديدة من النــضال بــدأت تأخــذ مكانها. هذه المرحلة، منذ 97 لا تظهر عليها أية علامات ضعف.

- **حركات الاستقلال يمكن تصنيفها في نمطين:**

1- حــركات الاستقلال المطالبة بكشمير مستقل وموحد، وبذلك ترفض التبعية للباكستان والهيمنة الهندية معاً، من أهمها جبهة تحرير جامو كشمير.
2- الحــركات ذات التوجه الإسلامي والمرتبطة بالباكستان، من أهمها: التوجه الإسلامي، حزب المجاهدين، الفاتح.

(2)

- **البنجاب:**

حركات السيخ المسلحة في البنجاب تمثل التهديد الأخطر على وحدة الاتحاد الهندي خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة.

منذ عام 93 يمكن النظر إلى مسألة السيخ من زاويتين:

- الأولى تقدم الأرض: البنجاب كيان جغرافي يغطي على مرور الزمن واقعاً متنوعاً.

- الثانية تركز على البشر وبالتالي على السيخ، ومطلب الهوية، وعلاقتهم بالهندوس وبالسلطان المركزي.

تفجر أحداث العنف، في البنجاب، خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، يمكن تفسيره من خلال محاولات السيخ إيجاد تطابق بين السكان السيخ وأراضي البنجاب.

هاتان الزاويتان ما يجب أولاً تدقيق النظر فيهما:

- هوية السيخ:

البنجاب، والذي يعني بلاد الخمسة أنهار، هو محور عبور تقليدي نحو شمال غرب الهند، يربط حوض وادي الهندوس والقانج، هذه الأراضي تقع بين الهملايا وصحراء تار، مثل حلقة اتصال حدودية بين العالم الإسلامي والهندوسي. وعلى هذا ليس مصادفة أن المذهب السيخي، الذي يدمج الإسلام والهندوسية، ظهر في هذ المنطقة.

هذا الدين، السيخي، تأسس في نهاية القرن 15 على يد ناناك ديف 1469. 1539 وهو إحدى العبادات التي ظهرت في القرن 15 بهدف ضمان انبعاث الهندوسية في مواجهة الإسلام الفاتح لكن المذهب السيخي وحده توصل إلى الحفاظ على هوية مستقلة والتي لم تتوقف عن التأكد على المستوى العقائدي حتى أسست جماعة ذات خصوصية - على المستوى الديني والاجتماعي واللغوي - ترسخت طويلاً في البنجاب، متأثرة بالطرق الصوفية.

لقد أسس ناناك مذهبه - عقيدته - خلال رحلاته في الهند وبلاد فارس. العقيدة السيخية تبدو هكذا مزيجاً من الإسلام والهندوسية، تقوم على التوحيد - خالد لا يغني - ورفض الطائفية - تطلع إلى مجتمع المساواة، وهي قيم إسلامية، ممزوجة ببعض التعاليم الهندوسية - العقيدة في كارما، ووحدة الأرواح في الله - الدين الجديد يقوم على المساواة بين البشر ويريد نفسه متسامحاً، ويندد بتطرف البراهمة وبعض الجماعات الإسلامية.

على مرور الزمن، ارتبط مصطلح البنجاب بامتداد جغرافي متنوع. في بداية القرن 19 كان البنجاب، ولوقت قصير، دولة يتحد فيها السيخ مع المسلمين مع الهندوس باسم هوية بنجابية وليدة. البنجاب، ما قبل الاستعمار، كان له جيشاً قوياً، مكنه من مقاومة الاستعمار الانجليزي طويلاً، وأتاح له أن يمد سلطانه على ما وراء البنجاب الجغرافي حتى باشوار، في الشمال على أبواب الحدود الأفغانية، ولاداك في الشرق. لكن الاحتلال الإنجليزي رده إلى فضائه الطبيعي.

البنجاب، حيث السيخ يمثلون 15% من السكان، جرى تقسيمه خلال تقسيم 47. معظمه، بما في ذلك لاهور، العاصمة التقليدية للبنجاب، صار باكستانيا. مقاطعة البنجاب وبقية أراضيه، بما في ذلك أمريستار، المدينة المقدسة عند السيخ، كوّن ولاية البنجاب الهندية.

سكان ولاية البنجاب الهندية معظمهم هندوس، ولا يمثل السيخ إلا 35% من سكانها.

البنجاب، ما بعد الاستعمار، قسم مجدداً عام 1966 بطلب من السيخ، إلى مناطق سكانية ذات أغلبية سيخ، ومناطق هندوسية كونت ولاية هاريانا وهيماشال برادش. البنجاب الحالي جزء من الاتحاد الهندي، يمتد على مساحة 50 ألف كم2

وهذا يمثّل جزءاً صغيراً من مساحة البنجاب الجغرافي. يسكنه حوالي 18 مليون نسمة، 60% منهم سيخ. السيخ يمثلون أغلب سكان الريف، بينما الأقلية الهندوسية تسكن المدن.

- من هم السيخ؟

السيخ هم أتباع دين - السيخية - يبلغون حوالي 27 مليون نسمة منهم في الهند 17 مليون، أي 2% من سكان الهند، وحوالي 9 مليون في البنجاب، وتتوزع البقية في ولاية هاويانا، هيماشال، نيودلهى..ألخ حوالي 2 مليون يوجدون بين المهاجرين الهنود في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وجنوب شرق آسيا.

ثلاثة عوامل أساسية أثرت كثيراً على سلوك السيخ طوال الأزمة:

- فقدان الوحدة:

الجماعة السيخية مقسّمة وفق معايير ذات طبيعة اجتماعية (وجود عدة طوائف) ودينية (نزاع الأرثودوكس وجماعات أخرى فرعية) واقتصادية (تناقض بين المستفيدين وبين المستبعدين من الثورة الخضراء) وسياسية (بين الوطنيين المعتدليين والمتطرفين، وأنصار الاتحاد الهندي) وثقافياً (بين الريفيين وسكان المدن) دون أن ننسى التعارض بين الأجيال (شباب مناضل وكبار السن السياسيين) يضاف إلى هذا عدة نزاعات شخصية. لذلك من الأفضل الحديث عن فسيفساء جماعة سيخية تقوم على قواعد جغرافية، اجتماعية، اقتصادية، مختلفة، ومصالح اقتصادية وسياسية أحيانا متناقضة.

غياب الوحدة، منذ عدة قرون أدى إلى نزاعات أخوية وأضعف الحركة السيخية.

- عقدة الهوية:

الجماعة السيخية مؤسسة على الانتماء لدين أقلية، اضطهدت طويلاً، وتحت تهديد مستمر بالذوبان في الإسلام أو في الهندوسية، مما أنتج لديها شعوراً قوياً بالهوية، والذي لا يستند إلى عوامل عرقية، وإنما على مجرد الانتماء لمجموعة من الشعائر الدينية والاجتماعية والثقافية. العقيدة السيخية تتسم بانتماء قوي للجماعة من خلال الالتزام بممارسات يومية – نمط الملابس، قواعد النظافة.. الخ – وبوجد شبكة جماعية – معابد – مدارس – روابط – تقوم بتربية الفرد والمحافظة عليه، في المقابل عليه الدفاع عن الجماعة في ظروف الأزمة. هذه التضحية أدت إلى الرغبة في الفداء والبحث عن الاستشهاد في مواجهة الظالم والذي أدى إلى صعوبة قمع حركة السيخ.

- مشاعر قهر عميقة:

هذه المشاعر ظهرت عقب تقسيم عام 47، لقد شعر السيخ أنهم الخاسرون في تصفية الاستعمار، بعد أن كانوا مفضلين عند الإنجليز.

استحالة الحصول على دولة سيخية، على عكس المسلمين الذين حصلوا على دولة – الباكستان .

هجرة حوالي 2 مليون من الجزء الباكستاني في ظروف قاسية وترك ممتلكاتهم الفردية والجماعية – أكثر من 150 معبداً – كل هذا أدّى إلى صدمة عنيفة. هذا الشعور ازداد حدة بسبب عدة إجراءات اتخذتها حكومة نيودلهي، وظهرت لهم على أنها مَزِيّة ضد جماعة السيخ وأراضي البنجاب:

- إعداد سئ جداً لاستقبال المهاجرين.
- التردد في إنشاء وطن للسيخ.
- تقليص وجود السيخ في الجيش بسبب نظام الحصص.

نتج عن هذا روح نضالية غاضبة، أدّت خلال حقبة 1970 إلى تنامي الاهتمام لصالح دولة السيخ مستقلة، وعند البعض الآخر إلى التحول إلى العنف المسلح.

- ***من المطالب الوطنية إلى النضال المسلح:***

منذ نهاية القرن 19 شاعت بين جماعة السيخ مشاعر وطنية تستمد جذورها من المقاومة العريقة، ضد أباطرة المغول والغزاة الأفغان، وكذلك من ذكريات بنجاب مستقل.

عام 1873 مؤسسة جمعية الأسود – مجموعة جمعيات ذات توجه ثقافي، تستهدف مقاومة المبشرين المسيحيين والهندوس، سجلت النقطة الأولى في ولادة مشاعر وطنية حديثة، درجة إضافية في وعي الهوية تم الوصول إليها عام 1920، مع تأسيس حزب الخالدين.

بعد ذلك تنوعت مطالب الوطنيين السيخ، ما بين فكرة بلاد البنجاب الحرة وفكرة بلاد السيخ. وهذا يشهد على تردد المناضلين بين نظرة تستند إلى الهوية تجعل السيخ في قيتو ترابي يعزلهم عن غيرهم، وبين مشروع بنجاب حرة يتجاوز الطوائف مفتوحاً لغير السيخ من الناطقين باللغة البنجابية.

مشروع الدولة المستقلة، الذي قدمه حزب الخالدين، قبيل تقسيم 47، لم يحظ باهتمام كبير من قبل الإنجليز والقادة الهنود، بسبب تشتت وهامشية السيخ سكانياً في البنجاب الجغرافي بالنسبة لجماهير المسلمين والهندوس.

عقب الحرب الهندية الباكستانية عام 1965، واعترافاً بالتزام السيخ النشط في الصراع لصالح الهند، عملت السلطات المركزية على إرضاء المطالب الوطنية جزئياً، فأقامت بنجاب على أساس لغوي يشمل كل الأراضي حيث اللغة البنجابية أغلبية. لكن هذا الإجراء كان أقل مما يرضي الجزء المتطرف من جماعة السيخ. خلال الحقبة 1970، بدأ البنجاب يتوجه نحو العنف والاضطرابات.

اشتغال العنف، الذي يعرفه البنجاب منذ عشرين سنة، يمكن تقسيمه إلى عدة مراحل:

- صعود متدرج للتوتر من 73 **إلى** 78 .

في الإطار العام، الآثار السلبية لازمة النفط العالمية، والتوزيع غير العادل لعوائد " الثورة الخضراء " أدى إلى تفاقم النزاعات الاقتصادية والاجتماعية (تدمير العلاقات بين الطوائف، بين المدن والأرياف بين المستفيدين والخاسرين في عملية تحديث الاقتصاد....الخ) .

في الوقت نفسه بدأ يتطور تنافس حاد من أجل الاستحواذ على الزعامة السياسية، جعل في المواجهة العلمانية والمعتدلين من حزب الخالدين (المهتمين بإدارة البنجاب بالتحالف مع الأحزاب الوطنية لصالح كل سكان البنجاب، أيا كان انتماؤهم الديني) وفي الطرف الآخر. الأصوليون (الراغبون في قطيعة مع السلطان المركزي والعمل فقط لصالح السيخ).

تفاقم الخلافات والتناقضات الداخلية في قلب جماعة السيخ، يرجع، في معظمه إلى ما تحيكه رئيسة الوزراء آنذاك، انديرا غاندي، بهدف زعزعة وإضعاف حزب الخالدين، وتفتيت الحركة، وإتاحة الفرصة لظهور شخصيات أكثر تطرفاً ومنافسة مثل بندران وال. لكن هذه الشخصيات لم تتأخر في التحرر من الوصاية، ليصيروا فعلة مستقلين.

- **بوادر الانحراف الأصولي 78. 89 :**

المـــواجهات الدامية الأولى بدأت خلال ربيع 1978، على يد أنصار بندران وال، والـــذي دخـــل في مواجهة مع حزب الخالدين من أجل النفوذ السياسي على جماعة السيخ.

بـــندران وال، وأنـــصاره الـــذين يتكاثرون. بدأت الاضرابات والمظاهرات واحتلال المعابد(اعتصموا في المعبد الذهبي من يوليو 1982) وقتل غير السيخ، والاغتـــيالات. مـــستوى العنف ظل مع ذلك محدوداً، بضعة مئات من الضحايا في أقل من خمس سنوات.

حزب الخالدين، من جانبه، حاول مواجهة مزايدات بندران وال، بأن تطرف فـــي خطابه نحو السلطان المركزي، ونظّم مظاهرات جماهيرية. مناخ التوتر الذي هيمن على البنجاب أدّى إلى أن السلطان المركزي فرض الإدارة المباشرة عليه في أكتوبر 1983.

- **القطعية الدامية :**

بدايـــة عـــام 1989، بـــندران وال، من خلال خطبة النارية، نجح في خلق أســـطورة حـــول شخـــصه، في بضعة شهور صار الزعيم الأوحد لكل الحركات المتطرفة، منتهزاً سلبية سياسة المركز، وفقدان القادة المعتدلين للمصداقية.

بعـــد ذلك تصلب الحكومة المركزية، أدّى إلى تطرف مطالبة، والتي لم تعد تقـــنع بحكـــم ذاتـــي موســـع، وإنما الاستقلال، متأثراً في هذا بمختلف الجماعات المتطرفة المنحدرة من الشتات، الفصل الأول من عام 84 شهد عدة عمليات اغتيال لا سابق لها، ذهب ضحيتها أكثر من 300 شخص.

المعـــبد الذهبي تحوّل إلى قلعة حصينة، يحتله عدة آلاف من المسلحين. بعد عـــدة شـــهور من التردد، قررت أنديرا غاندي استعادة النظام وفرض هيبة الدولة، وأمرت بعملية النجم الأزرق.

في ليلة 30 مايو أكثر من 70 ألف جندي انتشروا في كل البنجاب، والجيش

أحكم حصار المعبد الذهبي. خلال أسبوع دارت معارك طاحنة بين القوات المسلحة والمسلحين المعتصمين، أدّت إلى تدمير عدة مبان. الجيش استعمل المدفعية، والدبابات، والمصفحات في عملية اقتحام المعبد، مدنساً هكذا المكان الأكثر قدسية عند السيخ.

المقاومة توقفت ليلة 6 .7 يونيو. المعارك حصدت أرواح ما بين 320 – حسب المصادر الرسمية – و650. حسب المصادر غير الرسمية - معظمهم من السيخ، من بينهم بندران وال. أما خسائر الجيش الهندي فقد كانت 90 جندياً.

حصار أمريتسار كانت له آثار سلبية، في البنجاب وفي عموم الاتحاد الهندي، أعقتبه عدة مواجهات ما بين الطوائف ،وحوادث ضد قوات الأمن، وسلسلة من التمرد، وحالات فرار من وحدات السيخ في الجيش الهندي. السلطات المركزية خططت على عجل لعملية جديدة تستهدف تهدئة المناطق الريفية. القمع كان وحشياً.

لكن النجاح العسكري للعمليتين أدى إلى مأزق سياسي. تدنيس الأماكن المقدسة عند السيخ ووحشية الجيش، أدى إلى صدمة عند جماعة السيخ مصحوبة بترسخ مشاعر الهوية، وتنامي الجماعات المعارضة المسلحة، العديد من المعارضين تخلوا عن الشرعية وتحولوا إلى العمل السري.

القطيعة بين السيخ وبقية الاتحاد اكتملت باغتيال انديرا غاندي على يد اثنين من حرسها السيخ 1984/10/31، وموجة الأعمال المضادة للسيخ التي تبعت ذلك، أدت إلى حوالي 4000 ضحية. حسب بعض التقديرات.

– محاولات حل فاشلة:

واعياً بالمخاطر التي تهدد تماسك الاتحاد، رئيس الوزراء الجديد، راجيف غاندي، عمل على تهدئة الوضع، ووقع على اتفاق يرضي جزءاً كبيراً من مطالب السيخ ممثلين في حزب الخالدين، لكن زعيم الحزب دفع حياته ثمناً لهذا الاتفاق على يد متطرفين. بعض الهدوء تبع التوقيع على الاتفاق، خليفته فاز في الانتخابات المحلية بنسبة 80% عام 85 .

مهمّشاً بذلك المتطرفين. لكن الحكومة المركزية عملت على تخريب الاتفاق بأن ما طلت في التطبيق الفعلي ما أضعف كثيراً مركزه. واقعاً بين نارين: ضعف مركـــزه وفقد مصداقيته، بينما المتطرفون يطورون عملهم. ساحة أمريتسار جرى احتلالها عدة مرات خلال سنوات 86 –88 من قبل الأصوليين السيخ ، والجماعات المـــسلحة زادت في عملياتها ضد قوات الأمن، وعمليات قتل عرقي ضد الهندوس والذي أثار كردة فعل قمعاً دامياً.

البنجاب غرق في العنف، من 86 إلى 88 عدد الضحايا ارتفع من 640 إلى 1246 ثـــم إلى 2074. تدهور الوضع أدى إعادة العمل بنظام الإدارة المباشرة من نيودلهـــي. وخـــلال أربع سنوات 89. 92، بلغت الأزمة ذروتها. نشاط الجماعات المسلحة أجتاز حدود البنجاب إلى عدة ولايات هندية مجاورة.

بعـــد أن أجلـــت ســـلطات نيودلهي المركزية انتخابات عام 91، عادت في محاولـــة نـــزع الفتـــيل، إلى إجراء الانتخابات عام 92 .لكن نسبة المشاركة كانت ضـــعيفة جـــداً، 24% بـــسبب دعوة المقاطعة المشاركة كانت ضعيفة جداً، 24% بسبب دعوة المقاطعة التي أطلقتها معظم جماعات السيخ، مما طعن في شرعيتها.

تناقضات الأزمة: العنف في بلد مزدهر.

أزمة البنجاب وقعت في إحدى الولايات الأكثر ازدهاراً، أو على الأقل فقراً بـــين ولايـــات الهند، وإحدى أكثر المستفيدين من " الثورة الخضراء" التي أطلقتها سلطات نيودلهي عام 60.

بفـــضل الـــثورة الخضراء تمكّن البنجاب من تأسيس زراعة متطورة، وأن يـــصبح، خـــلال ربع قرن، مخزن الرز بالنسبة للاتحاد. وهو يتمتع بنظام تعليمي جيد، سمح له بأن يحصل على نسبة متعلمين، هي من بين الأعلى في الاتحاد.

لكن مع كل هذا لم يكن الوضع جيداً في السنوات العشرين الأخيرة.

فـــوائد الـــثورة الخضراء لم تتوزع بعدالة – اجتماعياً وجغرافياً – وازدهار الزراعة أدّى إلى تدفق اليد العاملة – الأجنبية – خاصة من الهندوس الذين يعملون

في الزراعة مقابل أجور زهيدة. هذه الهجرة أدخلت تغيرات محسوسة في التوازن السكاني في بعض الأقاليم مما أدى إلى ردة فعل مضادة للأجانب.

من ناحية أخرى، السلطان المركزي عارض دائماً تطوير الصناعة في البنجاب، متعللان بأن قربه من العدو الباكستاني يمنع إقامة بنية تحتية صناعية واقتصادية متطورة والتي ستكون هدفاً سهلاً في حالة اندلاع حرب.

التقاء التخلف الصناعي مع نظام تعليمي جيد، قاد خلال أعوام 70 إلى كثرة من الشباب المتعلم المحكوم عليهم بالبطالة بسبب عدم توفر فرص عمل مؤهل كافية. ما أدى إلى شعور بالقهر والسخط عندهم. هؤلاء الشباب رفضوا قادة السيخ المعتدلين وأمدوا الحركات المتطرفة السيخية بعناصرها .

- دور السلطان المركزي في تدهور الوضع:

بدلاً من محاولة تهدئة التوتر، تبنى السلطان المركزي، خاصة في عهد أنديرا غاندي، في الغالب سلوكا مكيافلياً، مستهدفاً نشر الأزمة. المسؤولون في حزب المؤتمر، رغبة في إضعاف الأحزاب الإقليمية المحلية، بهدف تدعيم زعامتهم على مسرح السياسة الوطني، شجعوا سراً صعود الحركات المتطرفة في سنوات 90. بهدف زعزعة حزب الخالدين وإضعافه. كما أنه في أحوال عديدة، بدت أنديرا غاندي مفضلة الدفاع عن مصالح الحزب على حساب المصالح البعيدة المدى للاتحاد. بعد ذلك سياسة القمع الغاشم التي طبقها السلطان المركزي، أدت إلى إدامة الأزمة، وتغذية أحقاد المقاتلين من جماعات السيخ، الراغبين في الثأر مما قام به الجيش ضدهم أو ضد أسرهم.

رغم النجاحات التي حققتها قوات الأمن، إلا أن الحركات السيخية ما زالت قادرة على توجيه ضربات موجعة، كما برهن على هذا عملية اغتيال رئيس وزراء البنجاب.

حركات السيخ يمكن أن تكون أنهكت 6000 قتلى، من بين عناصرها عشرون ألفاً اعتقلوا. لكن مشاعر الهوية السيخية عمّدها الدم والضحايا، لا يتوقع اختفاءها.

- **شمال شرق الهند:**

يمثل شمال شرق الهند ثالث بؤرة توتر في الاتحاد الهندي، وهو يشمل سبع ولايـات، أغلـبها صـغيرة الحجم، مساحتها معاً 255 ألف كم2، أي 0.8% من مساحة الاتحاد، ويبلغ سكانها 30 مليون نسمة أي 3.6% من سكان الهند.

ولايـات شمال شرق الهند هذه مجموعة هامشية ومهمشة في الاتحاد، ولهذا لـيس من الغريب أن تظهر فيها انتفاضات، وحركات انفصالية، شمال شرق الهند. يمـثّل الهند مصغرة، حيث يوجد في مساحة صغيرة عدد من التناقضات والمآزق التـي تعـصف بالاتحاد الهندي، لكن بعض العوامل المحلية، يمكن أن تفسر جزئياً التوجه الانفصالي:

- شمال شرق الهند منطقة شبه معزولة عن بقية الاتحاد، يمثّل منطقة عبور بـين شـبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا. ولا يرتبط بالاتحاد إلا بواسطة ممر ضـيق، يـبلغ اتـساعه بالكـاد 32 كم. محصور جغرافياً بين بنقالادش وبيرماني والـصين وبـوتان، تـوجد بـه عدة مرتفعات تستخدم قواعد من طرف الحركات المسلحة، التي تقاتل حكومة مركزية بعيدة جداً.

- **فسيفساء بشرية معقدة:**

شـمال شـرق الهـند نقطـة الـتقاء عدة ثقافات، والتي يبدو التعايش بينها فـي - غالب الأحيان - صعباً: ثقافة تبتية، نيبالية، هندية بنقالية - إضافة إلى عدة شـعوب قبلية ذات أصول عرقية وهويات لغوية وديانات مختلفة، أو ما مجموعه 300 قبـيلة. أمـا مـن ناحية الديانات فيوجد معاً: الهندوس والبوذيون والمسلمون والوثنيون والمسيحيون.

هذا التنوع الهائل هو ثمرة تداخل عوامل الهجرة والغزو. وازداد تعقيداً في الزمن المعاصر بسبب تدفق موجات الهجرة.

- تدفق المهاجرين يزعزع الاستقرار:

من 1901 إلى 1971، كان نمو السكان في أسام 345%، مقابل 130% في بقية الاتحاد.

هذا الانفجار السكاني كان أولا لأسباب اقتصادية: جاء البريطانيون باليد العاملة الرخيصة للعمل في مزارع الشاي: مئات الألوف من المهاجرين من أصول مختلفة، هندوس، بيهار، بنغال، مسلمين، نيبال، والذين توطّنوا في المنطقة تدريجياً.

منذ نهاية المرحلة الاستعمارية حدثت موجات أخرى من الهجرة، ذات طبيعة أكثر سياسية منها اقتصادية، في كل فترة اضطرابات تمس البنغال الشرقي، ثم بنغالادش - تقسيم 47. حرب 65 .71 حالياً هذا التدفق مستمر بسبب التراكم السكاني في دلتا نهر القانج ويقود إلى بنغلة - تفوق البنغال عددياً - شمال شرق الهند.

نتائج هذا التدفق كانت زعزعة استقرار المنطقة. فقد أحدثت تغييراً في التوازن السكاني، والديني واللغوي.

التعايش يكون في الغالب صعباً بين السكان المحليين والقادمين الجدد المختلفين ثقافياً واجتماعياً عنهم. هكذا أقل خلاف بين جيران يمكنه أن يتخذ أبعاداً لا يمكن تخيلها، وإذا عرفنا أغلبية المهاجرين مسلمين، فإن هذا يضيف بعداً دينياً إلى التوتر بين الأعراق.

الوجود الأجنبي المتعاظم، ومشاركة الأجانب في كل مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية في هذه المناطق، مثلاً حق الإدلاء بالأصوات في الانتخابات، أدَّى إلى مقاومة عنيفة من قبل السكان المحليين، الذين صاروا يخشون التهميش على أرضهم والتحول إلى أقلية.

اختلال التوازن السكاني أدى إلى ظهور مشكلة الهوية عند السكان المحليين، الذين باتوا يخشون تغلب ثقافات المهاجرين الأجانب على ثقافتهم، كما يخشون الذوبان وسط أمواج الأعراق الأجنبية.

هــذه المــشاعر تنتشر خاصة بين " الأسامي " بسبب بلقنة أسام التاريخية، والتــي اقتطعت منها أجزاء خلال الثلاث حقب الأخيرة، في نفس الوقت يواجهون تدفــق شعوب أخرى، منذ غير الأساميين صاروا يمثلون 40% من سكان الولاية، ويــسيطرون على جزء كبير من القدرات الاقتصادية. عقدة الخوف هذه توجد عند معظــم الأعراق الصغيرة في المنطقة، والذين يخشون تغلب الهنود، والبنغال على هويتهم. يمكننا عندئذ الحديث عن سلسلة من العقد المتداخلة.

على مسرح الأزمة، في شمال شرق الهند، تظهر عدة تشكيلات، والتي تقاتل، بالنــسبة للأكثــر طموحاً: من أجل استقلال تام، أما بالنسبة للمعتدلين، فمن أجل حكم ذاتــي موســع. لكــنها جميعاً تبحث عن التحكم، بسبب عدم القدرة على منعها، في موجات الهجرة، التي تتدفق على أرضهم، من البنغال الغربي وبنقالادش.

العــنف الذي يدمي شرق الاتحاد الهندي يتمحور حول ست بؤر صراعية، ذات توتــرات مختلفة الشدة. بعض الأحيان هناك صراعات ضعيفة التوتر، لم تجر تغطيــتها مــن قــبل وســائل الإعلام العالمية، والتي يمكن النظر إليها على أنها فولكورية، لو أن مجموع ضحاياها لم يتجاوز كل سنة ألف شخص – بشكل عام ما بين 10 آلاف و12 ألف موتى منذ بداية حقبة 80 خاصة بسبب مواجهات عرقية .

المــشهد الصراعي في شمال شرق الهند يقترب مما هو الحال في بيرماني حــيث بــؤر عــنف تهــز الاتحــاد. ورغم اختلاف الظروف المحلية التي تغذي خصوصية كل حركة، فإن هناك سمات عامة يمكن الإشارة إليها.

- الانتماء إلى هوية عرقية :

يمكــن بكــل وضوح إرجاع كل جماعة مسلحة إلى أحد الأعراق أو القبائل التــي تــسكن هذا الجزء من الاتحاد الهندي، والتي تشعر بأنها مهددة بالاختفاء أو بالاســتيعاب. ورغم أن بعض الحركات ترفع شعارات دينية أو مادية، فإن المشهد الــصراعي، فــي شــمال شرق الهند، يقدّم البرهان على تراجع القيم الأديولوجية لصالح معركة الهويات والتي، أحياناً – قديمة جداً.

- **حركات ذات حجم صغير:**

معظـــم الجماعات المسلحة، في شمال شرق الهند، لا تضم إلا بضعة مئات مـــن المقاتلـــين، فـــي الغالب سيء التسليح، ويتمركزون في مواقع محلية. أهدافها المفـضلة " المـــستوطنون الأجانب" وأسرهم، وممثلو السلطان المركزي ورموزه، والمـــتهم بأنه لم يفعل شيئاً من أجل الحد من الهجرة، وأنه على العكس يشجع سراً هذا الاستعمار التدريجي.

الأعمال الحربية نادرة جداً إلا عند جماعة الأساميين، الذين يبدون أنهم أكثر قدرة عملياتية.

- **إرث أديولوجي قديم:**

عـــدة جماعـــات تـــشترك فـــي أنهـــا عرفت مرحلة ماوية خلال السنوات 70 - 80، قـــبل أن تـــتحول إلى القبلية، وتقديم الدفاع عن جماعتها العرقية على الانتماء الأديولوجي.

ممـــا لا شـــك فيه أن للصين دوراً في إنشاء ودعم هذه الجماعات وذلك في إطـــار النزاع الصيني - الهندي. وبعد أن عملت بيادق في يد الصين، فإن الصين تخلـــت عـــنها بقـــدر مـــا ينجز من تقارب بين عملاقي آسيا. لذلك اضطرت هذه الجماعـــات إلـــى التكيف مع الواقع الإقليمي والدولي الجديد، وأن تتبنى، كمحرك أساسي، معركة الهوية.

- **عصابات مسيحية:**

بعـــض الحركات تعلن خصوصية دينية، لكنها نادرة في المنطقة باعتبارها صادرة عن سكان دخلوا جزئياً المسيحية، مثل ناقاس ميزوس وكاسيس.

- **الاضطرابات الطائفية:**

الـــتهديد الأساســـي الـــذي يواجه الاتحاد الهندي، لا يصدر عن إحدى البؤر السابقة، الخطر الأكبر الذي ينخر قلب الاتحاد، ويهدد أسسه العلمانية والديمقراطية.

يتمثّل في ظهور طائفية متطرفة مغالية، تقوم على شوفانية دينية، والتي تترجم في اضطربات طائفية دامية بين الهندوس والمسلمين.

صحيح أن هذه المواجهات الطائفية ليست جديدة، بل هي ظاهرة قديمة، نجد الإشارة إليها منذ القرن الرابع عشر، عند بعض المؤرخين، والتي لم تتوقف خلال المــرحلة الاستعمارية، في غالب الأحيان بتشجيع من الإنجليز، حسب مبدأ " فرق تسد " للسيطرة على شبه القارة.

نهايـــة الاســـتعمار الإنجليــزي أدت إلى تصاعد العنف الطائفي. مؤدياً إلى تقسيم عام 47 .48 والذي ذهب ضحيته 500 ألف شخص.

التـــناقض الواضـــح بين الديانتين – الإسلام والهندوسة – وبين الممارسات والتقاليد الاجتماعية التي يفضلها كل منهما، تقدم معطية بنيوية للعالم الاجتماعي في شبه القارة.

رغم أن هذا حقيقة لكنه لا يقدم إلا زاوية أولى للنظر، رغم واقعيتها لا تكفي لفهـــم الظاهرة في كل أبعادها. ذلك لأنه إذا ديناميكية العنف الطائفي لم تتوقف منذ أربعـــين ســـنة، إلا أنها غيَّرت من طبيعتها: لقد فقدت تلقائيتها، وصارت مؤسسة، لأسباب عديدة، فباتت دموية على مرّ الأيام.

هـــذا التطور المتعاظم لديناميكية العنف هو من مسؤولية جماعات هندوسية متطرفة:

– عقدة دونية الأغلبية عند الهندوس:

يحدث حياناً أن الأغلبية في مجتمع ما تشعر بالدونية نحو أقلية تعايشها، مما يقـــود إلـــى عقدة دونية الأغلبية، هكذا تفاقم العنف الطائفي يرجع، بقدر كبير إلى ظهـــور عقـــدة دونـــية الأغلبية عند الهندوس، في مواجهة التأكد الحديث للجماعة الإسلامية. رغم عددهم الكبير 600 مليون، فإن الهندوس يعانون عقدة خوف قوية، يغذيـــها، طول أعوام 80 تفاقم الاضطرابات الانفصالية في البنجاب، كشمير، أسام، دائمـــاً ضـــد الأقلـــية الهندوســـية، ومزاعم مؤامرة إسلامية تحيكها الأقلية المسلمة

بالتعاون مع الباكستان والبلدان العربية. عدة دلائل تشير إلى هذا الخوف المرضي مــن الحصار الإسلامي، جرت ترجمتها من قبل متطرفي الهندوس، والذين بالنسبة لهم، ليس أمام المسلمين من خيار إلا الباكستان أو المقبرة.

في الهند ما بين 110 – 130 مليون مسلم، أي أكثر من 12% من السكان، وهذا يجعل م نالمسلمين ثاني أهم أقلية في الهند بعد المنبوذين.

الهند هي هكذا رابع دولة إسلامية من حيث عدد المسلمين بها.

توتــر العلاقــات بــين الجماعــة الإسلامية والهندوسية يرجع – في غالب الأحــيان – إلــى أن الهــندوس ينظــرون إلى المسلمين على أنهم طابور خامس لباكــستان كمــا أن المــسلمين يعانون تمييزاً خفياً يجعلهم – عملياً – مواطنين من الدرجــة الثانــية، وليس من المستغرب يجعلهم عملياً مواطنين من الدرجة الثانية، ولــيس من المستغرب أنهم يستعملون كبش فداء خلال فترات التوتر والصراعات السياسية حتى بين أحزاب الهندوس أنفسهم.

وحيث إن نخبة المسلمين هاجرت إلى الباكستان عام 47، لم يبق في الغالب إلا الفقــراء والأمــيّون، وبعد أربعين سنة فإن الجماعة الإسلامية ما زالت تعاني نقــصاً فــي القيادات، وغياب التمثيل السياسي. إذ لا يوجد حزب سياسي إسلامي كبيــر علــى مستوى الاتحاد، فقط بعض الأحزاب المحلية.لكن هذه الوضعية بدأت تتغير.

مــنذ نهايــة أعوام 60، بدأت الجماعة الإسلامية الهندية تدخل في علاقات متــنوعة مع البلدان العربية. أعداد كبيرة من الهنود – في الغالب مسلمين – ذهبوا للعمل في البلدان العربية، هذا أدى إلى :

- إحياء الانتماء لأمة إسلامية وإذكاء المشاعر الدينية، والتفقه في الدين.
- تحــويلات العامليــن من الأموال أدت إلى ظهور طبقة تجار مسلمين – في الهند – تنافس نخبة التجار الهندوس التقليديين.
- تحرير الحرفيين المسلمين من وصاية الوسطاء الهندوس، ثقافياً ودينيا.

- تدفق الأموال المحولة من البلدان العربية أتاحت حملة نشر الإسلام، هذه الحملة تمثلت في بناء المساجد في كل الاتحاد الهندي والمدارس القرآنية، وعودة ظهور إسلام قوي، والذي أدّى إلى اعتناق آلاف المنبوذين للإسلام في أعوام 80.

هذا الدعم المالي والثقافي من العالم العربي - الإسلامي - والعلاقات التقليدية مع الباكستان، والفعالية الاقتصادية، والظهور الثقافي، وتعاظم القدرة التبشيرية عند الجماعة الإسلامية دون أن ننسى معدلات الولادة المرتفعة بين المسلمين. ظهر في نظر الوطنيين الهندوس في صورة قلب الوضع السكاني، أسوأ بسبب ارتفاع معدلات الولادة أو بسبب تزايد اعتناق الإسلام إلى جانب بروز المنافسة الاقتصادية التي تهدد الهيمنة التقليدية للتجار الهندوس.

أما على المستوى الدولي: في البلدان المجاورة للهند، لوحظ منذ أعوام 70، تنامي نشاطات إسلامية، الثورة في إيران، حرب أفغانستان، تطوّر وعي سياسي إسلامي في المنطقة، انهيار الاتحاد السوفيتي الحليف الأساسي للهند في المنطقة، وظهور دول إسلامية في آسيا الوسطى، مما يشير إلى تهديدات موجهة إلى الاتحاد الهندي، نموذجها أزمة كشمير: على كل حال صار على سلطات الاتحاد الهندي أن تفهم أن الأقلية المسلمة لن ترضى بوضعها السابق.

- **تنوع الأسباب:**

في سنوات 50-60. كان السبب الأساسي وراء الاضطرابات، ذا طبيعة اجتماعية اقتصادية، يرجع في الغالب إلى التنافس بين طبقة التجار الهندوس والمسلمين. لقد ظهر التجار المسلمون على أنهم منافس للتجار الهندوس، بفضل التجارة مع بلدان العالم العربي - الإسلامي، وبفضل تحويلات العاملين في البلدان العربية الإسلامية.

لكن الاضطرابات كانت، نسبياً، أقل دموية، تستهدف أساساً تدمير المحلات والخيرات الاقتصادية للتجار المسلمين، لهذا فإنها انحصرت في المراكز العمرانية

ذات الأقلـــية الإسلامية الكبيرة، وحيث يوجد مهاجرون هندوس فرّوا من السند، أو من البنجاب خلال تقسيم 47، ولهذا السبب يحقدون على المسلمين.

في سنوات 80 –90، تحت تأثير الأحزاب السياسية، صارت الاضطرابات أكثـــر سياســـية، هكذا صارت الاضطرابات مؤسسة على الصعيد الوطني، على يد المتطـــرفين الهندوس، بهدف تعبئة جماهير الهندوس سياسياً وثقافياً وانتخابياً. لهذا الـــسبب كـــان تدميـــر مـــسجد أيودهيا أساسياً على المسرح السياسي. المتطرفون الهـــندوس يدّعـــون أنه بُني عام 1528 على انقاض معبد قديم كان مقاماً في مكان ولادة الإلـــه راما. مع ملاحظة أن الإنجليز استعملوا هذه الأسطورة، وهذا المسجد لتعميق الانقسام بين المسلمين والهندوس.

هكذا صارت الاضطرابات أكثر دموية، وأقل تلقائية، وشملت عدداً متعاظماً من الولايات، حيث يأمل الهندوس الفوز في الانتخابات، فإنهم لا يترددون في إثارة المـــشاعر ضد المسلمين فيظهر الأمر على أنه هندوس ضد مسلمين، ما يؤدي إلى تصويت الهندوس لصالح الأحزاب الهندوسية.

عشرات الضحايا عام 50. سنوياً حوالي ألف ضحية في أعوام 90، في 40 سنة حوالي 15 ألف ضحية معظمهم من المسلمين. منذ عام 80 سقط 5 آلاف. مما يشير إلى تفاقم ظاهرة العنف الطائفي.

- **الناكساليت:**

جماعة ذات توجه يساري ماوي، تمثّل على المستوى الوطني الهندي الخمير الحمر في كامبودج، والدرب المضيء في البيرو.

مـــصطلح ناكـــساليت مأخـــوذ من اسم المنطقة – ناكسا لباري – في ولاية البـــنغال الغـــربية، حيث عام 1967 تفجر تمرد الفلاحين الذي امتد نطاقه إلى عدة ولايـــات مجـــاورة، رغم القمع الذي واجهته به سلطات نيودلهي المركزية، إلا أن بعض الجماعات نجحت في استمرارية فعلها حتى اليوم.

الاتحاد الهندي فسيفساء من الأعراق، والديانات، والثقافات والقبائل والأقاليم

ذات الخـــصوصيات، التـــي تعيش توتراً يكاد يكون مستمراً، لا تنطفئ بؤرة حتى تــشتعل أخرى. هذا التوتر يظهر أحياناً في شكل اضطرابات طائفية دينية، وأحياناً عرقية، وأخرى هوية، وإقليمية .لا يحافظ على تماسكه الهشّ إلا نظام دولة وطنية ذات سلطة مركزية، وأعداد هائلة من قوات الأمن تردفها في غالب الأحيان قوات الجيش، وحدود يحميها المدفع والدبابة و1.2 مليون جندي.

هل لنا أن نتخيل ماذا يحدث؟

- عندما يتقلص سلطان الدولة الوطنية.
- وتنفتح الحدود بفعل العولمة.
- أو أن الدبابة والمدفع يصيران غير قادرين على حماية الحدود.
- أو ببساطة أن الحدود التي يحميها المدفع والدبابة لم تعد حدوداً؟.

الجـــواب المنطقـــي أن الفسيسفاء سوف تتفكك، مكوناتها العرقية، الدينية .. سوف تنجذب نحو أمثالها.

الاتحـــاد الهـــندي يبدو أكبر من أن يستمر دولة واحدة في عالم تنقرض فيه الديناصورات.

المراجــع

1 – قاموس الصراعات

بإدارة : ج م. بالأنسى. أرنودولاقرانج.

تقديم : ج ك روخان.

نشر ميشالون. باريس. مارس 1999 .

2 – سكان العالم. س بروك

طبع دار التقدم موسكو 1983. ص 313. 319 .

3 – حالة العالم 2000

موسوعة اقتصادية جغرافية سياسية

نشر لاديكوفيرت. باريس 1999 .ص 278. 283 .

4 – حالة العالم الثالث: موسوعة اقتصادية اجتماعية سياسية .

نشر لاديكوفيرت. باريس.1989.

بديلاً عن خاتمة

نحو عالم فضاءات ....!!!!!

انتفاضـــات، حـــركات مسلحة، مليشيات عرقية، جماعات مسلحة، تشكيلات شبه عسكرية: تلتقي، تتخالف، تتصادم، وتواجه الدول الوطنية:

- من المليشيات النصف عسكرية سياسية، النصف عرقية. والعصابات النصف إجـــرامية، النصف عرقية، في الولايات المتحدة، إلى ثوار الشاباس الهنود، وجماعة الدرب المضيء.
- من أيتا الباسك إلى انتفاضة المهمشين في الفيليبين .
- من ارهاصات تفكك الاتحاد الهندي، إلى تصدعات المارد الصيني.
- من مأساة البوسنا وكوسوفر والشيشان إلى بحيرات الدم الكبرى في أفريقيا.
- ومـــن الفوغائـــية المـــسلحة في كردستان، وصحوة الفجر إلى حيرة إيران وتساؤلات الروس.

بـــؤر التوتر هذه والصراع، تبرهن على تنوع الصراعات التي تهزّ العالم، وتنخـــر أساس الدولة الوطنية في عالم يتعولم الذين لا يرون من العولمة إلا آثارها الاقتصادية، سلبية كانت أم إيجابية، لا يرون أبعد من أنوفهم.

والـــذين لا يدركـــون آثارهـــا إلا مـــن خلال مفهوم تقليدي للسياسة سوف تصدمهم المفاجأة.

ربمـــا هـــذه الـــصراعات ليست جديدة، لكن الجديد أنها اتخذت على خلفية جديـــدة، خلفية عولمة تقوّض سلطان الدول الوطنية. العولمة تقوض سلطان الدول الوطنية، لكنها لا تدرك، أو لا يهمها أن تدرك، أنها بهذا إنما تعمل لصالح حركات ما فتئت تنادي الدولة الوطنية ولا تنتظر فرصة أفضل.

في مواجهة سلطان العولمة، وتقلص السلطان الوطني، مرغوب أم غير مرغوب. ثمة مساران:

- مسار يتجاوز الوطنيات نحو سلطان عالمي: لكن هذا سيكون أكبر وأبعد من أن يحقق انتماء بين قواعده الاجتماعية، والتي تترك لحالها، باحثة عن رباط لم تعد توفره الدولة الوطنية.

عهد الديناصورات السياسية ولّى. والذين ربما يحتجون هنا بدولة كالصين أو الهند، يخطئون كثيراً، هذا النموذج من الدولة لن يكون له وجود.. الصين والهند ليستا إلا نمطاً من الدولة الوطنية. العولمة لا تسمح ببقائه .

- نهاية نمط الدولة الوطنية لا يعني نهاية الدولة، هذه الحركات، التي تناولنا نماذجها، لا تقاتل الدولة الوطنية من أجل الوقوع فريسة سلطان عالمي، ولا من أجل أن تضحي بهويتها مقابل هوية سلعية - ماركانتية - إنها تقاتل من أجل كيان اجتماعي، دولة على أسس اجتماعة وهوية.

العامل الاجتماعي، العرقو ثقافي، يمكنه أن يأتي بما لا تشتهي سفن العولمة.

إن ما عرضناه سابقاً، وفي أشكاله المختلفة، يشير في العمق إلى مأزق الدولة الوطنية: تحت ضغوط العولمة، وفي مواجهة بروز العامل الاجتماعي، يمكنه أن يساعدنا في تصور العالم الذي يمكنه أن ينشأ مستقبلاً.

التوترات الحالية، ليست ما كانته في ظل دولة وطنية قوية مدعومة من السوق الوطني، إنها اليوم عامل صياغة حياة جديدة. ما بين دولة وطنية تحتضر، وبوادر سلطان عالمي مرفوض، تظهر فرصة فضاءات جديدة. والتي لن تكون على شاكلة دولة وطنية كبرى، بل مجرد فضاء - مجال حيوي - يجمع هويات وأعراقاً وثقافات، لا رابط بينها غير التعاون الاقتصادي، هذه الفضاءات تكون أكثر مرونة من أن تعيق ازدهار الهويات والثقافات، وأقوى وأكبر من الدولة الوطنية من أجل البقاء في ساحة العولمة.

مستقبل العالم يبدو فضاءات كبرى، هذا يكاد يكون واقع الحال، لكن على

أسس غير أسس الدولة الوطنية. فرصة الإنسان اليوم أن يوفّق بين عالم يتحول إلى فضاءات وبين إعادة بناء قاعدي تتطلب إعادة تخريط العالم على أسس اجتماعية، والتي تظهر اليوم على أنها عملية دامية.

إنّ الناظر في عالم اليوم، والألفية الثالثة تطل برأسها، سوف يدرك – ربما دون جهد كبير – أن ثمة تحولات وتغيرات عميقة، سريعة، بقدر ما هي واسعة، في مجالات الاقتصاد، والسياسة، وانعكاساتها الاجتماعية، والمعيشية.

- **في مجال الاقتصاد:**

يجري التحول حثيثاً من اقتصاد دولي إلى اقتصاد عالمي، تبرز فيه الشركات العابرة للوطنيات، على أنقاض الشركات المتعددة الوطنيات، وتتكون الديناصورات المالية والاقتصادية التي تراكم المال، وتدير سوقاً عالمياً يتجه إلى الوحدة، يخضع لآليات منفلتة من كل عقلانية، إنها باختصار ما يُدعى عولمة.

- **في مجال السياسة:**

التحول إلى اقتصاد عالمي، ضغط العولمة. بروز العامل الاجتماعي في شكل توترات، صراعات، يجعل الدول الوطنية تتلاشى في كل مكان، وتفقد سلطانها، مع انفتاح حدودها، وشل قدرتها التشريعية والرقابية، وحتى القمعية. وعجز مؤسسات الديمقراطية التقليدية، عن ملاحقة وضبط حركة الرأسمال، والقرار الاقتصادي المتجاوزين لسلطان الدولة الوطنية.

اليوم لا أحد يجهل هذا: إنه لا دولة، مهما اعتقدت نفسها قوية، تستطيع منفردة، الوقوف في وجه العولمة أو التوازن معها. العولمة، متحالفة، موضوعياً، مع العوامل الاجتماعية العرقو ثقافية، تقوّض الدولة.

في مواجهة هذه التحولات السريعة، العميقة والواسعة، سواء تلك التي تفرضها العولمة، أم تلك التي ترتبها الصراعات والتوترات الاجتماعية. بدأ من الضروري التفكير في مستقبل الإنسان، ومجتمعاته، والنظم التي تدير حياته، والكيانات التي سوف يعيش فيها.

الأشــكال الحالــية يبدو واضحاً أن العولمة والعامل الاجتماعي، سوف يأتيان عليها، وأنها سوف تتساقط، في دوامة العولمة والتوترات العرقو ثقافية، كأوراق يابسة.

مــاذا يحــدث عــندما تقــوّض العــولمة والعامل الاجتماعي شكل الدولة الوطنية؟.

ماذا يحدث عندما تتلاشى المؤسسات السياسية الحالية؟

ثمــة واقــع يفــرض نفسه، ربما أكثر مما هو مرغوب، الكيانات السياسية الحالية، بما في ذلك الدول الوطنية، ومؤسساتها، لا يمكنها مواجهة عاصفة العولمة ولا فــي إمكانها إيقافها ولا حتى التوازن معها، وليس في إمكانها مواجهة توتراتها الداخلية الناجمة عن ظهور العوامل العرقو ثقافية.

أنْ نريد ليس دائماً أن نستطيع، المهم إذن ليس فقط ما نريد وإنما أيضاً ما نستطيع.

العــولمة يمكــنها أن تفرض علينا واقعاً ليس من اختيارنا، لكنها لا تستطيع منعنا من الاختيار.لا مفر إذن من التفكير في بديل.

نحن في هذه الحالة بين خيارين:

1- إمــا الانــتظار، أي الــتقاعد والاستسلام، ومشاهدة عاصفة العولمة تدمِّر، تخرّب، وتفتّت، أي نتكبّد الأحداث دون مقاومتها، أو حتى التعامل معها.

2- وإمــا الــبحث عــن كيانات أكبر من الدول الوطنية، يمكنها توفير الحماية والأمــان، والحفــاظ على الهويات، وإتاحة مصالح مادية، لا يمكن بدونها تحقيقها في مواجهة عاصفة العولمة.

الانــتظار، اللا فعل، بينما العولمة تجري، والدول الوطنية تتآكل وتتصدع، أفقــياً ـ بفعــل التوترات الاجتماعية، ورأسيا بفعل العولمة، نتيجته واضحة مقدماً: الإنسان، في كل مكان سيكون كريشة في مهب العواصف: الهويات تمحو الثقافات تدمر، المصالح تضيع .. إنه موقف سلبي يبدد آمال الهويات.

إذن يبقـــى أمامـــنا الخيار الثاني: البحث عن تكوين كيانات أقوى وأكبر من الدولـــة الوطنـــية، يكون بإمكانها الصمود، بأقل الخسائر، وإن لم تتمكن من تطويع العولمة، وتحويلها إلى مسار إيجابي، فإنها على الأقل، تخلق توازناً معها.

الـــتقوقع داخـــل أســـوار الدول الوطنية، يتبدى شيئاً فشيئاً مستحيلاً، أو هو الاختناق الذاتي، إضافةً إلى أن هذه الأسوار تقوّض من الدخل بفعل العامل العرقو ثقافـــي التفكيـــر فـــي مؤسسات ديمقراطية عالمية، تكون موازية للعولمة، وكابحاً لجماحهـــا، يتـــبدّى لا واقعـــياً، ويخاطـــر بأن يجعل السياسي يقع نهائياً في قبضة الرأســـمال المعـــولم، كما أنه لا يأخذ في الاعتبار مطالب الحركات والانتفاضات الاجتماعية التي لن تقبل باستبدال السلطان الوطني بسلطان عالمي.

هـــذه المؤسسات، إن قامت، لن تكون ديمقراطية، وأبعد من أن تمنح انتماء عالمياً لقاعدة تسقط في الفوغائية العالمية.

مـــا بـــين الدولـــة الوطنـــية التي يتبدى عجزها، والدولة العالمية المستحيلة والمرفوضة، يقع خيار المجال الحيوي طريقاً ثالثاً.

هـــذا هـــو المجـــال الحـــيوي، والذي هو رد السياسي على الرأسمال، رد الاجتماعي على السوق المعولم.

- الـماهية:

المجـــال الحـــيوي هـــو إذن الفضاء المعنوي والمادي، حيث يمكن الحركة والعمل لإنتاج الحياة، وممارسة النشاطات الإنسانية.

باختصار إنه ما يجعل الحياة، في بعديها المادي والمعنوي، ممكنة. ومن هنا تأتي الصفة (حيوي) المضافة للمجال.

- تغيّرات المفهوم:

هذا المفهوم تطوّر واتّسع، اجتماعياً وتاريخياً، ابتداء من الفرد إلى الجماعة، إلى الدولة، واليوم رداً على العولمة، بدأ يأخذ أبعاداً أوسع من الدولة ليشمل عدة جماعات.

إن لكل فرد مجاله الحيوي، الفرد يحتاج، يتنفّس، يتحرّك، يعمل لإنتاج حياته، يمارس نشاطاته الإنسانية، إذا حيل بينه وبين الهواء مات مختنقاً، وإذا منع الحركة ترهل وفقد لياقته البدنية، وإذا لم يمكنه العمل وإنتاج حياته، مات جوعاً. وإذا لم يمارس نشاطاته الإنسانية استوحش.

المجال الحيوي في هذا المستوى هو : الدائرة حيث يمكن الفرد أن يتنفس، يتحرك، يعمل، ويمارس نشاطاته الإنسانية.

ما قبل تأسيس الجماعة، تداخل مجالات الأفراد ينتج الصراع والاقتتال، الهلاك، أو العبودية، وحرمان طرف لصالح طرف آخر.

في مرحلة الهمجية، القوة هي المنظم الوحيد لمجالات الأفراد الحيوية.

عندما اجتازت الإنسانية مرحلة الهمجية، تأسس مع الجماعة مجالها الحيوي. الجماعة أيضاً تحتاج، تتحرك، تعمل من أجل إنتاج حياتها، وممارسة نشاطاتها. المجال الحيوي للجماعة هو : الفضاء حيث يمكنها الحركة والنشاط والعمل.

ومع أن مجال الجماعة هو مجموع مجالات أعضائها، إلا أن تأسيس الجماعة ينتج مجالاً يتجاوز مجالات أفرادها، ومع أن لكل فرد مجاله الحيوي، بين جماعته، إلا أن نظام الجماعة كفل للفرد مجاله الحيوي، وأحل التعاون والتكامل بين مجالات الأفراد، محل النزاع والصراع. هكذا صار نظام الجماعة المنظم لمجالات أفرادها. جماعة الفرد هي مجاله الحيوي.

هكذا، مثلاً، الجماعة الرعوية تحتاج إلى المراعي حيث العشب والماء، وحيث تتحرك بحثا عن الغذاء والماء لقطعانها مصدر حياتها.

أما الجماعة الزراعية فإن مجالها الحيوي هو الأراضي التي تستطيع زراعتها بعملها لإنتاج حياتها.

المراعي ضرورة حيوية للجماعة الرعوية، الأرض ضرورة حياتية للجماعة الزراعية.

حرمان الجماعة الرعوية من مجالها الحيوي ـ المراعي ـ يعني موتها.

حرمان الجماعة الزراعية من مجالها الحيوي ـ الأرض ـ يعني جوعها وهلاكها.

هكذا الجماعة الرعوية لا تتردد في القتال، دفاعاً عن مجالها الحيوي، كما لا تتوانى الجماعة الزراعية عن الدفاع عن أراضيها.

وإذا كان تأسيس الجماعة قد مكّن من حل نزاعات أفرادها دون اقتتال، فإن تداخل مجالات جماعات مختلفة يقود إلى الصراع والاقتتال بين الجماعات، أو إلى حرمان وعبودية جماعة لصالح جماعة أخرى. العبودية هي طغيان مجال جماعة على مجال جماعة أخرى دون أن تستطيع له دفعاً.

مع ظهور الدولة توحدت مجالات الجماعات المكونة للدولة، ليظهر مجال حيوي يخص الدولة، والذي يمتد أحياناً إلى ما وراء حدود الدولة، ويتداخل مع مجالات حيوية للدول الأخرى.

وإذا كان نظام الدولة قد استبعد النزاع بين المجالات الحيوية داخل الدولة، بحيث صارت مؤسسة الدولة المنظمة للمجالات الحيوية داخلها، فإن الصراع صار ما بين الدول، وأدى هذا إلى ظهور مجال حيوي يخص الدولة، يستوعب ويتجاوز، ولو مؤقتاً، المجالات المكونة لها. ورتب الدفاع الجماعي كواجب على المواطنين.

التطور الاقتصادي، والتقني، واتساع مجالات التجارة وظهور الرأسمالية، أعطى المجال الحيوي أبعاداً جديدة : لقد صار جغرافياً أقل تحديداً : الطرق التجارية، برية، بحرية، وحتى الجوية، الأسواق، مصادر المواد الخام، مهما بعدت أحياناً عن التراب الوطني، صارت مجالات حيوية.

المجال الحيوي صار مطلب كل دولة، وارتبط بالسوق الوطني، على قدر اتساعه تكون رفاهية المواطنين، الاستحواذ عليه توسيعه، حمايته ضرورة حيوية. لكنه أدّى إلى :

- تناقض هوية الدولة ـ السياسية الاقتصادية. مع هوية مكوناتها كدولة وكمجال حيوي، والتي هي هوية اجتماعية.

- المجـــال الحيوي لدولة يقود إلى حرمان أمم أخرى. وعندما تتداخل مجالات الـــدول الحـــيوية، يكون الأحكام إلى القوة الاستعمار، هو تغليب مجال دولة عل مجال آخر.

الدولة الوطنية نشأت هكذا متوترة، في الداخل بسبب عدم قدرتها على توحيد نهائـــي لمجالات جماعاتها المكونة لها، أو جماعات المجال الحيوي الذي تمتد فيه. العـــوامل العـــرقو ثقافـــية حالت دون ذلك. وفي الخارج ضد مجالات أمم أخرى. فظهرت هكذا قمعية في الداخل وحربية في الخارج.

لكـــن وإن أمكـــن للدولـــة، حينا، قمع العوامل العرقو ثقافية، إلا أن هذه مع ضـــعف الدولـــة تعود إلى الظهور. كما أن تحولات الرأسمالية شلّت قدرات الدولة العسكرية.

لقـــد شهد العالم قروناً من الصراع الدامي، حول المجالات الحيوية، وعاش حربين عالميتين مدمرتين.

- سمات المفهوم القديم للمجال الحيوي:

الـــيوم، مـــع العولمة، وتصدعات الدولة بفعل العوامل الاجتماعية، يشهد مفهوم المجال الحيوي تغيراً جوهرياً، لبيان هذا ا التغيير نشير أولاً إلى سمات المفهوم القديم:

1- كـــل دولـــة تحدد مجالها الحيوي، وفق مصالحها، وحدها، ووفق ما تعتبره مـــسألة حيوية: طرق، مواقع استراتيجية، مواد خام، منابع المياه، لا يهمها في ذلك مصالح الدول الأخرى.

2- هـــذا يعني أن القوة هي الحكم، بين المتنافسين، على المجالات الحيوية. قوة النيران تحدد اتساع المجال الحيوي لكل دولة.

3- هكـــذا الدولـــة القـــادرة، القـــوية، تفرض مجالها الحيوي على حساب البلد المقدور عليه.

لقـــد ارتـــبط المجـــال الحـــيوي للـــدول بالاستعمار، من ناحية، وبالصراع العسكري من ناحية أخرى.

التحولات الجارية على ساحة العالم، وفي داخل الدول، تشير إلى بوادر تغيير جوهري في مفهوم المجال الحيوي، من هذه العوامل:

1- تصدع الدولة الوطنية بفعل عوامل التفتيت الداخلي.

2- العولمة التي تقتحم الحدود، وتفتح الأسواق، وتقلّص سلطان الدولة الوطنية، وتشل سيادتها بسبب عولمة الرأسمال.

3- لم يعد بإمكان أي دولة، مهما كانت قوية. أن تحدد مجالها الحيوي منفردة، ولا أن تدافع عنه وتحميه وحدها .

4- القوة العسكرية لم تعد مؤهلة للدفاع عن المجال الحيوي بسبب تغير جوهري في طبيعة هذه التهديدات.

5- ظهور مجال حيوي يتعولم مع عولمة الرأسمال، بحيث صار العالم مجالاً حيوياً للرأسمال.

6- بروز الشركات العابرة للوطنيات، وبوادر سلطان اقتصادي - مالي عالمي. وتداخل وتشابك مصالح قوي الرأسمال على مستوى العالم، أحال الدولة إلى المعاش.

لقد صارت الدول في صراع، من ناحية، مع مجال حيوي يخصّ العالم الرأسمالي، لم تعد الدولة فاعلاً فيه. ومن ناحية أخرى في صراع مع مكونات اجتماعية تتمرد على الدولة.

في مواجهة هذه العولمة للرأسمال ولمجاله الحيوي، لا مفر أمام الدول من تكوين مجالات حيوية، تمكنها من المنافسة في السوق المعولم ومواجهة سلطان الرأسمال العالمي.

وفي مواجهة انتفاضة مكوناتها العرقو ثقافية، لم يعد بإمكانها قمعها، تواصلها مع أخواتها، عبر الحدود، صار أمراً واقعاً.

محل الصراع بين الدول، حول المجال الحيوي، بدأ يحل الصراع مع المجال الحيوي للرأسمال المعولم.

ومحل القمع الداخلي صار بالإمكان البحث عن صيغة جديدة.

سمات المفهوم الجديد للمجال الحيوي:

هكذا بدأ يتحدد مفهوم جديد للمجال الحيوي، يقوم على :

1- القبول بمصالح الآخرين: المجال لحيوي صار شيئاً فشيئاً متعدد الأطراف، إنه مبدأ الشراكة في المجال الحيوي الذي أخذ يزيح مبدأ الانفراد.

2- الدفاع الجماعي عن المجال الحيوي التشاركي.

3- المجال التشاركي : هو تجميع الامكانات والموارد، والتبادل التجاري، واستخدام القدرة الإنتاجية وحتى الاستهلاكية عند الشركاء للحصول على مكان في ساحة العولمة. إنه إذن فضاء اقتصادي تشاركي.

4- إحلال التعاون والتكامل والتنسيق محل المنافسة بين شركاء المجال الحيوي.

- شروط المجال الحيوي في مفهومه الجديد:

أخذ في الاعتبار توترات العالم بفعل العوامل الاجتماعية العرقو ثقافية، فإن المجال الحيوي لا يمكن أن يكون مجرد ردة فعل ضد العولمة. المكونات الاجتماعية، الهويات المختلفة لن تقبل استبدال الدولة الوطنية بدولة مجال حيوي، والتي لن تكون إلا قامعة:

1- الانخراط في مجال حيوي تستهدف منه كل جماعة الحفاظ على هويتها الاجتماعية الثقافية ....إلخ وهذا يعني أن المجال الحيوي يجب أن يقوم على الاعتراف المتبادل بالهويات بين الشركاء، مما يقتضي أحياناً إعادة تخريط سياسي. المجال الحيوي هكذا ليس تجمع دول وطنية ينخرها الصراع بين الهويات.

2- تحقيق مصالح كل جماعة: المجال الحيوي لا يلغي مصالح كل جماعة، ولا يستبعد الانتماء للجماعة، وإلا فإنه يصنع عندئذ ما تصنعه العولمة، تحقيق

المـــصالح يتطلب من كل شريك في المجال الحيوي، الاعتراف والأخذ في الاعتبار مصالح الآخرين.

3- وإذا كـــان التـــنازل أمراً لا مفر منه بين الشركاء، فإن تحقيق العدالة فيما يتعلق بالمصالح بين الشركاء يكون أمراً أساسياً .

4- القـــدرة على تحقيق الوحدة مع قبول التنوع. وهو التحدي الذي عجزت عنه الدولة الوطنية.

لقـــد اعـــتدنا، خـــلال أكثـــر من قرنين، على الحياة والتفكير في عالم دول international، تتـــنافس، تتعاون، تتحارب، تدخل في علاقات بينية، حيث البارجة والمدفـــع والطائـــرة تحمـــي المـــصالح وترسم حدود المجال الحيوي. ثم صارت الـــشركات الوطنية رأس حربة الدول، منذئذ أخذت الشركات تتبع منطقها الخاص، لتـــبدأ مـــرحلة تجـــاوز الدول: ومن شركات متعددة الوطنية - الجنسية - صارت شـــركات متجاوزة الوطنية، متجهة إلى عولمة السوق، وجعل العالم مجالها الحيوي الموحد. ومن اقتصاد دولي إلى عولمة الاقتصاد.

هذا التفكير صار اليوم فاقد الأساس، الدولة تتصدع، أفقياً بفعل توترات عرقو ثقافية ترفض القمع، ورأسياً بفعل عولمة تتجاوز الدولة.

هـــذا الـــتطور أخذ يفرض صيغة جديدة : ومن عالم دول نرى اليوم يتأسس فـــضاءات أو مجـــالات حـــيوية، آخـــذاً في الاعتبار التغيرات والتوترات العالمية الجارية، فإن التجمعات الكبرى وحدها قادرة على الحياة اقتصادياً.

هـــذه الـــتجمعات يمكن أن تتجاوز، في تكوينها العوامل التقليدية التي تربط الجماعات: مثل العرق، الدين، اللغة ...ألخ

وأن تتأسس على روابط مصلحية اقتصادية، لكنها لا يجب أن تقوم ضد هذه الروابط ولا أن تحاول إلغاءها.

اخـــتلاف الهـــويات، دينية، اجتماعية، عرقية ثقافية، في حدّ ذاته، وحتى اخـــتلاف المـــصالح لا يعـــيق، بالـــضرورة التعاون وتكوين مجال حيوي بين

المختلفـــين. على العكس. الاختلاف والتنوع هو الذي يجعل الشراكة ذات معنى وجـــدوى، شـــريطة ألا تحـــاول جماعة تغليب هويتها، أو مصالحها على حساب شركائها الآخرين في المجال الحيوي.

هـــذه الشروط تحكم تكون المجالات الجاري حالياً، احترامها هو شرط بقاء وقوة هذه المجالات، ونهاية التوتر العرقو ثقافي.

العـــولمة الجاريـــة يمكنها أن تدمر الأشكال السياسية الحالية في عالم اليوم، لكـــن لا شـــيء يبـــرهن علـــى أنها تتحكم في إعادة صياغة الحياة السياسية وفق مشيئتها. الحركات الانتفاضات، التوترات العرقو ثقافية تذكِّرنا بهذا أن نسينا.

ثبت عام بالمراجع

1ـ موسوعة الصراعات

إدارة. ج م بالأنسى. أرنود ولاقرانج.

تقديم: جان كربيستوف روخان.

نشر: ميشالون. باريس 1999.

2ـ حالة العالم 2000

موسوعة اقتصادية جغرافية عالمية

نشر لاديكوفيرت. باريس.1999

3ـ سكان العالم

س بروك

دار التقدم. موسكو. 1983 .

4ـ حالة العالم الثالث : موسوعة اجتماعية سياسية اقتصادية

لاديكوفيرت. باريس. 1989.

5ـ تأثر الاجتماعي

د. رجب بودبوس

نشر دار الرواد. دار الأفاق الجديدة. طرابلس. بيروت 2000.

أنظر أيضا:

1ـ نحو تفسير اجتماعي للتاريخ: د. رجب بودبوس

الدار الجماهيرية 1984 .

2ـ مواقف 5 د. رجب بودبوس

موقف 6. الصين من الإمبراطورية إلى الجمهورية .

الدار الجماهيرية 1995.

3ـ مواقف 6. د. رجب بودبوس

موقف 12. القومية والوطنية.

موقف 13. بلقنة البلقان.

الدار الجماهيرية 1996 .

4ـ مواقف 7 د. رجب بودبوس

موقف 10. مأساة البحيرات الكبرى.

موقف 11. القبيلة والدولة في أفريقيا.

الدار الجماهيرية 1998.

5ـ مواقف 8. د.رجب بودبوس

موقف 8. العولمة.

موقف 9. فخ العولمة.

موقف 10. عولمة الاجتماعي

موقف 11. العولمة والوطنية.

موقف 12. الحرب الأهلية العالمية.

الدار الجماهيرية .1998

6ـ ثأر الأمم . الان مانس

قراسيه. باريس 1990 .

7 ـ تغيير المرحلة .جاك روبان.

سوى. باريس. 1989

8 ـ نقد الحداثة . الان توران.

فايارد. باريس. 1992

9 ـ التنمية: تاريخ عقيدة غربية

جلبير دست

طبع علوم سياسية. باريس. 1996

10ـ مجد الأمم : هيلين كادير دانكوس

فايارد. باريس. 1990

11ـ إلهى ما أجمل الحرب الاقتصادية !!

البان ميشل. باريس. 1998

12ـ الحرب العالمية الثالثة بدأت

فيلب انجلهار

ارليا. باريس.1997

13ـ الرعب الاقتصادي

فيفيان فوريستر

فايارد . باريس .1997

14ـ فخ العولمة

هانز بيتر مارتان. هارالد شومان

سولان. باريس.1997